أيمن رجب طاهر
المشعلجي
رواية
كيان
KAYAN PUBLISHING

المشعلجي

المشعلجي

رواية

الإهداء

إلى

درع مصر

جيشنا الوطني العظيم

(1)

يتمايلان..
أحدهما يضرب كتف الآخر فيتلسّن بشتائم عبثية، ورغم ما احتسياه من خمر يشعل جذوات الدفء فإن شتاء يناير يهرأ أطرافهما، فينتفض أطولهما، تنزلق قدمه في نقرة طين عفنة فيتسنّد على كتف رفيقه الأقصر منه، ويلعن التجوّل في الشوارع الخالية من المارة، يجمد عنقه ويتسمّع لخطوات خافتة، يستدير فيرى شبح سيدة تلف جسمها بشُقّة سوداء تحمل على رأسها قفة وتميل في مشيتها نحو فتحة أول حارة، يضيّق أطول الجنديين عينيه الزرقاوين ويتدلّى فكه في اشتهاء، يهاتف رفيقه بحروف متكسرة: ـ انظر، هناك.. هناك.
ـ ماذا هناك؟
ـ ووماااان جميلة، نتبعها لبيتها.
ـ فتاة؟ لكن أخاف أن...
ـ لا تضيع ساعة حظنا، ربما تعيش وحدها وتحتاج لرجل يؤنس وحدتها في البرد.
تنتفض لدبدبة أحذيتهما وقبل أن تكمل استدارتها تقبض أصابع الرجل الباردة على كتفها فتلتفت في حدة وتصفعه على خده فمال جذعه وطارت قبعته، تسرع خطواتهما خلف المرأة إلى أن أخفاها انحناء العطفة الضيقة، أغلقت خلفها باب بيتها فوقف الجنديان يدققان النظر في فراغ الحارة وحملق أحدهما في قامة رجل يمسك بيده عمودًا وعلى ظهره سلم، يثبته على الجدار ويصعد في تأنٍ أمام مصباح أعلى باب بيت، يميل الجندي الطويل ذراعه للمخلف ويبذل ما بقي من قوته التي تبددت بفعل السُكر، يلقي زجاجة الخمر الفارغة فتتجاوز الرجل ويتجاهل اصطدامها بالجدار، يعبئ فمه بالهواء وينفخ لكن لسان النار المتراقص يقاوم الانطفاء، يقحم كفه بالصندوق الزجاجي ويطفئ ذبالة المصباح.
في غبشة أول النهار يرقب الجنديان الرجل وهو ينظف زجاج المصباح، ببطء ينزل تقبض أصابعه على ماسورة الحديد، تصطك أسنان أطولهما رهبة بينما الآخر يشهر مسدسه ذا الساقية الدوارة، يثبت إصبعه على الزناد ويتهيأ له أن الرجل الذي لا يبين وجهه من بعيد يوجه إليهما فوهة سلاح، تنطلق الرصاصة فتصيب رأس الرجل فيتطوّح ويتفلطح جسمه على الأرض.
زعقات وأصوات لاغطة، على صوت الرصاصة ينفتح باب آخر الشق الضيّق ورجلان يجريان نحو المصاب أسفل مصباح الإنارة، فلم يتحمّل الجنديان المواجهة فركضا مختفيين مع انكسار أول الحارة، رجلان يقفان أمام الجسد المكوّم، دون أن يعدله أحدهما أمسك بمشعله..
ـ الإنجليز قتلوا تقاوي، لمحتهم هاربين من العطفة...
ـ تقاوي ابن فيض الله الساكن جنبنا في ربع المشعلجية.
في جزع مشحون بالتوتر كرّر الرجل كلماته وصاح بها فانضم لهم جيران آخرون، تجاسرت يد أحدهما وعدل القتيل، رفع رأسه ثم خفضه واضعًا أذنه على القلب، التفت إليهم وعيناه زائغتان..

ـ فيه النفس والإصابة في عينه، ننقله بسرعة لمارستان قلاوون.
ـ الصبر يا جماعة، فحصت دماغه والرصاصة جرحت حاجبه، الأحسن ننقله وبسرعة لمستشفى قصر العيني.

***

(2)

لم يعتد تقاوي النوم نهارًا فتململ في رقدته ثم هبّ جالسًا وقدماه تتحسّسان الخف الجلدي، برفق فرد كفه على الضمادات الملفوفة حول رأسه، تواترت أصوات أذان العصر من مسجدي مقام السيدة زينب وصرغتمش القريب من الربع، تقبل ابنته منيفة بالطعام، فأشاح بوجهه ممتنعًا وأخبرها أنه أكل قبيل خروجه من مستشفى قصر العيني، نقرات متتالية فتفتح الفتاة الرشيقة الباب، يلقي جارهم وصاحب أبيه السلام ويجلس، يرفع سبابته معاتبًا: ـ كان من الأفضل تبقى يومين بالمستشفى.

ـ بيتي أولى يا عم معروف غير أني ملتزم بإشعال أعمدة ومصابيح الأبواب بالأزقة قرب العتمة.

يهم معروف بالوقوف فمنعه دخول العجوز فيض الله محني الظهر يتوكأ على عكازه، يتحاور مع نفسه بصوت مكتوم لا يسمعه غيره، ثم يرفع صوته آمرًا: ـ اقعد يا معروف.

ـ عليّ ست قرب لازم أحضرهم للناس.

ـ آه، المجرمون، لو عرفتهم لقطعت رءوسهم.

ـ قدّر ولطف يا فيض الله، وحمدًا لله على سلامة تقاوي.

يغادر معروف السقاء فيتناول تقاوي عدة لقيمات قليلة ويرفع القلة على فمه فيجرع الماء في سرعة، يودّع أباه المسن ويوصي ابنته منيفة بجدها حتى يعود بعد العشاء، في سرعة يخرج من الحارة المؤدية إلى الشارع الكبير، دون توان تتسارع خطواته نحو القهوة، بقطعة قماش طفق يمسح الدكك وينقل الشيشة التي تركها المدخّنون إلى الداخل، بمقشة مضفورة من سباط النخيل يكنس بين الكراسي الواطئة ومن جردل يرش الماء أمام القهوة، يربت المعلم حسين على كتفه تقاوي..

ـ عرفت بما حصل من أولاد الملاعين.

ـ الحمد لله يا معلم، إصابة رأسي خفيفة.

ـ كان ممكن تروح فيها لو الرصاصة في...

ـ قدّر ولطف يا معلم.

من جيبه يضم المعلم حسين قروشًا ويعطيها لتقاوي، تتخالط أصوات الأفندية الجالسين خلفه، دخان سجائرهم يعبق المطرح ويشفطون الشاي بصوت مسموع، أحدهم مدّ قدمه فوق صندوق واحد من ا لبو هياجية[1] فانهمك في تنظيف حذائه من بقايا الطين، رفع رأسه وتحدّث إلى رفاقه: ـ سمعت الخبر يا محروس أفندي، سعد باشا خطب في بيت حمد الباسل وأعلن أن حماية الإنجليز على مصر باطلة وناوي يسافر باريس.

ـ يا سيدي، من شهرين كان معه عبد العزيز فهمي وصاحبه شعراوي وراحوا لدار المندوب وقابلهم السير ريجنالد ونجت وخرجوا من عنده قفاهم يقمّر العيش وجمعوا توكيلات ولا حياة لمن تنادي.

ـ لكنه مصمم يسافر باريس.

ـ آه لو أصحبهم وأشتغل هناك، شغل الخوجة[2] بملاليم في مدرسة يقصّر العمر.
ـ باريس خربت بعد الحرب يا أستاذ.
ـ أسافر لندن وأشتغل هناك عند الإنجليز.
ـ وتعمّر بلد عدوك.
التفت الأفندية بطرابيشهم الحمراء المكوية إلى صوت تقاوي الواقف أمامهم، تعتصر أصابعه يد المقشة وبدت عليه أمارات الغضب من حوارهم المستهين بما يجري في البلد، رغم عدم وجود ذباب استمرّ محروس أفندي في هزّه للمنشّة، يرمقه بنظرة متعالية ويشير: ـ أعرفك، أنت ابن فيض الله المشعلجي، سافر أنت يا مشعلجي ونوّر أعمدة الطريق لسعد زغلول.
ـ فيه مشعلجية اليوم؟ راحت عليهم خلاص، أعمدة الشوارع تنور وحدها.
ـ في الشوارع العمومية يا أفنديات لكن فوانيس ومصابيح الحارات والأزقة تحتاج لزيت وكتان لتنور.
ـ وأجرك؟ تشحذه من الناس؟!
ـ أجري على الله ومن هبات أصحاب البيوت.
ـ عفريت الليل أجره على الله.
يتبادلون الضحكات فنهض أفندي آخر من على دكةٍ بعيدة وقلب المنضدة أمامهم، تأرجحت نظراته بين تقاوي والثلاثة والشرر يتطاير من عينيه..
ـ تنكت على الغلبان لأنه قال كلمة حق!
ـ حق، أي حق يا شيخ عبد الحق، وكلنا هنا نشتغل عند الإنجليز، والبلد بلدهم.
ـ البلد بلدنا وما نعوزه ويطالب به سعد زغلول هو خروج الـ...
ـ خروج الإنجليز من مصر، كلمة يثرثرها كل لسان.
ـ كل لسان يطالب بحقنا.
ـ الليل ليّل يا مشعلجي، حضّر سلمك والعمود، وأنت يا هلال أفندي اهدأ وأكمل شرب الشاي مع جارك.
هوّم الأفندي الثائر وجلس صامتًا أمام صاحبه الساكت طوال الوقت، أقام تقاوي المنضدة المقلوبة، ضحك محروس أفندي وقال لرفاق قعدته: ـ من يوم ما انتهى عرض حمار وحلاوة وكشكش[3] بيه وحشنا مسرحه.
ـ يمكن مشغول في رواية غيرها.
في حنق استدار تقاوي واستأذن من المعلم حسين تاركًا الأفندية يستأنفون المناكفة حول مشاوير سعد زغلول لقصر الدوبارة مقر المندوب السامي البريطاني، وما سيقدم على المسرح، أنهى البوهيجي تنظيف حذاء محروس أفندي فناوله مليمًا، تأفف الرجل وطلب في تهكم: ـ تصدّق عليّ بمليمين أو أربعة يا أفندينا.
ـ مليمين في عينك، أقبضك قرشين أحسن.
ـ خسارة فيك مسح نعلك.

ـ امش الله يلعنك آنت والمشعلجي في يوم واحد.
هزّ تقاوي رأسه وضحك، عاد إلى البيت فاستقبله أبوه وتجاعيد وجهه ترسم عبوسًا، وتجهمًا شديدين لما أصاب ابنه وعائلته أول الصباح من رصاصة إنجليزي كادت تقتله بالعطفة المجاورة، انبساط وجه تقاوي خفّف عنه توتره وسأله: ـ أنهيت شغلك بالقهوة؟
ـ المعلم حسين طيب ويستحق أخدمه لكن الناس...
ـ ما لك والناس؟
ـ الزبائن كلامهم سم، تصوّر يا أبي غير مقدرين ما يطالب به سعد باشا وكل همهم مسرح كشكش بيه.
ـ عرفت أن سعد باشا كتب ورقة للملعون ونجت، وربنا ينجّح مقاصده، لكن قل لي، ذهبت لبيت عزيز المصري؟
ـ لا، من البيت للقهوة إلى هنا وراجع ألف على الأزقة والحارات لأجل أنـ...
ـ في الصبح بعد إطفاء مصابيح البيوت وتنظيف قناديل مسجد السيدة زينب، أبقى اسأل عن حليمة هانم بنت عزيز المصري وارع جنينتهم، بعد موت زوجها في الغربة تعيش وحيدة في بيت أبيها.
ـ حاضر، بنتها المتزوجة عصمت الشركسي عرفت أنها ماتت واندفنت في بورسعيد.
ـ لكن لأسرة عزيز بك المصري مقابر في السيدة عائشة.
ـ زوجها الشركسي يعمل في القناة ولما ماتت الست ألطاف دفنها هناك.
كعادته يغمغم فيض الله بأصوات غير مفهومة فتواترت كلمات اعتاد تقاوي سماعها كـ: الله يلعن الشراكسة.. كان ذبحهم محمد علي كلهم..
ـ الله يلعنك يا عثمان رفقي أنت وكل الشركس والأتراك والأرناؤوط.
رددت منيفة كلمات جدها المكرورة وهي تبتسم لأبيها فأوصاها بعشاء جدها ومنعه من الخروج لأنه ينسى أحيانًا طريق العودة وتتعذّر رؤيته بالليل، صامتًا لفّ تقاوي الشملة المرقعة على رأسه، حمل أدواته وعاد إلى الشارع العمومي، تأمل الأعمدة المضاءة بمصابيح الكهرباء، تلك الكهرباء التي دفعت أباه ورفاقه من المشعلجية أن يسلكوا أعمالًا أخرى غير إشعال مصابيح الأعمدة بعد تسريحهم من الجيش، وهجر معظمهم بيوتهم بالربع ساعين في بلاد الله طلبًا للرزق، يكاد يكون هو آخر من يحمل العمود والسلم، مصمص شفتيه حسرة على مهنته ومهنة أبيه القديمة التي كاد الناس ينسونها، خطا نحو العطفة وما إن صعد وأشعل مصباح العمود الوحيد حتى نكأت ذكرى صباح أول النهار رأسه، تحسّس الضماد الملفوف أسفل الشملة، بتأنٍ نزل من على السلم ليواصل إنارة بقية مصابيح أعلى أبواب البيوت.
عجوز أحسّت بحركته فأطلّت من نافذة مشربيتها، نزلت إليه وقدّمت له رغيفًا شمسيًا مستديرًا وقطعًا من الجبن، حمل السلم إلى باب البيت المقابل، تارة أخرى صعده ونظف الفانوس المعلق من بقايا الزيت والأتربة ولمّع زجاجه الذي أعتمه الدخان، غيّر فتيلة الكتان وغمسها بزيت الخروع وأشعل بها النار.
ـ شكرًا يا تقاوي يا ولدي، يوسف يحضر الليلة وأخاف يقع ونظره ضعيف.
ـ خدامك يا أم يوسف وإن شاء الله ننوّر الشارع يوم فرح يوسف وتريزا.

ـ الله يعزك يا تقاوي، وآخبار فيض الله.
ـ بخير، يقاسي كغيره.
ـ يا سلام على الناس النزيهة، عمره ما أهان نفسه ولا دخل في جوفه حرام، أبوك يا تقاوي كان أحسن نفر[4] في جيش عرابي أيام الهوجة[5] وترن في جيبه القروش.
ـ الله يرحم زمان وأيام زمان يا ستنا، بالإذن.
ـ قرّبت على الستين يا تقاوي، تزوج واحدة بنت حلال تخدمك وتخدم والدك العاجز.
ـ منيفة بنتي فيها الخير.
ـ مصيرها بيت زوجها.
ـ دعواتك يا أم يوسف.

ضمت أم يوسف يدها بما فيه القسمة وأعطته لتقاوي، حمل سلمه القصير ودبت خطواته فتعالت صيحات الأولاد خلفه: عفريت الليل بسبع رجلين..

عفريت الليل بسبع رجلين..

مطّ تقاوي شفتيه الغليظتين، لفّ الشملة الطويلة حول رأسه اتقاء تيار الهواء البارد، صوت عال يفرّق العيال فعادوا إلى داخل الحارة، خطواته الوئيدة تستقبل أعمدة الشارع العمومي، ألقىً مشعله جانبًا وركن السلم على العمود، صعد على مهل، المصباح بإضاءته القوية أعشى بصره، بخرقة قماش مسح صندوق الزجاج من الهباب العالقً به ونزل في سرعة، رجرجة عربة حنطور كبيرة أمامها قمشجية يفسحون الطريق للخيول، فركن تقاوي عدته لحين مرورها وأحد الرجال الماشين يغني: يا بمبة كشر يا لوز مقشر...

تمرق العربة أمامه ويتعذّر عليه رؤية العالمة الثرية ست الكل بمبة كشر والتي نادرًا ما تختلط بأحد، يحمل السلم وعمود المشعل، وأصابعه تقبض على ماعون الزيت، يهم بعبور الشارع فيصطدم طرف السلم بالحنطور المتمهّل والعالمة بين بناتها مكبوسة مع جوقتها بجوف العربة ويختلط غناؤهن والضحكات بصلصلة الصاجات ودق الدربُكة: يا عزيز عيني يا حكيمباشي

أنا بدي أروح بلدي تعالى اكشف على ولدي

بحركة مفاجئة تحسّس جرح رأسه، ودّ لو يعرف عسكري الإنجليز مطلق عليه الرصاص ويتحين الفرصة ويصطاده ويفتح دماغه بضربة من عمود المشعل، يطفو وجه أبيه العجوز وابنته منيفة وكعادته تتقهقر أي مبادرة قد تعرضه للخطر فتفقد عائلته المعلقة برقبته مصدر حياتهم، تذكر أنه يجب عليه الذهاب إلى الحكيم ليغير له ضمادات جرحه، هزّ وجهه مبتسمًا:
ـ ناس لها الأغاني والسهر والنوم طول النهار وناس تنضرب بالرصاص، يا عزيز يا عزيز، كُبّة[6] تهلك الإنجليز.

بخطوات متباطئة تمشّى مارًا أسفل مشربية بيت ساكنة هانم العالية، الباب الخشبي الكبير مغلق والنوافذ أعلاه زجاجها مكسور، فانوس يسار الباب مهشّم، دارت عينا تقاوي وصعب عليه انطفاء الفانوس السليم عن يمين الباب، ثبت السلم وصعد، نفض الزجاج المترب ومسحه، بزيت الخروع غمس قطعة الكتان ولفها مكانها، نزل وأشعل أسطوانة العمود، أماله نحو الفانوس فتوهجت ذبالته.

البقعة البيضاوية المضاءة تقاوم تيار الهواء، وتلقي ظلالها على خشب الباب، ترحّم على صاحبة الدار الكبيرة، فطالما روى عنها أبوه وجارهم معروف أنها ملأت الناحية طربًا أيام أفندينا إسماعيل، عاد إلى الربع، وما إن دلف البيت حتى أمال السلم جوار الزير خلف الباب، وركن عمود الحديد بأسطوانته الدائرية، استلقى على السرير مريحًا ظهره المكدود.

***

البوهيجي: ماسح الأحذية.
خوجة: معلم.
كشكش بك: يقصد به الممثل الكوميدي الفنان نجيب الريحاني، (حمار وحلاوة) إحدى مسرحياته الاستعراضية التي قدمها 1918م.
نفر: جندي وكان راتبه 15 قرشا.
الهوجة: ثورة أحمد عرابي.
كُبّة: طاعون.

(3)

استغلّ فيض الله فرصة وجود حفيدته منيفة بالحمّام ولف العباءة الثقيلة على جسمه، طافت نظراته بأبواب البيوت المغلقة وتمنّى رجوع جلال بن محمود البنهاوي ليسلمه مفتاح بيته، أما بيت صاحبه معروف فهو الوحيد القاطن معه بعد هجر بقية المشعلجية، ومن خمسة وعشرين سنة اشترى المقدس فنجري البيت المجاور من أولاد سعيد المشعلجي بعد وفاته وعودة أولاده لبلدهم في مديرية البحيرة، واستقر فنجري مع زوجته دميانة وابنه فانوس وولدت مريم هنا، خطا وعكازه المعقوف يقوده خارج الربع الصغير، يرفع طرف العباءة فيغطي جبينه ويلف الشملة مداريًا بقية وجهه فلا يبقى سوى عينيه الزائغتين، يتحسّس الطريق مبتعدًا حتى وصل إلى شجرة التوت القريبة من مقام السيدة زينب، افترش التراب الندي وهو يتستّر بأسماله، يمدّ يده مريحًا إياها على حجره ووجهه مطوق بالخجل.

الغادون والرائحون إلى أعمالهم يمرون أمامه والقليل منهم يلقي إليه بالملاليم، تحسّست أنامله قطعة صغيرة، رفعها أمام عينه اليمنى التي يرى بها أكثر من أختها، ابتسم للسحتوت الصغير، منذ سنوات لم يهده أحدٌ مثل هذه السحاتيت التي لم تعد ذات قيمة، بقي مكانه وإن ضاق حوضه ينهض من فوره ويفكّ زنقته بحمّام المسجد ويعود إلى قعدته.

طوال الوقت حرص ألا يراه أحد أو يتعرّف عليه إنسان من معارفه، بأصابع مرتعشة ثبت فرعًا صغيرًا في الأرض وأخبره الظل القصير الممتد بقرب أذان الظهر، رفع رأسه ومن بعيد تماوج شبح المؤذن وهو يرفع صوته بالتكبير، لملم المليمات والقروش وأنصافها، انزلقوا في كيسه القماشي الصغير وأحكم ربطة خيطه الرفيع، غاب في المسجد وما إن أنهى صلاة الظهر حتى سحب الشملة عن وجهه وتنفّس بعمق، أنعشه الهواء البارد، خطواته الهادئة تقوده إلى مسجد الأشرف برسباي القديم، انعطف إلى زقاق الحمزاوي، تزكم أنفه رائحة التوابل والأعشاب الفوّاحة، من دكان عطارة اشترى قرطاسًا صغيرًا من الشعير المخفف لألم جنبه، ظلّ سائرًا بين الدكاكين فطافت روائح قلي الباذنجان والطعمية، ولأنه اعتاد مماطلة الجوع ففضّل شراء ما جاء من أجله على إسكات قرقرة معدته، توالت خطواته نحو دكان بقالة الخواجة لينوس، أمامه أفرغ ما بالكيس فثبت الخواجة قمعًا صغيرًا وسكب سائلًا ففاحت رائحة البيرة النفاذة، أغلق فم الزجاجة بسدادة صغيرة ولفها بورقة جرنال وأعطاها لزبونه الدائم فدسها بدوره داخل جلبابه، همّ بالاستدارة فحادثه الخواجة لينوس بصوته الرفيع وكلماته المتكسّرة: ـ الزجاجة يا خبيبي، ما عندي غيرها، هاتها لما تحضر.

هوّم فيض الله برأسه وتخبطت قدماه في الطريق إلى الربع المجاور لمسجد صرغتمش، مرّ ببيت ساكنة بك، فتيل الكتان بالفانوس يحتضر ثبت عينيه على خيط الدخان الرفيع وهو يتلاشى في الهواء، رضي عن همّة تقاوي التي دفعته لأن يشعل فانوس البيت للمارة، خفض نظراته للباب فانزلقت بين جنبات ذاكرته صور لكراسي مرصوصة بباحة البيت والعازفون قاعدون خلف سيدة الدار، وتهيأ له تواتر أنغام تئن بأغنيات ممطوطة منذ سنوات بعيدة فهزّ رأسه وواصل سيره.

منيفة أمام الباب تتعثر خطواتها جيئة وذهابًا والقلق يكاد يقتلها على جدها المختفي بالساعات من أول الصباح، خشيت أن يعود أبوها فيزجرها على تفريطها في غياب جدها عن البيت كل هذا الوقت، تلقته وزفرت أنفاس الأمان لحضوره، وضعت أمامه البيض المسلوق والجبن القريش وأرغفة الخبز، تناول عدة لقيمات ثم نهض إلى غرفته وأغلق الباب، تحرّر من عباءته الثقيلة، تلاقت رموشه عدة مرات وهو يتفحّص دوائر حوافها المتشعبة واقتاتت العُثة صوفها العتيق، ألقاها جانبًا وتهالك على الحصير، خفق قلبه وهو ينتزع غطاء الزجاجة ويعب على مهل، تتوالى أنفاسه ويزفر حرارة طعمها اللاذع، بلعتان ولم يتحمّل جوفه حرقة البيرة فأعاد السدادة الخشبية ورفع غطاء الصندوق ووضعها بين كتب وأوراق وملابس وقوارير قديمة، بأصابع مرتعشة تناول الكيس الكتاني، من فتحته بزغ طرف غليظ قبض عليه وفرد كرباجًا أسودَ مضفورًا من جلد فرس البحر طوله قرابة المتر وطرفه معقود بعدة أشرطة، مال إلى التصلب لعدم نقعه في الزيت.

في قوةٍ أمسكت أصابعه مقبض الكرباج المتين وبدأ يضرب في رفق ثم اشتدّ فشعر بلسعة الكرباج على كتفه وأعلى ظهره، توالى جلده لبدنه، لعله يتعافى من إثم قديم منحفر بذاكرته، ويمحو وقعة متأبية على النسيان، تلاقت أجفانه معتصرة رموشه فسالت الدموع متعرجة على أخاديد وجهه، طفق يمسحها وقد أفلت مقبض الكرباج من بين أصابعه، طرقات على الباب فتحسّس عنق الكرباج، لفه وأعاده إلى الكيس وألقاه في الصندوق، أزيز مفصلات الغطاء الصدئة يضايق سمعه، بادر بإغلاقه قبل ولوج منيفة، دخلت بيدها كوب من الشاي، أحاط بكفيه فبعث الدفء بأصابعه، كعادته يشرب ببطء وفي صوت مسموع، رفعت الورقة التي كانت تلف زجاجة البيرة، علا صوتها بقراءة عدة كلمات، لم يبالِ جدها بما تقول، ظلت تقرأ بصوت خافت إلى أن أنهى كوب الشاي، نهضت منيفة وخرجت من الغرفة لتحضير طعام الغداء وتنتظر أباها حتى يرجع.

***

قبل استيقاظ أبيه ومنيفة غيّر ريقه بشريحتين من العيش الشمسي والجبن، غادر الربع وظل يسير مارًا بمسجد صرغتمش، ودّع مقام السيدة زينب وسط جموع الزوار، والشحاذون يمدون أيديهم لموزعي الصدقات وأطباق البليلة والفول النابت والخبز المحمص، ظلت خطواته تدب حتى وصل إلى فيلا منزوية من دور واحد في شارع جانبي قرب مستشفى قصر العيني، سورها عال ويحيط بها أشجار الصفصاف، دفع باب حديقتها وأغلقه خلفه، تسارعت خطواته نحو السيدة الجالسة على كرسيها مستمتعة بشمس الصباح الرائقة، ألقى عليها تحيته فردت: ـ مرحبًا يا تقاوي، أخبارك وأخبار عم فيض الله وبنتك؟

ـ بخير والحمد لله، عن إذنك.

حليمة هانم ترقب تقاوي وهو يقلّم الأشجار ويشذّب الأغصان الممتدة إلى خارج سور الحديقة، دون انقطاع ينظف أحواض الورد من النباتات ويفتح عليها خرطوم الماء المتدفق في روية، ينهي عمله برش أرض الجنينة، رغم برودة الجو مسح عرقه وانتظر أن تأمره السيدة بشيء آخر، شكرته وأشارت إليه ليجلس على الكرسي المقابل: ـ تفضل يا تقاوي.

ـ العفو يا ستنا.

ـ قلت لك اقعد، بلا ستنا بلا سيدنا، آنا وآنت في سن واحدة تقريبًا.
يجلس تقاوي أمامها فتقدم له فنجان الشاي والكعك، يتناول في شهية بعد جوع شعر به أثناء عمله، التفتت إليه وشملته بنظرة رائقة..
ـ قلتها لك ألف مرة يا تقاوي، لولا جدك عبد الرحمن ما كان انكتبت لي حياة.
ـ الله يرحم الجميع يا ستنا، ولولا والدك الباشمهندس عزيز بك ما كان أبي التحق بالجيش.
ـ أعرّفك يا تقاوي بابن بنتي ألطاف، عبيد عصمت.
ـ الله يرحم والدته ويجعل مثواها الجنة.
ـ آمين، ولد يا عبيد.
بخطوات رشيقة نزل شاب بسيط في ملبسه درجات سلم البيت، ركن أصيصًا صغيرًا من الفخار وسطه شتلة زهرتها غير متفتحة، انحنى وقبّل يد جدته، فوجئ به تقاوي يمد يده ويسلم عليه، يجلس على الكرسي الثالث ويصب لنفسه الشاي، تبتسم السيدة حليمة وهي تشير إلى تقاوي: ـ عمك تقاوي يا عبيد، كلمتك عنه، جده المرحوم عبد الرحمن أنقذني من الغرق وغرق هو.
ـ كلمتني أمي عنه لكن نفسي أسمع حكايته.
ـ لا حكاية ولا رواية يا ست حليمة، ما فعلنا غير الواجب، أستأذنك.
ـ الكيس لك يا تقاوي.
ـ خيرك سابق.
ـ هدية لبنتك منيفة، ولو تسمح تزورني.
ـ حاضر يا أم ألطاف.
نهض تقاوي متهيئا للانصراف، فأزاح كوعه أصيص الفخار، في سرعة أنقذته كفا عبيد من تهشمه على البلاط، بدت من تقاوي نظرة اعتذار، فابتسم له عبيد مطيبًا خاطره: ـ حتى لو وقعت يا عم تقاوي، فداك.
ـ الزهور جميلة.
ـ أول الربيع تتفتح زهرة اللالا.
ـ عبيد يحب الزهور والرياحين.
ـ كلنا نحب الزرع يا ستنا، لكن اللالا لا أعرفها.
ـ اسمها في تركيا زهرة اللالا لكن في الحقيقة اسمها زهرة التوليب.
ـ اللالا، اللالا، عرفتها، هنا نسميها عشبة اللعلع وزيتها مفيد وأوراقها شافية.
استدار تقاوي مغادرًا حديقة بيت السيدة حليمة التي يفخر بمعرفتها هو وأبوه، لم تتجاهل عيناه ملا حظة بعض الدكاكين المقفولة أبوابها وأصحابها يقفون أمام مغاليقها، وعلى سحناتهم غضب وتناهى لمسامعه تحذيرات مما قد يفعله الإنجليز ورجال البوليس بسبب ما أشيع عن رفض سفر سعد زغلول لمؤتمر باريس، عاد إلى الربع، سأم رؤية أبواب البيوت المغلقة، دفع باب بيته ودخل، عرضت عليه منيفة الطعام فأجله لبعد دخوله على أبيه.

فيض الله مكوّم على سريره، فعاونته منيفة على الاعتدال في جلسته، حرّر تقاوي رباط اللفة من عقدتها، سحب قطعة قماش رائحتها الجديدة تزكم أنفه، أتبعها بأخرى ملونة فابتهجت منيفة لزهو ألوانها، وتخيلتها جلبابًا بعد أن تذهب بها إلى جارتهم الخياطة أم فانوس، لم يبال فيض الله بهدايا السيدة حليمة كما أخبره ابنه واكتفى بالسؤال عنها وعن صحتها، عضّ شفته والتفت إلى حفيدته.

ـ عندي صداع، ادهني يا منيفة رأسي بالزيت.

ـ أي زيت؟

ـ زيت زهرة اللعلع، مفيد للصداع.

رنّ الاسم في ذهن تقاوي، فمنذ قليل عرّفه عبيد حفيد حليمة بنت عزيز المصري بزهرة اللعلع أو اللالا كما يسميها الأتراك، فردت منيفة كفها بالزيت ودهنت جبين جدها في رفق، نهضت من فورها لتغيب قليلا ثم تقبل وبين يديها الغداء، كعادته توالت لقيمات تقاوي وشرب الشاي، استراح قليلا ليستعد للعمل في قهوة المعلم حسين، وانغرس في نفسه أن يربط لسانه فلا يتحاور مع أحد أو يتبادل مع أي إنسان من رواد القهوة كلامًا عن سفر سعد إلى الخارج، فمنذ أيام دخل رجل وشجّع القاعدين على التوقيعات، ومن لم يوقع يبصم أو يطبع ختمه، وما هي إلا دقائق وكبس الإنجليز على القهوة وقبض على كل من بها ونجا المعلم حسين منهم بمعجزة، صمم على العمل بالقهوة صامتًا وبعد الغروب يدور على بيوت الأزقة والحارات الضيقة ينير لهم المصابيح أعلى الأبواب.

***

(4)

رغم انكسار حدة الشتاء سيطر ألم الصدر والسعال على فيض الله؛ مما أجبر تقاوي على المكوث في البيت لرعاية أبيه، ويقتنص فرصة إغفائه فيسرع إلى القهوة ليوفر القروش القليلة لقوت يومهم، دون أن يوصي الفتاة المطيعة ظلمت منيفة تطبب جدها النائم على فراشه والكمادة الباردة على جبينه ترعش وجهه، وأوصاله المرتجفة وهو بدوره حين ينتفض جسده المحموم، يغافلها ويرفع زجاجة الخواجة لينوس ويغمض عينيه، تنفلت منه ضحكة شائخة تسخر من ذكرياته البائدة فيدندن بصوت خفيض: يا ست مصر صباح الخير...

ثم ينسى بقية الكلمات التي قرأها يومًا في إحدى أوراق جريدة كان الخواجة لينوس يلف بها زجاجة العرقي، سيسأل عنها منيفة فهي تحب الاحتفاظ بالأوراق القديمة ولديها بغرفتها كتب ومجلات ما لها عدد، طرقات الباب تتوالى، منيفة أعلى البيت، قبالة مريم تجلس على الزيار الخلفي الفاصل بين سطحي البيتين، تناهى لمسامعها قرع الباب، قطعت السطح في سرعة، أطلّت فإذا بسيدة بين رجلين يقفون أمام باب البيت، همّت بالنزول في سرعة؛ حتى لا تكلف جدها مهمة النهوض والخروج من حجرته ليفتح الباب، لكن وجه الشاب المرفوع لأعلى جذبها فحدّقت لبرهة، تلاقت نظراتهما الخاطفة قبل أن تتراجع مشيرة لمريم التي فهمت أن ضيفًا يزورهم.

نصلٌ من ندم ينغز صدرها لتريثها قليلا قبل نزولها، جدها فيض الله يقف أمام الباب المفتوح ويرحب بالقادمين، تقف وراءه ويدها تمتد فتتناول البرقع المعلق خلف الباب وتداري به وجهها، يفسح العجوز الطريق لحليمة هانم وحفيدها العشريني، أما العربجي فيسلم لفتين لفيض الله ويستدير عائدًا إلى عربته، في تواضع تجلس السيدة الوقور على الدكة العتيقة وعبيد جوارها، همس فيض الله في أذن منيفة فتوالت خطواتها خارجة من البيت وجدها يرحّب بضيفيه: ـ زيارتك تواضع منك يا ستنا.

ـ العفو يا عم فيض الله، تقاوي متغيب من أيام وقلت أسأل عنكم وفرصة نزورك.

ـ الله يكرمك يا ست حليمة، أنا أزورك ولو زاحف على ركبي، مرضي منعه حتى من شغله.

ـ أعرّفك بابن بنتي ألطاف.. عبيد..

ـ عبيد! اسمك عبيد.

أغمض فيض الله عينيه وفتحهما فلحظ الشاب دمعة محبوسة في عين الرجل العجوز الصامت منتظرًا حضور ابنه لينهض بواجب الضيافة لزواره الكرماء، منيفة تقطع الطريق المؤدية لفم الربع، جفلت قدماها لعربة الأمينبوس الرابضة بالشارع والعربجي يقف أمام البغلين، تتخطاه إلى قهوة المعلم حسين، تشير إلى أبيها، في سرعة تتوالى خطواته ووجهه مخطوف وناوشته المخاوف أن يكون أبوه...

ـ جدك بخير؟

ـ حضرت الست حليمة و...

ـ حليمة هانم بنفسها؟ آستآذنك يا معلم حسين.

تسارعت خطواته ومنيفة تلاحقه، خفق قلبه بشدة للعربة الكبيرة أول الحارة الضيقة، ما إن دخل البيت حتى نهض عبيد من قعدته، رحّب بهما تقاوي، حمل منضدة صغيرة ووضعها أمامهم، دون أن يطلب غابت منيفة وعادت بطبق من التمر والقُرص، دخلت لحجرة الخبيز وركنت التنكة الكبيرة على سيخي الحديد لإعداد الشاي، ترقب ألسنة النار المتراقصة وفجأة ومض الوجه الأبيض المشرّب بحمرة خفيفة فابتلعت ريقها وخفق قلبها، لم تنتبه لفوران الشاي فبادرت وصبّت خمسة أكواب، حملت الصينية وعادت إلى الردهة، تناولها تقاوي وقدم لضيفته الكريمة التي لا تبرح بيتها، فزيارتها لهم من الوقعات النادرة التي قد لا تتكرر، همّت الفتاة بالدخول فأشار أبوها إلى الفسحة جوار الست حليمة..

ـ اجلسي يا منيفة جوار ستك حليمة.

ـ عيب يا تقاوي، اقعدي يا بنتي جنب عمتك.

في قرارة نفسه أضمر فيض الله لومًا لابنه على كلمة ستك التي لفظ بها، وفي نفس الوقت استغرب بحر التواضع الذي غمرته به السيدة النبيلة بزيارتهم وتدعو حفيدته أن تكون عمتها، أما تقاوي فلم يملك نفسه فأحاطهم بكل معاني الحفاوة وودّ لو أخبرته بقدومها لنظّف البيت أكثر واستلف من جارتهم دميانة سجادتها الجميلة بدل مفرش الصوف العتيق، أشعل مسرجتين مثبتتين على الجدار فاتسعت رقعة الضوء، عبيد الساكت طوال الوقت في خجل يترك زمام مبادأة الحوار لجدته الجريئة.

ـ ألف سلامة لعم فيض الله يا تقاوي.

ـ تسلمي يا ستنا والله لو عرفت بزيارتك لفرشت الشارع كله بالرمل.

ـ تفرش الشارع بالرمل وبعدها نندفن فيه.

فوجئت منيفة بكلمات السيدة وزهدها لا يتناسب مع هندمة زيها ويشمك[7] رأسها الحريري الأسود الثمين، أما حفيدها الساكت فتجرأ ورفع رأسه يتفرّس ملامح منيفة المتوارية خلف البرقع الخفيف، احتقن وجهه خجلا حين اتسعت عينا الفتاة وخشي ملاحظة أبيها وجدها نظراته المسترقة لهيئتها المتناسقة، فأمال وجهه نحو فيض الله ودهش من اهتمام جدته بعجوز يتوكأ على أعوام تقرّبه من الثمانين، يعيش في فقر كسائر قاطني الحارات التي سمع عنها، كسر تقاوي حاجز الصمت: ـ وأخبار والدك؟

ـ بخير، استقرّ مع زوجته في بورسعيد.

ـ عصمت يعمل هناك في إدارة شركة القناة ببورسعيد، وعبيد يعيش معي لدراسته بمدرسة الحقوق.

من باب اتساع رقعة الحوار أوضحت حليمة منصب زوج ابنتها الراحلة، من صمت العجوز فيض الله وتقاوي ومنيفة أيقن عبيد أنه ببيت أناس بسطاء لا يتقنون سوى السعي لتوفير قوت يومهم الضروري، فتعجّل إنهاء الزيارة التي أصرّت عليها جدته ولا يدري سببًا لكنه لا يتجرأ أن ينهض قبل أن تعزم على المغادرة، في ملل لوى رأسه فاتسعت عيناه وحملق في الكتب المرصوصة بطاقة مجوّفة بالجدار، ابتسامة خفيفة طفت على وجه تقاوي.

ـ جرائد قديمة وكتب، تحب منيفة قراءتها.

ـ منيفة تعرف تقرأ؟!
ـ من وهي صغيرة تعلمت القراءة والكتابة في كتّاب الشيخ محفوظ قرب سبيل أحمد أفندي سليم.
ـ أظنه في شارع الخضيري.
ـ فعلا يا ست حليمة، السبيل في شارع أزبك المتفرع من الخضيري، لكنه مهمل فخصص الشيخ محفوظ في بيته حجرة لتعليم أولاد الحي.
ـ وبعدها قضت سنوات بمدرسة السنية وطلعت منها.
ـ وسبب انقطاعها عن مدرستها؟
ـ كبرت وعيب أطلع من البيت، ورعاية جدي وأبي أهم.

تفوّهت فتواترت كلماتها في هدوء دون تلعثم، هذه المرة حدّق عبيد في وجه الفتاة، برقع وجهها نزل قليلا فتأمل خديها المملوءين، أعجب بأنفها الممتد في استقامة، واستحى تأمل شفتيها الغامقتين، وجهها بسمرته الفرعونية كأنه رآه حين زار المتحف واقتنى تمثالا صغيرًا يشبهها من دكان أنتكخانة في خان الخليلي، تارة أخرى التفت إلى الطاقة القريبة من متناول يده الجسورة التي سحبت عدة جرائد، الأهرام، السيف، السفور، عددين من مجلة الهلال، أمسك كتابًا وبصوت عال قرأ العنوان: أرمانوسة المصرية لجورجي زيدان.

ـ قرأتها مرات، قصة جميلة تحكي عن ابنة حاكم مصر قبل عمرو بن العاص.

مطّ عبيد شفتيه وتلاقى حاجباه دهشة لتعريف منيفة لمحتوى القصة، وتأكيدها على أنها قرأتها أكثر من مرة، فالبنت ليست جاهلة كما ظن، وجميل أن سمح أبوها وجدها أن تلتحق بمدرسة وما تركتها إلا لقناعتها أن البيت ورعاية أبيها وجدها أحق من أي شيء آخر، ربتت حليمة على كتف الفتاة وابتسمت..

ـ لولا جدك فيض الله وجدك الكبير عبد الرحمن لغرقت، جدك فيض الله في شبابه كان عفيًا، سحبني أنا وجدك عبد الرحمن من الماء.
ـ من سنين طويلة يا ست حليمة، كان عندي وقتها عشرون سنة أو أقل.
ـ جدي يتكلم عنكم بكل خير.
ـ أنا أحكي لك يا منيفة، ووعدت عبيد أن أحكيها؛ أبي عزيز المصري، كان مهندسًا بقناطر محمد علي، وفي يوم كنت ألعب وركبت فلوكة راسية هناك، انفكّ حبلها وعامت في وقت فتح عيون القناطر، انقلبت وسط الموج وصرخت، أغمي عليّ ولما فتحت عيني عرفت أن عاملًا اسمه عبد الرحمن سحبني من وسط دوامة وسبح بي وعند الشط وقع ومات.

ترحّم تقاوي على جده الذي كثيرًا ما سمع من أبيه عن شهامته التي لا تُضارع، وفنائه في عمله، هزّ رأسه في أسى..

ـ سمعت من أبي أن قلبه كان ضعيفًا.
ـ الحقيقة أن عم فيض الله نزل الماء وساعده.
ـ أبي رحمه الله كان ضعيف القلب، فوجئت به يجري ويرتمي في الماء، لحقته وهو يسحبك، حملتك على كتفي وأمسكت بجلباب أبي حتى وصلنا لبر السلامة.

ـ ضحّى بحياته وآنقذني، الله يرحمه ويحسن إليه، ومن يومها يا عبيد، جدك عزيز بك تعهد الشاب الصغير فيض الله بالرعاية وتوسّط له وألحقه بالخدمة في ديوان الجهادية.
ـ وقضيت سنين أخدم في حفر القناة.
ـ اشتغلت في حفر القناة يا جد فيض الله؟
ـ لا يا أستاذ عبيد، أنا ورفاقنا من الجند عملنا حرّاسًا، مرة على العمال ومرة على مخازن الأقوات، على حسب ما كان يأمر به القائد، أيام مريرة عاشها أهل مصر من البحر للبحر.

من كلمات العجوز انمحت لدى عبيد فكرة أن هذه الأسرة البائسة تقاسي قلة البصيرة، فقراء لكنهم ليسوا ممن أعماهم جهل كان يتصوره فانتهز الفرصة ليسأل: ـ لكن يا جد فيض الله، غرضي أعرف حكاية دي لسبس.

افترت شفتا فيض الله عن ابتسامة كشفت اصفرار أسنانه، ودّ لو يستأذنهم للحظة فيترع من زجاجة البيرة، لام نفسه على رغبته، صمت هنيهة قابضًا على أيام بعيدة منقضية لم تذرها رياح النسيان، فنسج أشتات ذاكرته قبل أن يجيب على فضول الشاب الصغير: ـ حكاية قديمة من أيام الباشا الكبير محمد علي، ماتيو دي لسبس أرسله نابليون لمصر لأن الإنجليز اختاروا البرديسي ليحكمها ، فوقف الخواجة ماتيو جنب محمد علي المقرب من شيوخ الأزهر وتولى حكم البلد ومن يومها والباشا حافظ له جميل وقوفه بجانبه، وفي يوم حضر شاب اسمه فرديناند ابن الخواجة ماتيو فرحّب به محمد علي وطلب منه يعمل في القصر مربيًا لابنه سعيد ومن يومها تصاحب الأمير سعيد مع فرديناند، وسمعت أنه لما رجع لبلاده عاش في فقر سنوات طويلة، سعيد تولى حكم مصر فرجع وعرض عليه أنه يحفر قناة طويلة من البحر للبحر.

ظلّ عبيد ينصت في اهتمام وتمنّى حقيقة لو معه ورقة وقلم وكتب كل ما قاله العجوز في صدق بل ووقر في نفسه أن فيض الله يكتنز الكثير والكثير مما يريد معرفته وفهم من الكلمتين الأخيرتين أن فرديناند أقنع الخديو بفكرة حفر قناة من بحر السويس إلى الشمال، همّ أن يسأل لكن غمغمة فيض الله وانقباض حاجبيه أجبراه على ابتلاع السؤال وإذا أضيف وقوف جدته حليمة معلنة انتهاء الزيارة، كعادتها قبضت السيدة الجليلة على النقود واختارت تقاوي لا أباه فأعطته ما تريد، حضنت منيفة بقوة وطلبت مؤكدة: ـ لازم تزوريني يا منيفة.
ـ أمرك يا ستنا، وشكرًا على هداياك.
ـ أنت بنتي، بعد ألطاف رحمها الله أما روحية فتعيش مع زوجها في أسيوط.
ـ المهم يا جد فيض الله، عندي أسئلة ما في غيرك يجيبني عنها.
ـ حاضر يا أستاذ عبيد، في أقرب وقت إن شاء الله، وربنا يصلح حال البلد، الإنجليز رفضوا عروض سعد باشا وأصحابه وربنا يسترها.

سكت فيض الله، ووقفت منيفة خلف جدها يودّع وجهها البشوش ضيوفهم النبلاء، رافق تقاوي حليمة هانم لأول الربع ففتح العربجي الباب، عاون عبيد جدته في ارتقاء العربة التي استأجرتها السيدة لقضاء الزيارة، باغتهم معروف السقاء يحمل القربة على ظهره، يميلها في رفق فينساب الماء من فمها إلى الكوب النحاسي، يرفع ذراعه المعروقة إلى السيدة الجالسة فهمّ عبيد في زجره لكن جدته أمسكت بأذن الكوب ورشفت ، تأملت وجهه قليل اللحم

ولحيته البيضاء الخفيفة، ناولت السقاء خمسة قروش ففرح بالخمسين مليمًا دفعة واحدة بدل شربة الماء بالمليم والاثنين وأحيانًا الصبيان لا يدفعون.

ـ ربنا يحفظك يا ستنا وتفرحي بابنك.

ـ أعتقد أني أعرفك، أنت مشعلجي أعمدة شارعنا.

ـ ومشعلجي كل أعمدة قصر العيني ومن قبلها كنت حارسًا في حفر القناة، وحارس خيل ناظر الحربية الباشا محمود سامي البارودي بعد الملعون عثمان رفقي، وأونباشي تحت قيادة...

ـ لكنك.. سقاء.

ـ بعد رجوعي من وقعة المهدي في السودان سرحت مع بقية الجيش، سكنت الربع مع فيض الله، كبرت سني وأعيش على صدقات سقاية البيوت والناس.

ـ ربنا يعطيك الصحة.

صمتت السيدة حليمة، عبيد استهواه المطرح ودهش لمقابلة عجوز آخر تعرّف عليه في هذا النهار المميز، اثنان ممن كانوا يعملون بجيش مصر القديم، كل منهما يخزن ذكريات هائلة وخاصة فيض الله، بالقمشة لسع العربجي فخذ البغل، ابتعدت العربة تودعهم ذراع تقاوي المرفوعة، أسدلت حليمة هانم الشمك على وجهها فالتفت إليها عبيد..

ـ كنت فاكر أنهم...

ـ جهلة، لا لا يا عبيد، فيض الله كبير في السن وفقير لكنه صاحب مروءة وهمّة وعلم.

ـ علم؟

ـ تعلم في الأزهر وكان يعاون والده عبد الرحمن في عمله بالقناطر وبعد موته...

ـ بسببك؟

ـ بسببي أو غيره الأعمار بيد الله.

ـ آسف يا جدتي.

ـ المهم، جدك عزيز ألحقه بالخدمة في الجيش، وبعد هوجة عرابي سرّحه الإنجليز فعمل مشعلجي أعمدة النور، ولما كبر ونظره ضعف، تقاوي ابنه حل محله، ودوام الحال من المحال، الكهرباء دخلت والرجل يسترزق من صنعته القديمة، لكن فيض الله ذاكرته حاضرة ويحكي كل صغيرة وكبيرة.

الأخيرة هي ما أبهجت نفس الشاب الصغير وروحه التي تهفو لمعرفة أشياء كثيرة يريد إيضاحها، انحنت الهانم للأمام قليلا لتتفرج على عربات التروماي الزاحفة في بطء، شد العربجي لجام البغلين فتوقفت العربة لحين مرور حنش الحديد كما يسميه العربجية لينفّروا الناس من ركوبه.

ـ صناديق الحديد وهي ماشية على القضبان تشبه الحنش، من ساعة ما زحفت وسط الشوارع والبركة قلت.

ضحك عبيد لكلام عربجي الأمنيبوس المتأفف وتشبيهه لعربات التروماي المتشابكة، شدّ اللجام قليلا والتفت إلى الشاب فتأمل عبيد طربوشه وبذلته الصفراء والنحاسة على صدره باسمه ورقمه.

ـ تضحك يا آستاذ، من يومين وقع ولد قدام القضبان والناس تزعق في الكمساري، والزمارة توقوق، ولا حياة لمن تنادي، بالعافية واحد سحب الولد لكن العجلة الحديد هرست مشط رجله.
ـ ربنا ستر.
ـ ربنا يسترك يا ستنا، فيه أحسن من السوارس والحنطور، البهيم حسّاس وأرحم من عجلة الحديد، تضربه يمشي تشد اللجام يقف لكن الترومواي عامل كيف الحنش يبلع أي إنسان قدامه.
ـ والأمنيبوس الكبيرة، تملكها يا أسطى؟
ـ الحمد لله يا أفندي، فاضل عليّ قسطين للقومبانية ويكمل حقها.
ـ شركة قطاوي ولا سوارس؟
ـ سوارس، حتى الأمنيبوس عرفها الناس بالسوارس على اسم صاحب القومبانية، وأنا تحت أمر سعادتك والهانم في أي توصيلة وشغال على خط القلعة والسيدة زينب وأمرُّ على الحوض المرصود وبركة فرعون.
ـ وأجرتك؟
ـ من أول الخط لآخره خمسة مليمات وبين محطتين مليمان أو ثلاثة على حسب.
ـ لكن مشوارنا مخصوص وانتظرتنا.
ـ تقديرك على رأسي يا هانم.

أعطت السيدة حليمة لعبيد عشرة قروش ودون أن يرى ما بيده ناولها للسائق، برقت عيناه للأجرة غير المتوقعة قاد عربته وهو يشاهد الكثير من عسكر الإنجليز كجراد منتشر وعلى أكتافهم البنادق وكأنهم يستعدون لخوض المعارك.

***

اليشمك: غطاء للرأس والوجه.

(5)

«... يميل عصاته ليشعل فتيل المصباح، تتراقص الذبالة ولم تلبث أن تنطفئ بفعل هبوب ريح شديدة أطارت المشعل الحديدي وألقته وسط شواهد منتصبة، دار حوله في فزع ودهش للبذلة العسكرية التي يرتديها، التقط عمود الحديد وشهره كبندقية ليهجم على.. لا شيء، فلا شيء حوله سوى أسنمة قبور رملية كلما هبّت الرياح أطارت ذرات الرمال في وجهه، فعميت عيناه وحين فتحهما وجد أصابعه تقبض على كرباج، يرفعه ويهوي به على كفن مسجّى أمامه ويأمره: ـ انهض، ارفع فأسك واحمل قفتك.

تتمزّق الأقمشة البالية ويبزغ من شرنقتها وجه ضاحك تغيظ ملامحه فيض الله فيهوي بالكرباج على ظهره ورأسه، تعلو قهقهاته ويعود لنومته الأبدية، يستمر في جلده حتى يتعب ويغرقه العرق، يتناهى لمسامعه فحيح خافت ويتردد صدى كلمات في صدره: الضرب في الميت حرام، جلدتني وأنا ميت يا مجرم...

ـ يا مجرم، مجرم... مـ جـ ـر م...».

ـ ما لك يا جدي، اشرب.

رفعت منيفة القلة لتلامس فم جدها المرتعش ببقية من حروف الكلمة الأخيرة التي لا يزال يرددها، تعاونه على اعتدال قعدته، يترع الماء فيسيل بين شدقيه، يتمالك نفسه ويرجع بظهره فتسرع منيفة بوضع وسادة بينه وبين الجدار..

ـ حلم مفزع؟

ـ كابوس يا منيفة، الله لا يرجعه.

ـ استعذ بالله.

ـ أبوك رجع؟

ـ لا و...

قطع كلمتها أصوات زعاق ميّزت أنها من بيت جارهم فنجري، نهضت من فورها وتسارعت خطواتها، باب البيت مفتوح والخياطة بجسمها السمين في وسط المجاز تقف حائلا بين ابنها فانوس وأخته مريم الباكية، أحاطتها منيفة بذراعيها ولا تدري سببًا لغضب فانوس على أخته، رفع سبابته في وجهها ونبه: ـ إياك والخروج أو حتى طلوع السطح، الدنيا مقلوبة ويمكن تصيبك رصاصة.

ـ كنت معها يا فانوس ونزلت مريم بعدما نزلت للضيوف.

ـ وزيارتها لتريزا في عطفة السيد؟

ـ كنت أطمئن عليها، تبعها عسكري إنجليزي، عاكسها فضربته ودخلت بيتها وقفلت الباب.

ـ شيء لا يهمنا.

ـ صاحبتنا يا فانوس ولولا تعب جدي لزرتها مع مريم.

رفعت منيفة صوتها في وجه الشاب الغاضب، دخل جوف البيت وآمه خلفه، انهارت مريم على كنبة المجاز جوارها منيفة تهدئ من اضطرابها، ولأنها تعرف فانوس الشاب المختصر الذي لا يعرف شيئًا في دنيته غير رعاية أمه وأخته ومزاولة تجارة القماش بعد موت أبيه فطيبت خاطر مريم ومسحت دموعها، أتت أم فانوس بصينية الشاي والكعك المتبقي من الاحتفال بعيد الميلاد منذ أيام، أكلت الفتاتان وشربت منيفة بقية كوب الشاي، همّت بالعودة لجدها فسألتها مريم: ـ شاب حلو وأمه جميلة.

ـ جدته يا فالحة، أصحاب جدي فيض الله من زمان، من أيام عمله في الجيش.

ـ كنت أظن أنه يخطبك.

ـ يخطبني! واحد متعلم في مدرسة الحقوق وأبوه يعمل في القناة وجدته هانم يخطب فقيرة، أبوها وجدها مشعلجية.

ـ الجد فيض الله كان في جيش عرابي.

ـ وبعدها سرّحوه وبقى مشعلجيًا، واحدًا من عفاريت الليل، وأبي بالكاد يوفر لنا قوت يومنا.

ـ نشكر الله على كل حال.

ـ تصدقي يا مريم، الست الكبيرة دعتنا لزيارتها.

ـ في بيتها؟

ـ الهوانم والبكوات الكبار يعيشون في بيوت كبيوتنا، تلاقيها سراي كبيرة، أبي قال أنها في شارع قصر العيني.

ـ لما تزوريهم احكي لي عن سرايتهم.

ـ إن شاء الله، وربنا يسترها على البلد ويبعد عنا رصاص الإنجليز، والله شجاعة تريزا أنها ضربت الإنجليزي بالقلم على صدغه.

ـ وعرفت أن ابن الملاعين أصاب عم تقاوي برصاص مسدسه، كيف حاله؟

ـ بخير، أستأذنك، جدي لوحده.

أهدت صديقتها ابتسامة منشرحة وعادت للبيت، خمّنت أن يكون جدها نائمًا فخففت خطواتها حتى لا تقلقه، تسحّبت واختلست النظر لباب حجرته الموارب، اتسعت عيناها رهبة، يد جدها ترفع كرباجًا ويهوي به على ظهره في صوت مكتوم، كفٌ على كتفها فندّت عنها التفاتة سريعة فاجأها وجه أبيها يفرد إصبعه على فمه إشارة سكوتها، يدعوها إلى التراجع، فاستدارت خلفه، على الدكة جلست قبالته، تنحنح في جلسته وتقارب حاجباه..

ـ جدك يكره أي واحد يراه وبيده السوط.

ـ والسبب يا أبي؟

ـ مرة شعر بدخولي عليه وهو يضرب نفسه وسألته فلم يجب وقال لي: لا تزحزح الحجر يا تقاوي.

ـ سرّ قديم؟

ـ الله أعلم، عجزت عن معرفته وفشلت في منعه عن شرب هباب الخواجة لينوس.

ـ أكسر القارورة؟

ـ لا، ربنا يهديه.
بأصابعه نزع تقاوي رباط رأسه فبدت قشرة الجرح بنية غامقة، بإصبعها لحست منيفة عجينة الثوم المهروس ومسحت على جرح أبيها، تريد إعادة الرباط لكنه رفض، تمدد على مفرش السرير المصنوع من الجريد، عادت منيفة تفكر فيما أوضحه أبوها من تصرف جدها، أظلتها سحب الفضول فحادثت نفسها أن كابوس جدها المتكرر له علاقة بما يفعله كل ليلة حين يغيبه السُكر، قربت المسرجة وتناولت أحد أعداد مجلة الهلال من العام الماضي وشرعت تقرأ: مذكرات عن الأستانة بقلم الدكتور لويس صابونجي..
ابتلعت ريقها واستغرقتها قراءة الموضوع الشيق عن بعض العادات والتقاليد التي أفردها الكاتب في مقالته التي أنهاها بعنوان ـ وصف العرش العثماني ـ فاستمرّت في القراءة ولم تشعر بجدها القادم نحوها وجلس أمامها في هدوء، رفعت عينيها وارتسمت على وجهها ابتسامة رائقة أراحت نفس فيض الله، فمسح شعرها وربت على كتفها..
ـ صورة طبق الأصل من أمك رحمها الله.
ـ أمي كانت قمحية، وسماري منكم، أبي قال أنها ماتت في الشوطة[8].
ـ تاريخها محدد، بعد الألف وتسعمائة بسنتين وكان عندك سنة وشهور.
ـ وسبب دفنها في الصعيد؟
ـ قريب لأخوالك من موشا نزل عندنا وأخبرنا أن جدتك مريضة، وكنت يا منيفة على كتف نجية لما نوت تزور أمها في مرضها الشديد، سافرت هي وأبوكِ وَهناك أصابتها الكوليرا.
ـ وشوطة الكوليرا ظهرت في موشا وحدها؟
ـ لما أبوك رجع حكى أنه فيه رجل من موشا عاد بعد الحج ومعه صفائح ماء زمزم، ومن باب البركَة وزّعها على أهله وجيرانه ويظهر أن الماء شرب منه واحد مصاب من رفاق الرحلة أو تلوّث منه في الطريق، وسمعنا أن الوباء كان منتشرًا بين الحجاج في الحجاز كلها، وزادت الطينة بلّة لما شرب أهل موشا منها وانتشرت العدوى في البلد ومنهم أمك وماتت هناك، وفي حوش الدار دفنها أبوك وخالك عطية، وفي قلب الليل فرّ تقاوي، ركب وابور البحر وأنت معه من غير ما يحسّ به مخلوق لأن الحكومة حجرت على الناس في موشا والبلاد حَولها.
ـ كل إنسان له تربة يندفن فيها.
ـ أمك ماتت وجدتك المريضة نجت ومدّ الله في عمرها سنتين، ولما ماتت اندفنت جنب بنتها، وتقاوي ربنا يعينه عاش يرعاك ويرعاني، ونتمنى نزوجك ونسترك قبل...
ـ ربنا يعطيكما الصحة وأزوجه وأزوجَك يا جدي.
إلى الوراء مال فيض الله بظهره وضحك ملء فمه، احتضن منيفة وقبّل جبينها العريض، والفتاة بدورها ضمت جدها بقوة فقد كبرت ولا تعرف غيره وأباها المطرود على لقمة العيش، فتربت على حجر جدها ومن وهي صغيرة كان يحملها على كتفه في مشاويره ولم تنفصل عنه إلا حين كبرت، ظل يضحك محاولا الفكاك من ذراعها القوية، قطع ضحكته سعال حاد فناولته القلة، شرب القليل من الماء، ولا يزال أثر من مرح على وجهه الأسمر،

انتهزت منيفة الفرصة وتجرّآت على الإفصاح عما تضمره: ـ زجاجة الخواجة يا جدي، أتمنى تكسرها.
ألقت بكلماتها وتهيأت لغضبة من جدها، ويمكن أن يأمرها في شدة ألا تفاتحه في أمر مشروبه اليومي، التفت إليها وهزّ رأسه مرّات، فرد ساقيه واستقبل الجدار ظهره النحيل..
ـ أبوك فاكر أني أشرب لأنسى تسريحي من الجيش وعجزي عن إنارة الأعمدة لكن في الحقيقة أشرب من أجل ألا أنسى.
ـ الخمر والبوظة تغيب العقل يا جدي، لو بيدي أكسر زير المخبول خميرة وأقطع رجله من الربع.
ـ أنا خلف خلاف، عقلي حاضر طول ما أنا أشرب ولما أمتنع أنسى.
ـ لو فيه حاجة معكرة نفسك ممكن تفضفض لي عنها.
ـ ممكن، لكن على وعد ألا يعرف أحد ما أعترف به.
ـ تعترف؟
ـ نعم يا بنيتي.
ـ أعدك يا جدي.
ـ ولا حتى لتقاوي.
ـ ولا لأبي.
ساعده عكازه على النهوض من قعدته، وتأبط ذراع منيفة، مشت على مشيته حتى ولج غرفته الضيقة، رفع غطاء صندوقه العتيق، فقرّبت منيفة المسرجة، اتسعت عينا ها لرؤية ملابس الجندي القديمة وعليها شارة صغيرة، عدة أوراق لجرائد، طربوش أحمر مترب ومبقع بطرطشة داكنة، حزام مما يلفه الجندي حول وسطه، و... رفع الكرباج أمامها ورأت امتعاض قسمات وجهه الجهمة، لكنها شعرت براحة لقرب معرفة سر الكرباج الذي يجلد جدها به ظهره.

***

الشوطة: الوباء.

(6)

أصابع منيفة تلتف حول مقبض الكرباج، تتأرجح نظراتها بينه وبين وجه جدها الساكن، منتظرة مبادأته، فلم يتريث كثيرًا ويجعلها تسأم الانتظار، أشار إلى الكرباج وبرقت عيناه وهو يحدّجه بنظرة كارهة..

ـ عقدة حياتي يا منيفة.

ـ احرقه أو قطعه أو...

ـ لا، رغم أن وجوده ينغص عليّ أيامي لكني حرصت على الاحتفاظ به لتبقى ذكراه البغيضة.

ـ لا أفهم يا جدي، ولا أفهم سبب ضرب نفسك، تريد أن تتذكر أحدًا جلدك وتريد الانتقام منه؟

ـ أكفّر عن جريمة، ومن أريد أن أعاقبه هو أنا.

ـ أنت يا جدي؟

ـ من سنوات بعيدة، بعيدة، بيني وبينها ما يزيد على الخمسين سنة كنت بالزقازيق مكان تجمع الفلاحين.

ـ سمعت أن رجال الخديو ساقوا الفلاحين لحفر القناة.

ـ في الأول لفرزهم، وبعدها نختار الشباب والقادرين على العمل ونسرّح العجزة وكبار السن، رافقتهم إلى موضع الحفر وسلمنا لكل واحد منهم فأسًا وقفة ومجرفة، نشطوا أول الأمر ومع مرور الأيام والأسابيع يُصاب الواحد منهم بالهزال ولا يقدر على حمل القفة، غضب رجال الخديو المشرفون على العمال والفلاحين ووزعوا علينا بنادق وكرابيج نضرب بها العامل إن كسل أو حتى فكر في الراحة.

ـ وأكلهم ونومهم؟

ـ نومهم في خيام عفنة ومن جلبوا بعدهم كان نومهم في الطلّ، وطعامهم شحيح، رغيف وجبن أو فول مدمس وأجر الواحد منهم قرش أو قرشان وأيام طويلة لا يصرف لهم أجر، لكن الأوامر صارمة، يجلد كل من يترك قفته في وقت الحفر، المساكين، يبست جلودهم واحمرّت عيونهم من الغماص وقلة الماء، ويتلوّى الواحد منهم من المغص ويطرش ما في جوفه أو يجري ويسهل بعيدًا ومنهم من يعجز ويفعلها قبل وصوله للخلاء ويعود وذراعه ملفوفة حول بطنه.

ـ كوليرا؟

ـ كوليرا على ضعف على اصفرار وجوههم على عطش ومنهم من مات بالسل وأمراض لا اسم لها، غير من مات بسبب انهيار الرمال عليه، كنا نحمل الميت ونلفه في جلبابه وندفنه تحت الحجبل، في سنة خمسة وستين مات عشرات الحفارين بالكوليرا، كنت ألف المنديل على وجهي وأنا أدفن الميتين وصدرت الأوامر بـ...

ـ تركهم؟

ـ لا، حرق جثثهم في خندق طويل قبل دفنهم، واشتدت الأوامر بضرورة الإسراع في الحفر وفي يوم...
صمت فيض الله واعتصرت أصابعه مقبض الكرباج، رفعه إلى فمه وعض سيوره في غيظ، لم تعقب منيفة وتركت له فرصة للتنفيس عن غضبه..
ـ في يوم وقع واحد منهم وتمرغ وجهه في الرمال، أمرته أن ينهض، رفع رأسه وخفضه، جلدته بالكرباج، رفع ذراعه للحظة وأنا لا أكف عن جلده واليوزباشي ورائي يزعق في بقيتهم ممن توقفوا عن الحفر للفرجة، حدقت في قميص الرجل المقطع وجلده مكتو بالسياط، بقدمي دحرجته فانقلب على ظهره والدماء تبك من حلقه، رفعت ذراعه وتركتها فارتمت، آه يا منيفة، جلدت الرجل وما رحمته حتى بعد موته.
لانت نبرة صوته وهو ينطق كلماته الأخيرة بصوت مشنوق، أطبق فمه فخفضت الفتاة رأسها ودمعة نفرت من عينها فاستشعرت سخونتها على خدها المرتعش، بادرت بمسحها قبل أن يراها جدها، رفعت رأسها في شجاعة..
ـ كان ممكن تمتنع عن ضرب العمال.
ـ واحد منا فعلها وامتنع، كان مصيره تجريده من عمله وجلده وبالإكراه انضم إلى عمال الحفر.
ـ وبعد؟
ـ حملت الشاب وكفنته وصليت عليه قبل دفنه، كلمت الأونباشي مصيلحي فنقلني لحراسة كامب التموين، بقيت هناك حتى استدعانا اليوزباشي لإلقاء أوامره بالانتقال إلى القاهرة لحراسة مهندسين أجانب ومساعدتهم في قصر يبنيه أفندينا في الجزيرة، وبعدها رجعنا لنشارك في تنظيم حفل الخديو إسماعيل لافتتاح القناة والسماح بالسفن تسبح فيها من البحر للبحر.
ـ يجوز يا جدي الشاب كان في الأصل مريضًا و...
ـ كلنا سبب مرض وموت الفلاحين والصعايدة وأهل الشلال.
ـ سمعت منك أنهم أهلنا.
ـ آه يا منيفة، تمنيت أرجع أدندان وأسأل عن أعمامي هناك وأعيش بينهم.
ـ وما منعك يا جدي؟
ـ ولدت هنا ولا أعرفهم، جدك الكبير عبد الرحمن وفد المحروسة مع جماعة للشغل وعمل في القناطر يزرع حدائق تابعة للباشا محمد علي، تزوج جدتك زينب واستقر به الحال، ساعات طويلة كان يحكي لي عن حياته في أدندان وموت إخوته، مرة واحد منهم مرض ولم يصبح عليه صبح وواحد أكله تمساح كبير من تماسيح النيل وأوسطهم غرق و... الله أعلم من بقي حيًا، أما هو فصحب ريس أنفار يجمع الشباب للعمل في فابريقات ومزارع الباشا محمد علي، سافر معه واشتغل في القناطر.
ـ وغرق بعد ما أنقذ حليمة هانم.
ـ الله يرحمه، رغم ضعف قلبه كان صاحب مروءة، بعد موته خدمت في نظارة الجهادية وحرست ضيوف حفل القناة، كنت من ضمن حرس أمير من الجزائر اسمه عبد القادر، آه

لو كنت صحبته، لتعلمت منه الكثير.
ـ ورجع الجزائر؟
ـ لا، سمعت أنه مات واندفن في دمشق.
ـ الجزائر.. دمشق؟
ـ قصة طويلة يا منيفة أبقى أحكيها لك.
ـ وبعد حفل الخديو إسماعيل؟
ـ أعادوا توزيعنا والتحقت بخدمة فرقة بكباشي محمد عبيد...

عبيد.. رنّ الاسم بين جنبات قلب منيفة فألجم لسانها وأفسحت لصدرها يتسع ويتسع لخفقان قلبها، أسبلت عينيها وتوهج وجه الشاب الوسيم ببذلته الرمادية الأنيقة وشعره الفاحم، عيناه اللوزيتان كل منهما بحر سبحت فيه حين تلاقت نظراتهما، انغرست بذور تمني رؤيته فانبثق عود أخضر من الاشتياق، وأزهر وعد جدها وأبيها لزيارتهم عن وردة اللقاء القريب، أن يقرأ جدها ما نقشته بصدرها من أفكار شريدة هو ما خشيت منه فنهضت مغادرة الغرفة تتوسّل قرب تحقيق الوعد لزيارة بيت السيدة حليمة.

***

دفقة أخيرة من الزجاجة انزلقت في زور فيض الله فتفتحت معها ذكريات من زمن بعيد، رفع الزجاجة أمام عينيه، قلبها ولما تأكد أنها فرغت ألقاها في جوف الصندوق، أصابعه تناولت صفحة قديمة من جريدة الأهرام أعادت نشر صور المنصات الخشبية الكبيرة وأفندينا السمين في وسطها، أغمض عينيه وانتظمت أنفاسه، سبح ببحر الأيام إلى الوراء لخمسين سنة، تلك الأيام البعيدة العصية على النسيان، وقتها لم يطب الثلاثين تاركًا ابنه الصغير تقاوي مع أمه المريضة بصدرها، رغم أن الخديو إسماعيل أمر بإحضار الأسر بأولادهم وحريمهم لمشاهدة حفل افتتاح القناة الكبيرة من السويس لآخر البحر، لكنه خاف عليهم من الازدحام ومخاطر الانتقال من القاهرة وأم تقاوي عافت الطعام ولا يزال صدرها ينخلع من الكحة، فقرّر دون تراجع إبقاءهم بالبيت.

مسمار صغير مدقوق في ضلع الصندوق تتدلّى منه سبحة ذات أحجار عتيقة، ارتعشت أصابعه وهو يتناولها، قرّبها من أنفه فاشتمّ من حباتها رائحة ذكرى وقوفه حارسًا جوار إحدى منصات ضيوف الخديو الجانبية وذلك الشيخ الستيني الجليل يجلس في هدوء وتتواتر حبات السبحة بين إصبعيه، ابتسم للونها الذي يعجز عن تخمين حقيقته، قبّلها وفردها أمامه بلطف..

ـ الله يرحم صاحبك عبد القادر بن محيي الدين، لا يمكن أنساه وأنسى فضله عليّ، قبل توزيعي أنا ورفاق حرس الحفل، وقبل تعرفي عليه رأيت بعيني وأنا بالطابور البعيد عن ساحة الحفل عمالًا يحملون جثة على محفة ويمشون بها إلى خلف التل، أنهى القومندان شوكت الشركسي تعليماته وأمر لنا براحة لمدة ساعة، بعدها يقف كل واحد في مكانه المخصص له، التفتُ حولي، جريت ولحقت بالجنازة، انحنت ظهور بعضهم لحفر القبر، توتر أحدهم حين رآني مقبلا عليهم، وأشاح آخر بذراعه في وجهي بينما أدار بقيتهم ظهورهم لي كأنهم كارهون منظري.

هبّت الريح فانكشف وجه الميت، قلبي انخلع لسحنته الهادئة وبشرته الداكنة هزّت الحنين بصدري، شعرتُ أنه واحد من أبناء أعمامي ساقوه هو ورفاقه من أدندان المتوارية خلف معابد الفراعين لحفر الترعة الكبيرة ومات كبقيتهم بعد أن كان يحيا أيامه يزرع أرضه ويربي الماشية ويقتات من خيرها.

لأول مرّة أشترك معهم في الحفر؛ ليس تراب القناة لكن تراب قبر، فوجئ المشيعون بي أعاونهم في حمل الميت وإراحته على جنبه اليمين، أهلنا التراب ومددت يدي معزيًا، فسلموا عليّ ولا أعرف كيف أغرقت الدموع وجهي، ربما مات الولد من جلد واحد منا كيف ما فعلت من سنوات، ودعتهم وألقيت نظرة أخيرة على كومة الأحجار فوق القبر، عدتُ لساحة الاحتفال، مكاني حراسة خيمة الشاميين من الضيوف، الوجه الهادئ يحملق فيّ ولا تزال دموعي مبللة خدي، مدّ منديله، تناولته خلسة خوفًا أن يراني القومندان وأول ما يفعل يأمر بتراجعي ومعاقبتي، مسحت وجهي، أعدته للشيخ لكن كفه المفرودة أفهمتني أن أحتفظ بالمنديل.

لأنها اعتادت كلام جدها مع نفسه فركنت صينية الشاي وقعدت أمامه على الحصير المضفور من الحلفاء، شرب الماء، قدمت له إصبع فايش أم فانوس، أقحمه في الشاي وقضم، ابتلع في بطء واستطاب ليونة الفايش، أهدته منيفة ابتسامة صافية، تمنّت لو تعود صغيرة فتستلقي على حجره ويمطر خدها بقبلاته الحانية، يجهز معها الطعام لحين عودة أبيها تقاوي، جدها الطيب لا تنسى فضل تربيته لها ولا تسمح لقلبها يومًا أن يتحجّر ولو للحظة فيقسو عليه أو تتبرّم لكبر سنه، تدخل عليه وتسمع لحواره مع نفسه، أشار إلى صورة يخت المحروسة بورقة الجرنال.

- عارفة يا منيفة، يوم قناة السويس شفت سفينة الخديو وسفن كبيرة أول القناة، مصرية وإنجليزية وفرنسية ونمساوية عددهم فوق الخمسين سفينة، والضيوف من ملوك وسلاطين أوربا الكبار في الوسط.
- أوربا ما فيها سلاطين يا جدي، عندنا هنا ولي النعم السلطان فؤاد والسلطان محمد السادس في تركيا.
- دوام الحال من المحال، كلهم آخرتهم التراب، المهم في الإيوان وتحت المظلات جلس كل ضيف على ما أمر الخديو، الإمبراطورة الحلوة أوجيني توسطت الصف الأول وإلى يمينها إمبراطور النمسا والخديو إسماعيل وأسماء غريبة، مثل هنري من الإنجليز وجوزيف من بلاد النمسا وكلهم ملوك من أوربا وعلى اليمين جلس الأمير محمد توفيق باشا ولي عهد مصر الله يلعنه.
- وأكلهم يا جدي، أكلوا عيش وجبن قريش وشربوا اللبن الرايب وأكيد لهطت الإمبراطورة المش والمشلتت.

مال فيض الله بظهره وضحك على كلام منيفة، بقبضته المضمومة وكز كتفها، فعلت ضحكتها المرحة، وأمالت وجهها وحدّقت في المنصة الكبيرة بكراسيها الفخمة وانتظرت عودة جدها لهدوئه ليواصل لكنها بادرته بمعلومة ظنت أنها تضيف لجدها ما لا يعرفه: - مريم وتريزا حكتا لي أن البابا حضر الحفل.

ـ البابا ديمتريوس الثاني مع بابا من أوربا، وغيرهما من كبار المسيحيين حضروا الحفل، وألقى كبيرهم كلمة أمام الضيوف، وفي اليمين كانت منصة المفتي الشيخ محمد العباسي المهدي والشيخ مصطفى العروسي والشيخ إبراهيم السقا، وبدأ الحفل بتلاوة القرآن والدعوة لهذا العمل العظيم وأن يهيئ له النجاح في كل زمان.
ـ المهم نرجع للأكل.
ـ الخديو لما كان في أوربا طلب إحضار خمسمائة طباخ غير الطباخين المصريين وألف خادم من بلاد مرسيليا وجنوة غير خدم الخديو من المصريين والأتراك.
ـ وألف طبلية.
ـ طبلية، طبلية يا بنت تقاوي ونجية! عشرات وعشرات المناضد والموائد لآلاف الضيوف، أكلوا وشربوا وكنا نحرس قعدتهم ونتلمظ من شدة الجوع.
ـ أكيد انتظر الأهالي الأكل الباقي.
ـ باقي الأكل وزعوه على عسكر الشركس وما نابنا غير الفتات، كانت ضحكاتهم ترعد المطرح، حقيقة التفت إلى بعيد ودمعت، بعد التل يرقد آلاف الرجال في قبورهم وعيالهم حرمت عليهم لقمة من حفل الأجانب.
ـ الله يرحمهم يا جدي.
ـ كنت مكلفًا بحراسة وخدمة الأمير عبد القادر، ألزم مكاني خلف كرسيه، لا يأكل في نهم كبقيتهم، اكتفى بكسرات من الخبز وحبة خيار، شرب الماء ونهض من مكانه، التفت لي وابتسم، رفع أمامي طبق اللحوم فأشحت بوجهي رافضًا لا عن عفة لكن لنظرة القومندان شوكت الشركسي الكارهة لنا والمستخسرة في أي مصري النعمة، اعتذرت للأمير واقترب منا القومندان وابتسامته المنافقة على وجهه..
ـ أرجو أن يكون الأمير مبسوطًا.
ـ الحمد لله.
ـ مع الأمير يا أونباشي ليغسل يديه.
ابتسمت منيفة لطريقة جدها وهو يتقمّص دور القائد الشركسي ويقلد صوته ويمسح شاربه ثم يتغير فجأة ويظهر بسحنة وقورة فيتكلم كالأمير: ـ مشى القومندان ونهض الأمير، اشتبكت سبحته بسن المنضدة فانقطع خيطها وانفرطت على البساط المزركش، في سرعة انحنيت وجمعت أحجارها الصغيرة، ربت الأمير على كتفي وتبعته إلى موضع غسل اليدين، طلب مني أرافقه إلى مقر مبيت ضيوف الحفل.
ـ وحرسته إلى هناك؟
ـ مشيت وراءه لكنه أصر أن أمشي جواره، استأذن في طلوع حجرته وطلب بقائي في صالة الفندق الواسعة، تخيلي يا منيفة، أمير بلد اسمه الجزائر يستأذن مني.
ـ إنسان متواضع.
ـ جدًا، ومن تواضع لله رفعه ومن تكبر انحطت منزلته، طلبت من عامل بالفندق إبرة وخيطا، أحضرهما وفي سرعة جمعت أحجار السبحة في الخيط وربطته، نزل فوقفت والسلاح جواري، أشار أن أجلس، فردت السبحة أمامه فمنحها لي هدية، الأمير بسيط

على الكرسي غير ضيوف آفندينا وآمراء آوربا وسفراء الدول، كل واحد منهم مفشوخ في جلسته ويطلب بأعلى صوته وكأنه بلد أهله، تجرأت وسألته: ـ لم تأكل يا سيدي؟
فأجاب:
ـ لا أملأ بطني من قوت شعب مات أبناؤه في حفر ما يُحتفل به اليوم.
ـ وتعرف هذا؟
ـ بعض التجار زاروني في سكني بدمشق بعد عودتهم من مصر وحكوا لي أخبار حفر القناة.
ـ لكنك استجبت لدعوة الاحتفال يا سمو الأمير.
ـ أحببت زيارة مصر لأراها بعد محمد علي ولأفرّج عن نفسي وأغير جو منفاي، يا حضرة...
ـ خادمك فيض الله يا سمو الأمير.
ـ اسمك فيض الله، جعلك الله فيضًا من شجاعة، متزوج؟
ـ وعندي ولد اسمه تقاوي.
ـ تقاوي، يكبر ويخلف أجمل البذور.
ـ أول مرة تزورنا يا أمير؟
ـ زرت مصر في طريقي للحج أيام محمد علي وانبهرت بالمصانع والمدارس ولكن اليوم حزين للبذخ وفخفخة الخديو.
ـ جناب أفندينا إسماعيل قوي وكل ضيوفه مدحوا كرمه، المهم يا أمير، أنت أمير على دمشق ولا الجزائر؟
ـ يا ولدي، دمشق مكان منفاي وإقامتي بعيدًا عن بلدي الجزائر، الجزائر احتلتها فرنسا وتحكم أهلها بالحديد والنار.
ـ لكنا هزمنا نابليون وجيشه الفرنسي وطلعناهم من مصر من خمسة وستين سنة وتزيد.
ـ أعرف، لكنهم لا يسأمون، يعيدون خططهم وترتيب سياستهم، وفي الوقت المناسب تجد جيوشهم في قلب بلدك، وربنا يستر على مصر.
ـ جيشنا قوي يا أمير ونرد أي عدوان ونقاتل أي غاز.
ـ هذا ما أريده منك يا سيد فيض الله، احذر أن تستسلم أو تلقي سلاحك أمام أي معتدٍ، إن ضعف الجيش ضعفت الدولة، ومصر بعد القناة يسيل لها لعاب كل الأجانب.
منيفة طوال الدقائق المنقضية لم تهمس أو تقطع حوار جدها الذي حكاه حين سهر مع أمير جزائري أهداه هذه السبحة التي يعتز بها، واستغربت دقته في تذكر ردود الأمير عليه، زفر نفسًا حارًا وأعاد السبحة إلى مسمار ضلع الصندوق، حتى لا ينقطع كلامه عن الحفل سألته: ـ وصحبت الأمير أيام وجوده في مصر؟
ـ لا، جمعنا القومندان وأعاد توزيعنا لنحرس الضيوف في متنزهاتهم، مرة إلى الأهرامات ومرة إلى حديقة الجبلاية لحد ما غاروا لبلادهم.
ـ والأمير؟
ـ رجعت لسكنه لكن للأسف كان رجع إلى الشام.

دخول تقاوي أنساه ما كان يريد أن يسترسل في روايته لمنيفة عن الأمير وحكاية سهرته معه في تلك الليلة الغريبة والفتاة بدورها وقفت تحمل عن أبيها لفتين ، في رشاقة تقافزت خطواتها نحو الماعون الرابض أعلى الكانون، بيدها اختبرت سخونة الماء فوجدته فاترًا، أقحمت أعواد البوص ونفخت في النار الخاسعة، بسيخ حديدي هرشت الجمار المتناثرة فتوهجت ومن حين لآخر تختبر حرارتها، طوقت الحلة بالقماش وحملتها له إلى الحمام وانشغلت في تجهيز العشاء.

***

(7)

تقاوي المنهك تمدّد قليلًا ليستريح من كد عمله في قهوة المعلم حسين قبل أن يدور ليشعل أعمدة الحارة والحارات المجاورة وفوانيس ومصابيح أعلى أبواب البيوت، ينقم على عمله أول الليل وشعوره أنه تحصيل حاصل بعد انتشار أعمدة الكهرباء، غير نظرة البعض له أنه يرمي نفسه عليهم ليشحذ اللقمة، فامتنع تمامًا عن ارتياد بيوت معينة يتأفف أصحابها من مجرد مروره.

على نيران الكانون الهادئة تفور القهوة فتصبها منيفة لأبيها، يرشف ويشعر بالتذاذ انتباهه ويجدها مختلفة عن أي قهوة شربها عند المعلم حسين، تنصرف لغسيل المواعين، وجدها فيض الله استملح بقاءه بمفرده ولا يزال طيف وجه الأمير لا يريد مفارقته، همّ أن يناديها ليواصل حكاياته لكنه تراجع لانشغالها، ضاق صدره بجنبات الغرفة فانتعل القبقاب وتوالت خطواته الهادئة إلى خارج البيت، خلف الباب وقف هنيهة يتأمل ماسورة الشعلة القديمة وأسطوانتها الدائرية، وتمنّى ألا يعود ابنه تقاوي لإشعال فتائل المصابيح كما كان يفعل قديمًا ويهيص عليه الأطفال بعفريت الليل بسبع رجلين كما كانوا يزفونه ليل نهار، خطا إلى الخارج وتنسّم أنفاس ساعة المغربية الباردة، المصطبة مفرود عليها مفروش الصوف، تهالك عليها، ظهره يسنده الجدار والساق على الساق، بقي قليلًا وشعر بارتخاء أجفانه، طرد الفتور وتوهجت همته، تحسّس عصاته ونهض من فوره، لم يتوقف عن السير إلا حين وصل أمام دكان الخواجة لينوس، أعطاه القرش فهز الخواجة رأسه لعادة زبونه وكرر عتابه:

ـ قلتها لك بدل المرة ألف يا معلم مشعلجي باشا، الزجاجات قليلة.

ـ أعتذر يا خواجة يا طيب، أجمعهم وأردهم لك في أقرب زيارة.

حرص فيض الله على عودته قبل مغادرة تقاوي إلى البيت، استراح على مفرش المصطبة، التفت حواليه وهمّ أن يشفط، دبدبة بطيئة قادمة فأخفى الزجاجة بجيبه الداخلي، انفتح باب بيت جاره فنجري والقس بردائه الأسود المميز يخرج ويتقدمه فانوس.

ـ مساء المسرات يا معلم تقاوي يا منور شوارعنا.

ـ يسعدك، لكن أنا فيض الله، تقاوي يبقى ابني، تفضل.

ـ أشكرك.

سارا متجاورين إلى خارج الربع، أطلت أم فانوس وبيدها طبق كعك محشو بالعجوة وقلة ماء، قبل أن تعزم عليه خرجت مريم واستأذنت في دخولها على منيفة، التفت فيض الله إلى جارته وهو يلوك القضمة الطرية.

ـ فيه الخير أبونا إبرام، كل حين يزوركم.

ـ أبونا إبرام نشيط ومن يوم رسمه في الكنيسة ومتولي فقراء الناحية، من أسبوعين أحضر لي لفة قماش واليوم أنهيت تفصيل جلاليب يوزعها على المساكين.

نهضت أم فانوس ودخلت بيتها، الفسحة أمام البيوت خالية، نتش الزجاجة وشرب على مهل بلعة وبلعتين وثلاثًا، أغمض عينيه وفتحهما وشعور عارم بنشاط ذهنه، أمال رأسه إلى الوراء،

وجه القس إبرام بلحيته الكثة يرج طلل ذاكرته، حين همّ الأمير عبد القادر بالعودة إلى غرفته، استأذن عليه ثلاثة قساوسة وألقوا عليه التحية، دعاهم إلى الجلوس، رغم مرور السنين لا يزال يتذكر حوارهم مع الأمير كرائحة لذكريات قديمة، فبدأه أكبرهم:

ـ باسم البابا ديمتريوس الثاني نقدّم لك يا أمير عبد القادر أسمى التحية.

ـ أشكركم.

ـ ويعتذر قداسة البابا عن عدم الحضور لانشغاله، لكنه كلفنا بالترحيب بشخصك الكريم وتواضعك بزيارة مصر.

ـ أشكر لكم حضوركم وترحيبكم، رغم أني منبهر بحفر قناة بين البحرين لسير السفن، حزين على من ماتوا أثناء عملهم الشاق.

ـ فليرحم الرب شهداء البلد الأبرار، تكبدوا الأهوال أثناء حفر القناة.

ـ رحم الله الجميع.

ـ ويؤكد قداسة البابا ديمتريوس عميق شكره وامتنانه لما أقدمت عليه حكمة سموك من حقن دماء المسيحيين أيام فتنة دمشق.

ـ لم أفعل غير واجب أملاه عليّ ضميري تجاه قوم رحبوا بي وأعيش معهم وأقاسمهم طعامهم.

ـ نعلم أنه نتيجة خلقكم العظيم وشجاعتكم النادرة في حماية إخوتنا المسيحيين في سوريا أهداكم ملك اليونان وقيصر روسيا وغيرهما أوسمة عالية غير نيشان الشرف درجة الصليب الأكبر من إمبراطور فرنسا وهدايا الملكة فيكتوريا والرئيس إبراهام لنكولن، وتسمح لنا يا سمو الأمير بقبول هدية قداسة البابا لسموك مع خالص دعائنا بوصولكم إلى مقر إقامتكم بدمشق بسلامة الرب وأمنه.

من كيس كتاني سحب قسيس مرافق صندوقًا خشبيًا والقس الثالث فتح درفتيه فبرقت عينا الأمير للمصحف ذي الغلاف البني، ابتسم في صفاء وهزّ رأسه..

ـ أشكر للبابا هديته العظيمة.

تناول الصندوق ودون كلمة أخرى استأذن القسيسون منصرفين وبقي فيض الله واقفًا مذهولًا بما رأى وسمع، أراح الأمير عبد القادر صندوق المصحف على ركبتيه، التفت إلى حارسه الشاب..

ـ أعرف سبب دهشتك، أقول لك: من تسع سنوات حدثت فتنة كبيرة بين الدروز ومسيحيي الموارنة وقتل من الجانبين الكثير، ولكن الخسارة الكبيرة كانت في قتلى الموارنة، حتى أن قرى بأكملها احترقت وخلت من أهلها ودمرت حارة النصارى الكاثوليك في دمشق نفسها، وفي يوم قصد قلعة دمشق ـ حيث أقيم ـ آلاف المسيحيين الهاربين من القتل فحميتهم حتى هدأت الفتنة.

دون أن يتردد مال فيض الله وقبّل رأس الأمير فنهض واقفًا وقدم له صندوق المصحف فاعتذر فيض الله:

ـ لا يا سمو الأمير، هذه هديتك العظيمة كما وصفتها ولا يستحقها غيرك أنت يا صاحب الخلق النبيل، الخلق النبيل.

ظلّ فيض الله يردد الكلمة الأخيرة حتى آنه لم يشعر بتقاوي الخارج من البيت وعلى كتفه عمود الشعلة وبيده الأخرى كيس عدته..

ـ كعادتك تكلم نفسك.

ـ لا، كنت أكلم الأمير.

ـ الأمير الجزائري الذي لم يأكل أيام حفل القناة.

ـ نعم، هو يا تقاوي، وجهلت دعاءه للبلد إلى أن وقعت هوجة عرابي.

دون أن يتبادل تقاوي كلمة أخرى حتى لا يضيع الوقت ويردد أبوه حكاياته أيام كفر الدوار والتل الكبير، خطت قدماه إلى خارج الربع، لا يهتم فيض الله بعدم مبالاة ابنه بما يرويه لنفسه أو غيره وأعاد هذا إلى حصر اهتمام تقاوي وجهده في توفير لقمة العيش لهم، لكن منيفة يجب ألا يحرمها من معرفة حكايات الماضي والبنت تحب سماعه وأحيانًا تفرد صفحة من كراسة قديمة وتكتب ما يرويه وتطلب منه إعادة بعض المواقف، حواره الأخير مع الأمير والقساوسة لم يروه لها وحان الوقت، استند على عكازه وولج الباب، من باب غرفة منيفة المواربة لمحها تشبك أصابعها بأصابع مريم ويدوران بوسط الحجرة وتكرران كلمات أغنية يرددها الناس من سنين، لم يقطع عليهما لحظات نشوتهما ودلف حجرته، وجد في نفسه خفّة وحماسًا أن يرتب ما بصندوقه القديم والتخلص مما لا يراه يلزم الاحتفاظ به، وبعدها يستدعي منيفة وجارتها الصدوقة فيروي للفتاتين ما يريد، عبثت أصابعه بما في الصندوق، ابتسم لورقة جريدة الأهرام الصفراء ولوحة إيوان الخديو إسماعيل في حفل القناة، يوم أن كان مأسورًا بأوامر القائد الشركسي، يردد أغنية البنتين:

يا ست مصر صباح الخير
فين العدالة يا مونشير؟
يسعد صباحك يا عينيا
وبس فين الحرية؟(9)

ندت عنه ضحكة قصيرة وهو يرفع عدة أوراق محاطة بخيط صوفي فإذا بالعملة المعدنية المستديرة ترن في قعر الصندوق، تقارب حاجباه وقلّبها بين أصابعه، يعض شفته في غيظ مكتوم ويغمغم بكلمات وكأنه يوجه للعملة عتابًا أو كلمات بذيئة، ولا يدري سببًا لاحتفاظه بها طوال السنوات البائدة، خطوات الغزالتين تقطعان الطرقة، فيصمت ويدس العملة الصدئة بجيبه، تقف مريم جوار منيفة وتسأل:

ـ غرضك تحكي يا جدي؟

ـ مشغول يا منيفة، ممكن في الصباح يا مريم.

ـ فعلا يا جدي، والصباح رباح.

تراجعت الفتاتان فاحتقن وجه فيض الله وهو يعيد تأمل العملة القديمة، يمط شفتيه في حنق بالغ والغصّة تكاد تخنق روحه، جرعات أخرى من الزجاجة أعادت له ثبات نفسه فتفتقت ذاكرته عن وقعة يكابد كي يمحوها فنسيانها صحة لكنها تطفو من آنٍ لآخر بعد غرقها في غياهب الانشغال، يتمتم:

ـ منيفة غرضها أحكي لها، أحكي لها كل شيء ما عدا عار العملة.

تململ رأسه وتشابكت رموشه في هدوء، طفر وجه الخادم الدءوب وهو يقدّم أكواب الشراب على إحدى مناضد حفل القناة الكبير، بطرف عينه لحظ السيدة السمينة تميل نحو الخادم الفحل فتتعمّد ملامسة صدرها النافر لذراعه العارية مفتولة العضلات، تتحيّن الفرصة وتميل ضاحكة وتطلب ملء كأسها فينفذ على الفور، تنهض من جلستها وتأمر أن يحمل الخادم حقيبتها، يلقي القومندان شوكت أمره لفيض الله بمرافقة السيدة إلى مقر مبيتها، تسير هازة مؤخرتها الرجراجة وملبسها يجر على الأرض، يبقى في الأسفل إلى أن نزل الخادم بعد فترة ووجه الأجنبية يطل من أعلى السلم وتأمر بكلمات مهتّمة حروفها منقوصة، ففهم من إشاراتها أنها تريده أن يصعد، أدار عينيه للخادم الفحل فلم يستجب لنظراته المتسائلة وفارق المطرح في سرعة وعيناه منكسرتان..

يصعد فيض الله ويقف أمام الباب الموارب، بكلمات عربية متكسرة تأمره بالدخول فيتردّد فتخبره أنه عليه أن يحمل حقائبها الكثيرة إلى الأسفل، ما إن خطا للداخل حتى بادرت بإغلاق الباب، أراد الفكاك فوقفت حائلة أمام فراره، أنزلت ملبسها فاهتز ثدياها البيضاوان، وإمالة وجهها تؤكد أن السُكر بلغ منها منتهاه، لسانها المعوج هدده إن لم يفعل ما تريد ستصرخ وتتهمه بسرقتها، ولأنه يدرك مدى قسوة القومندان شوكت فقد يجلده أو يطلق عليه الرصاص إرضاء لضيفة الخديو.

تبرق عيناها وتثبت نظرتها لأسفل القايش، دار في خلده أنها لو يروقها الحزام الجلدي يهديه إليها، تقترب ودون تردد تباغت صدره بارتمائها الجريء، محيطة وسطه بذراعيها المكتنزتين، تشم رائحة عرقه الفائح من طول بقائه في الخدمة، أدرك ما تريد لكن الخادم القوي كان معها فلمَ استغنت عنه وطردته وأسبغت حظوتها عليه، تأرجح صراعه بين استجابته لها وامتناعه المسوّر بضياعه وتشرُّد زوجته وطفله تقاوي، أخفّ الضررين ما أقدم عليه فخلع السروال ووسوسة تطن في أذنه بأنها ما دامت نالت نصيبها كاملًا مكملًا من طعام وشراب ونزهة من مال البلاد فليستعد ما حظيت به.

انبسطت لإقدامه المطواع، ألقته على المرتبة وأرادت أن تكون الفارسة لكن نفسه رفضت، أدهشتها قوة الانقلاب وتشبث بفرصته الوحيدة ليكون قائد سواري، جثم عليها مثل قطار يروح ويجيء قبل اقتحام المحطة، شفتاها تسيلان بروائح الخمر العفنة، وذراعاها تعتصرانه، تسامح لها في حق الوقت إلى أن انفكت كلابشاتها وارتخت ذراعاها وتبعثرت شفتاها بكلمات لم يفهمها.

من فوره ارتدى ملابسه، كلما أراد تثبيت طربوشه تهدّل وانزلق من على رأسه، بعد أن أنهى ساعة البرنجي[10] وضع يده على مقبض الباب، ألقت بالكلمة الوحيدة التي وعاها: ستووب، أيقن أن مهمة الكنجي وقعت عليه فثبتت قدماه واستعدّ لاستئناف خدمته الليلية، بعينين ناعستين رفعت أمامه العملة المستديرة وهمست بحروف متكسرة: أنت فيري ممتع.

تخبطت ركبه أثناء نزول السلم وغادر، ابتعد حتى لا يتورّط في نوبة شينجي تأتي على بقية أنفاسه..

ظلّ يسير إلى أن وقف مع لمّة من رفاقه، يشعر بارتخاء أوصاله من طول الوقوف أثناء الحفل، بركب متخبطة جرجر قدميه نحو خيمة المبيت المخصصة للحرس، همّ أن يتحرّر من

ملابسه فرآه واقفًا أمام معروف، فذهب إليه مباشرة ورفع سبابته معاتبًا:
ـ يا رجل، لم تنبهني، والضيفة الأجنبية...
ـ اتركني في حالي.
تركه فاقترب منه رفيقه معروف فأوضح أن الخادم رافق الأجنبية إلى غرفتها وهصر جسمها بذراعيه وأغرقها بقبلاته وبعدها طردته، قهقه معروف بصوت عالٍ ومن بين كلماته المتقطعة فهم فيض الله أن الخادم من أغوات الحرملك ولا بد أن يكون...
ـ مخصيًا.
في أسف تبعثرت أحرف الكلمة البغيضة بين شفتي فيض الله، صعب عليه الشاب الجسيم الذي أغرت فتوته رغبة السيدة ولما اكتشفت لا شيأه طردته، وحتى لا تضيع ليلتها هباءً وقع عليه الاختيار؛ ليقوم بمهمة غرس الذكرى الطيبة لديها عن أهل المحروسة المتفانين في خدمة ضيوف أفندينا.
انتبه فيض الله لبدنه الممدد على الحصير والمخدة بين فخذيه، افترت شفتاه عن ضحكة مبتورة، رفع أمام عينيه العملة القديمة التي طالها الصدأ، بقرف ألقاها بجوف الصندوق فاستقرت جوار زجاجات الخواجة لينوس، سرّح بصره نحو حجرة منيفة وثبتت نظراته على بابها الموارب حرص على مداراة صوته:
ـ ممكن أحكي لك عن الأمير الصالح، وفضل نصحه لي لكن ما لا يمكن أرويه حتى لنفسي حكايتي مع العملة الأجنبية الصدئة.
قبض على الكرباج وطفق يكيل لظهره ضربات بطيئة ويتمنّى في قرارة نفسه أن تكفر لسعات السوط عن ذنبه، وفي جانب آخر من نفسه الموتورة تمنّى لو يعتلي كل حريم أوربا فيفوز بامتياز واحد مما نالوه منذ أيام الخديو.

***

جزء من أغنية للشاعر يونس القاضي، نشرت عام 1911م في جريدة السيف لصاحبها (حسين علي).
برنجي، كنجي، شينجي: مصطلحات بالجيش من اللغة التركية عن تناوب الخدمة الليلية التي تبدأ بعد الطابور المسائي من العسكري الأول فيسلمها للثاني ثم يأتي وقت الثالث.

(8)

كعادة تقاوي لا يتكلم إلا وهو يشرب الشاي، رغم شقائه بدت على وجهه أمارات رضا محت وجومه المنحوت على قسماته، التفت إلى أبيه ومنيفة وقال في اهتمام: ـ واحد من أخوالك يزورنا الليلة.

ـ والعشاء جاهز إن شاء الله.

ـ اسمه سعد الموشي، تاجر غلة من أسيوط، سأل عني في قهوة المعلم حسين، قال لي أن عطية يطلب زيارتي في موشا.

ـ تسافر الصعيد؟

ـ لازم يا منيفة، جدك همّام مات من أسابيع وخالك عطية حقاني، غرضه يوزع الميراث.

أطرق فيض الله وترحم على الحاج همّام وعلى كل الأموات، لم يبد على منيفة التأثر فلم تر جدها والد أمها مرة، حتى أمها نفسها رسمت لها صورة في خيالها من خلال حكايات أبيها وجدها بأنها كانت فارعة ووجهها حلو قمحي وأنها تشبهها إلى حد كبير وسمرتها الرائقة ورثتها من أبيها، أما خالها عطية فتتذكره، فلاح طويل القامة شاربه المبروم يقف عليه الصقر حين زارهم من سنوات قبّلها وأعطاها الحلوى وسلم أباها صرة فلوس عرفت فيما بعد أنه نصيب أمها من غلة الأرض وتجارة البهائم، همّت أن تعرض على أبيها مرافقته إن نوى السفر؛ لتركب القطار وتشاهد نيل الصعيد وتتعرّف على بلد أمها المولودة فيها ويشاء الله أن تدفن هناك، نقرات الباب تنبهها، نهض تقاوي وفتح، رحّب بالضيف وفي سرعة رصت منيفة أطباق الجبن والبيض المسلوق والعسل الأسود.

لقيمات قليلة جبر بها الضيف الزاد، وطوال الوقت فيض الله صامت يستمع لكلمات سعد المقتضبة الذي أخبره عند الباب أنه ينتظره في محطة القطار ليركبا وابور الساعة الثانية عشرة المقبل على الصعيد، دخل تقاوي على أبيه ومنيفة، دون أن يتحاور أمسك بكيسه وعمود المشعل، غادر البيت إلى الحارات القريبة، ليزاول إنارة مصابيح البيوت، ما إن ثبت قدمه على أولى درجات السلم حتى انكسر خشبها، زفر أنفاس الضيق، تحامل على نفسه وصعد، نفخ الرماد فتطاير أمام عينيه، سن زجاج المصباح انغرز في بطن كفه، رفعها في سرعة وأنهى مهمته بإشعال الفتيل الغارق في الزيت..

ـ ما لها مصابيح الكهرباء، لا رماد ولا زيت ولا جروح.

نزل في بطء واستثقل إكمال إنارة بقية المصابيح، عاد إلى البيت وأراح بدنه على المصطبة، يفكر في مشوار أسيوط وما يضمن له ميراث زوجته من مال يمكن أن يفتح به دكانًا أو يشتري حنطورًا بحصانين ويشتغل عليه.. لا، عربة السوارس أفضل فركابها عديدون ويدفعون أكثر، السفر لأسيوط لا بد منه والمال يحتاجه هو وأبوه الضعيف العاجز عن الشغل ومتخفيًا يمد يده ليشحذ ثمن زجاجة النبيذ، نهار الأسبوع الماضي أرسله المعلم حسين ليشتري قمعين سكر من الدرب الأحمر فرآه مقعيًا جوار جدار مسجد المحمودية ورغم دثاره الخافي لوجهه

عرف كفه المعروقة فتجاهله وعاد إلى القهوة، وبنته المسكينة آولى بكل مليم، وسيجهزها بأحسن جهاز حين يأتيها نصيبها وتتزوج.

غصّة تخنقه من ثقل دم أصحاب بيوت الشوارع العمومية وسخريتهم منه ويضاف عليهم حارة اليهود؛ فما إن يمر أمام بيوتهم حتى تنادي عليه أم ميلي وأم باروخ وأبو موسى وكل منهم يسوّف أجرته، والخواجة جاكوب رغم دكان خردواته العامر بالبضاعة لا يمنحه مليمًا واحدًا ويعرض عليه أردأ شيء في محله ويعطيه إياه مقابل إصلاح مصابيح بيته، غير بيت عامي وأمه جالسة طوال الوقت خلف المشربية وما إن تراه حتى تناديه، وبعد إشعال مصباح الباب تغلق شراعة المشربية وترفع صوتها الخنوف بأن الحساب لما يرجع أبو عامي، وأبو عامي لم يعد من زمن طويل.

ألقى العمود والكيس وركن إناء الزيت، منيفة جالسة جوار جدها وضوء المسرجة الخافت يموّه الظلال، هيّأ تقاوي نفسه لجدال طويل مع أبيه لإقناعه بالرحيل، دون أن يرفع فيض الله رأسه ألقى كلماته في خفوت: ـ سافر يا ولدي، من فضل الله أنه كرمك بخال لبنتك يعرف ربنا، أنت تعبت ومن حقك تستريح والمال يريحك.

ـ ولا أتأخر، أركب أول قطار راجع مصر(11).

ـ ولو منيفة غرضها تصحبك...

ـ لا يا جدي، أبقى معك.

ـ عندها حق، السفر متعب وأنت محتاج رعايتها.

نهض تقاوي ليستعد للسفر، دائرة من نظرات حانية أحاطت بها منيفة جدها العطوف، تعلقت برقبته وقبلت خده..

ـ تريدني أسافر يا ولد يا فيض الله يا شقي، ومن يحضر لك زجاجة الخواجة لينوس، ولو لك مزاج تدخن...

رغم وجوم فيض الله وخوفه على تقاوي طوق منيفة بعباءته كما كان يفعل وهي صغيرة وقرص خدها فنهضت من فورها لتجهز لأبيها زاد السفر.

***

أمام المحطة أشار للمعلم سعد الذي أسرع إليه وعلى وجهه علامات الاعتذار، فقد اضطر لتأجيل عودته أيامًا لقضاء بعض المصالح لدى تجار بالحسين وشارع الحمزاوي، انقبض قلب تقاوي للرحيل بمفرده وكان يعول هوان السفر على صحبة سعد الموشي معتمدًا عليه في سلامة وصوله إلى البلدة النائية، محا من نفسه أي تفكير في التراجع فقد عزم وعليه أن يتوكل على الله، أوصله سعد إلى باب العربة وانتظر قليلا حتى تحركت، دوت صافرة القطار وارتجت العربة كأنها نازلة من جبل عال، طوال مكوثه بالكرسي لم يغمض لتقاوي جفن؛ خوفًا على أبيه ومنيفة ووقر في قلبه أنه لن يبقى سوى يومين على أكثر تقدير، وربما يركب القطار العائد في نفس اليوم، نعم، لا مصلحة لي بموشا غير نصيب أم منيفة من مال قدّره أخوها عطية مقابل القراريط القليلة والبهائم والغلة، بجنبات صدره ترددت أصداء كلماته المصممة على الرجوع دون إبطاء، زاده اطمئنانا توصية جارته دميانة بمنيفة ووعده معروف السقاء أنه لن يقصر في السؤال عن جاره ورفيق الجندية القديم.

هدأت نفسه عند هذا الخاطر، شعر بقرصة جوع فأخرج رغيفًا وبيضة مسلوقة وقطعة جبن، أكل في هدوء وحين هم برفع القلة على فمه سمع القاعد أمامه يقول لرفيقه في حدة: ـ أما سعد باشا شجاع بصحيح، أرسل لرئيس وزراء الإنجليز لويد جورج رسالة يطلب فيها استقلال بلادنا ورفض حماية الإنجليز.

ـ لكنهم حبسوه هو والباشوات في ثكنات قصر النيل.

ـ مسيره يطلع ويبهدلهم.

ـ يبهدلهم! يبقى ما وصلت لك بقية الأخبار، قبل ركوب القطار سمعت أنهم نفوه لبلد اسمها مالطة.

من كثرة ثرثرة أفندية قهوة المعلم حسين لم تكن تلك الأخبار غريبة على تقاوي، حتى ضاق صدره بها ويود لو يبقى البلد هادئًا فيأكل لقمة عيشه دون إغلاق القهوة، كما حدث حين فتش البوليس عن منشورات ووجدوا شابًا بمدرسة الحقوق في شنطة يده رزمة أوراق مكتوب بها كلام ضد الإنجليز، يومها قفل المعلم حسين القهوة يومين وحرم تقاوي من أجر عمله فيها بوردية الليل.

اندفع القطار فجأة ثم جفلت عجلاته الحديدية الضخمة، توقف تمامًا فأطلّ تقاوي من الشباك لعله يرى عنوان المحطة لكن الزرع على الجانبين ومن بعيد ترعة الإبراهيمية، انتظر كرفاق السفر لكن القطار لا يتحرك، مدّ رقبته خارج الشباك، من بعيد تزفر عربة الجرار دخانها، استسلم كبقيتهم وأخذته سنة من نوم أراحت رجرجة جسمه من فرط الاهتزاز، استمرت نومته غير المعتاد عليها، فالكرسي غير مريح وقعدته أجهدت ظهره لكن النوم جثم على بدنه فاستغرق فيه، استطال بقاء القطار وفتح عينيه على تلاغط الركاب بأنهم قد يبيتون بسبب أعطال في الطريق قرب محطة ديروط، إذن فقد دخل القطار نطاق أسيوط وبقي أن يصل إلى محطتها الكبيرة ويتدبّر استئجار مكاري يصل به إلى موشا ولو حالفه الحظ لا ينزل ويبقى فيقف القطار على محطة موشا نفسها.

تقاوي غير أبيه فذاكرته العاقة لا تسمح له باحتجاز العديد من وقعات حياته سوى ما يريد أن يتمه في يومه، بنايات بعيدة تعيد نخيل موشا وبيوتها الطينية المبنية على مرتفع لتنجو من مياه الدميرة[12]، يغمض عينيه فيضيء نهار ذلك اليوم البعيد الذي يحدده بيوم موت الخديو توفيق والبلد كان مقلوبًا، دخل عليه أبوه وأخبره أنه خطب له واحدة مليحة كان أبوها ممن نجوا من حفر القناة زمان ورجع بلده بأسيوط، تعرف عليه أيام السخرة[13]، واليوم قابل همّام الموشي ومعه بنته نجية في زيارة لأقاربهم والتبرك بمقام السيدة والحسين والأولياء ونازلين عند قريب لهم في المغربلين، رآها ورأته، سافر هو وأبوه إلى موشا وعقد عليها وعاشت معه على الحلوة والمرة.

صبرت واحتسبت عدم الخلفة رغم أن الحكيمباشي أكد عليه أنه لا مانع من الإنجاب إلى أن رُزق بمنيفة بعد سنوات من التعطيل لا يدري سببها، لا يزال يتذكر حلمًا راودها وروت له وقعاته بأنها ملفوفة بملاءة بيضاء وتشير إلى أمها قبل أن تبتلعها الأرض.

ولما وصلها أن أمها مريضة وعلى سرير الموت سافروا ومنيفة عندها سنة وشهور، لكن الشوطة كسحت البلد، وتمت دفنتها قبل موت أمها المريضة في قبر بحوش البيت، ودبّر عطية

مغادرته هو ومنيفة موشا بعد أن قادهم طوال الليل إلى محطة قطار أبو تيج وركب معهم القطار ونزل في أسيوط بعد أن ودعه ومنيفة الصغيرة ومن يومها لم تتخط قدمه الصعيد.

القطار تعلو زمجرته وينفث من منخره الدخان إيذانا باستئناف تحركه، يروح ويجيء مع حركة القطار حتى علا صرير عجلاته وتوقف دقائق في محطات ديروط وتكررت ركنته في القوصية ومنفلوط ومنقباد ثم دخل محطة أسيوط الكبيرة، حين سأل الكمساري عن وقوفه في محطة موشا فأخبره أن القطار يتوقف ساعتين لإصلاحات طارئة في الطريق قرب طهطا، غادر المحطة، مسحت نظرته الميدان الفسيح، والأصوات العالية تصك أذنيه، واحد من الشيالين يدخن سيجارة ويشير إلى مجموعة من الشباب متجمعين وهتافاتهم متداخلة..

ـ طلبة المدارس الغضب راكبهم.

ـ أي مدارس؟

ـ طلبة المدرسة الثانوية الأميرية والمعهد الديني ومدرسة الأمريكان وطلبة مدرسة إخوان ويصا وغيرهم.

ـ أكيد وصلهم القبض على سعد باشا ونفيه لمالطا.

استمع تقاوي لحوار الشيالين، ابتعد عنهما خطوات ففوجئ بموجة من الشباب تتداخل أصواتهم ويسيرون نحو سوق القيسارية الذي يسمع عنه، تسارعت خطواته نحو مكاري..

ـ ممكن تنقلني لموشا.

ـ موشا بعيدة والبهيم يموت مني.

التفت في حيرة، البوليس في كل مكان، وعسكر الإنجليز على خيولهم ولا يريد شيئًا يعطله عن قضاء مشواره وإن أقبل عليه الليل لا يدري أين يبيت، توجد لوكاندة صغيرة أمام المحطة لكن لن ييأس، تمنّى لو يجد أتومبيل سريعًا كالذي رآه في ميدان المحطة قبل سفره، أو يكتري عربة سوارس، أكيد فيه سوارس هنا لكن أين؟ القلق يأكل نفسه، الوقت يمر ولا وسيلة تنقله لموشا، حنطور يقبل على المحطة في بطء والسائق الكهل يترنّح كحصانه العجوز، لم يهتم به لتأكده أنه يختص بنقل الناس في شوارع أسيوط الداخلية، غاب الرجل داخل المحطة وعاد وبين يديه ماعون ماء ركنه أمام حصانه، رغم أصوات المتظاهرين وجري الناس وقف يشعل سيجارة ودون مقدمات باغته بالسؤال: ـ أي بلد أنقلك يا حاج؟

ـ بلد بعيد.

ـ يا سيدي البعيد يقرب لك.

ـ موشا.

ـ اركب والأرزاق على الله.

لم يصدّق تقاوي نفسه فألقى الصرة واتكأ على الشومة القصيرة وارتقى الكرسي، قبل أن يرفع العربجي القمشة التفت وسأله: ـ والأجرة يا معلم؟

ـ بسيطة، المهم نصل قبل الليل، تدفع البريزة؟

ـ أدفع.

ـ يا سلام على أهل بحري الطيبين، محسوبك عبده أسطى حنطور أبًا عن جد.

ـ وعرفت أني من بحري يا معلم عبده؟

ـ طبعًا يا حاج، اسم الكريم؟
ـ تقاوي، ساكن قرب السيدة زينب.
ـ شيء لله يا أم هاشم، مدد يا حسين.
مال العربجي بالعربة مخترقًا الشوارع والكثير من الشباب والموظفين وأهل البلد يروحون ويجيئون وهتافهم متصاخب: سعد.. سعد، يحيا سعد. والصغار حول العربة يصيحون: يا جبار يا عزيز أهلك عسكر الإنجليز، هجست نفس تقاوي بخوف على أبيه وابنته فإن كان هذا الحال في أسيوط البعيدة عن دار الحماية وما رشالات الإنجليز وثكنات قوادهم فما بالك بأهل القاهرة أكيد المظاهرات هناك أشد وأعنف ومواجهة الإنجليز للناس شديدة، لم يسمح بالقلق يهزمه فكل ما يريده إتمام مشواره على خير والعودة وإن كان على أبيه فإنه حذر ومنيفة لا تبرح البيت، لم يكترث كثيرًا واستسلم للاسترخاء على مقعد الحنطور المتسع كالذي رأى فيه مرة الست منيرة المهدية ذاهبة إلى ملهاها بالأزبكية حين كان يشعل أحد مصابيح الأعمدة في الشوارع الجانبية، ارتجّ الحنطور لانحراف الفرس بالمدق الترابي مفارقًا البيوت إلى وسط الزراعات والعربجي يدندن بأغنية سمعها مرة أثناء تجواله بالشوارع: صح النوم ما تقوم يا حبيبي

غيّر ريقك ع الحليبِ.[14]

يفاجئه العربجي بالسؤال:
ـ قابلت عثمان عبد الباسط يا شيخنا؟
ـ تقصد علي الكسار، لا والله، قابلت مرة الست منيرة ومرة قابلت الريحاني.
ـ كشكش بيه، إنسان جميل، من سنتين كنت في زيارة لأختي في مصر وحضرت له في الرينيسانس مسرحية ابقى قابلني[15]، إنسان يضحّك الحجر.
التزم تقاوي الصمت وتارة أخرى نهشته أنياب الخوف على ابنته وأبيه، ودعا ألا تضطرهما الظروف إلى مغادرة الحارة المختصرة على بيوتها القليلة وبعيدًا عن جولات الإنجليز أو تجمعات الأفندية والمتظاهرين ضدهم، هدأت العربة ودون أن يسأل العربجي أدرك أنه بحاجة إلى إشعال الفانوسين على جانبي الحنطور لتسلل العتمة، نزل وشط عود الكبريت لكن الفتيل لا يستجيب رغم وجود الزيت، نزل تقاوي ومدّ أصابعه يفحص الفانوس، وجد مجراه مسدودًا فطلب سلكًا، عبثت يد العربجي بصندوق أسفل مقعده، مد سلك النحاس الرفيع لتقاوي فأقحمه في الماسورة الصغيرة ونفخ مطيرًا بقية من رماد، أشعل الفتيل فأضاء وأضافت ذبالة الفانوس الآخر توهجًا.
عاد لجلسته ونشط عربجي الحنطور في قيادته، مال في مدق ترابي ضيق بين الحقول الملتوية، رفع تقاوي رأسه يتأمل نجوم السماء وارتعاشاتها الخاطفة، ظلال النخيل أرهبت قلبه، أيقن أنه يقترب من موشا، فقد سأل العربجي رجلا أسفل نخلة فأشار له إلى طريق أخرى، قاد العربة وبدأت بيوت البلدة تتناثر إلى أن انتظمت في شارع يسع جاموستين بالكاد، على عتبة أول بيت يلتف ثلة من شباب حول النار ليستدفئوا، سألهم عن بيت عطية بن همام فقفز ولد جواره..
ـ أنا سيد بن عطية وأنت أكيد عم تقاوي.

عجز تقاوي عن وصف ما شعر به من راحة فمال وقبل خد الصبي، سيد يوجه الحنطور إلى بيتهم المنزوي وسط النخل، وقفت العربة أمام الباب وحمل الصرة، فتح الباب فارتمى على صدر عطية والدموع تكاد تطفر من عينه.

التفت وشكر العربجي، نقده أجرته، طلب عطية من الرجل أن يتعشى لكنه اعتذر لضيق الوقت..

ـ المطرح واسع واسترح عندنا يا معلم للصبح.

ـ شكرًا يا حاج، ولو غرضك أنتظر لتوصيلك المحطة أنا في الخدمة، متعود أنا وصاحبي على المشي بالليل.

شكره تقاوي فربت على رقبة حصانه فطلب منه عطية أن ينتظر، غاب بجوف البيت ثم عاد في سرعة وبين يديه قفة صغيرة مضفورة من السعف مرصوص بها البتاو وإناء من الفخار مملوء بقطع الجبن، شكرهم عربجي الحنطور ووضع القفة خلفه، أدار الحصان نحو الطريق وأمر عطية ابنه لمرافقته إلى أول البلد، تارة أخرى نط الولد بجوف الحنطور وأداره صاحبه بمهارته المتوارثة، ودعته عينا تقاوي ولم يتمهل عطية ودعاه إلى أن يستريح بحجرة الضيوف لحين تحضير طعام العشاء.

ـ حمدًا لله على سلامتك يا تقاوي، أخبار منيفة؟

ـ بخير عروسة ما شاء الله.

ـ وأخبار مصر وأهل مصر؟

سكت تقاوي وبدا على عينيه الإعياء من طول السفر لساعات طويلة، تململ في جلسته وتثاءب في كسل..

ـ قبضوا على سعد باشا والبلد مقلقل.

ـ وهنا أولاد المدارس ثاروا على الإنجليز.

بدوره صمت عطية، دخلت زوجته مرحبة بزوج عمة أولادها، فرشت الأطباق وتركتهما يتعشيان، أسكت تقاوي تهافت جوفه إلى الطعام، شرب ودون أن يطلب هزّ عطية رأسه استجابة لرغبته، رفع لمبة الجاز الصفيح وقاده إلى آخر البيت، العجول مسترخية تجتر في هدوء، تخطياها إلى باب مغلق بالضبة المفتاح، تقدمهما سيد وفتحه، الحجرة فسيحة ومزروع في جانبها شجرة مورقة، أغصانها مائلة على مصطبة مبنية بالطوب الأخضر، خطا نحوها تقاوي وجثا على ركبتيه، رفع كفيه وقرأ الفاتحة، سالت دموعه فربت عطية على كتفه..

ـ وحّد الله يا تقاوي، كلنا لها.. البركة فيك وتفرح ببنتها.

في تثاقل نهض تقاوي مستندًا على كتف سيد، تأمل جدران الحوش العالية المطلية بالكلس، الحيطان أعلى مما تركه منذ أن دفن زوجته نجية، نجية أراد الله أن يحقق رؤيتها ودفنت أمها جوارها، غادرا المطرح المعتم إلى مخدع تقاوي، اتكأ بكوعه على المسند، اعتذر عن الشاي لرغبته في النوم، أوضح له عطية ما أجراه بالحوش.

ـ بعد الشوطة نويت أنقل نجية لمدفنا بالجبل، لكن عمك همّام رفض.

ـ فعل الخير.

ـ وزاد عليه وصيته بدفنه هنا مع أمي ففصلت الحوش وجهزته ليكون مدفنا.

آغمض تقاوي عينيه فلم يرد عطية الإثقال عليه بالحكي، فرد عليه حِرام الصوف الثقيل وأغلق عليه الباب.

***

مصر: تطلق على القاهرة.
الدميرة: فترة فيضان النيل.
السخرة: كلمة أطلقت على إجبار العمال والفلاحين العمل في حفر قناة السويس.
مطلع أغنية من تأليف بديع خيري من مسرحية (ولو) لنجيب الريحاني.
(ابقى قابلني): مسرحية قصيرة تأليف بديع خيري مثلتها فرقة الريحاني 1917م

(9)

على المصطبة أمام البيت، يتربّع فيض الله، ارتجاعات أذان العصر البعيدة تتردد من مسجد صرغتمش والسيدة وابن طولون، أنهى معروف كنس أرض الربع الصغير، بالقعب يغترف الماء ويرش، جوار فيض الله يريح ساقيه الرفيعتين..

ـ الحمد لله، ملأت زيور وقدور وقلل بيوت الربع.

ـ هو ساكن فيه غيرنا وأم فانوس، وربنا يرجع جلال بن محمود البنهاوي من غربته.

ـ تفتكر طلبة مدرسة الحقوق تعمل حاجة؟

ـ ربنا يسترها على البلد يا معروف، الحال من سيئ لأسوأ.

ـ وغيرهم، طلبة التجارة المتوسطة ودار العلوم والإلهامية الثانوية وغيرهم مشوا لغاية باب الخلق وهناك واجههم الحكمدار رسل بك وضابط إنجليزي اسمه أرشر ببلوك الخفر والعساكر المسلحين وطاردوهم.

ـ كان من يومين أو أربعة.

ـ ومن ساعتها والشباب في كل شارع فتحوا صدورهم لبنادق الإنجليز.

ـ ربنا يسترها ويعود تقاوي بالسلامة، أهل أسيوط شداد وأخاف أن...

ـ أسيوط بعيدة يا فيض الله، المظاهرات كلها هنا.

كعادته يعلو صوت فانوس من جوف البيت وأمه ترد عليه، يخبط باب المجاز قبل أن يقف أمام جاريه وهو يرتعد، تطل أمه والغضب يكسوها ولسانها يتلافظ باللعنات وفانوس يهدد: ـ أجرها من شعرها في وسط الشارع؟

ـ عيب يا فانوس، لو أبوك يعيش ما يرضيه تضرب أختك.

ـ ويرضيك تطلع والبلد خربان وعلى كف عفريت.

ـ معها منيفة وعلى كلٍ اصبر أنت واطلع أنا...

تسارعت خطوات مريم ومنيفة داخلتين الربع وكل منهما تسحب البرقع من على وجهها، تجهم فانوس واستعد لعقاب أخته، لكن فيض الله أمسك يده في حدة وهزه بشدة..

ـ والله لو آذيتها لأزعل منك.

هدأ قليلا وأطرق رأسه، دخل البيت وعاد حاملا عدة قفول، تركهم وهو يبرطم بكلمات يتوعد بها أخته، حدّج فيض الله منيفة بنظرة معاتبة..

ـ سمحت لك في زيارة تريزا لكن التأخير فيه خطر.

ـ البلد مقلوب والطلوع خطر يا بنتي ورصاص الإنجليز أعمى لا يفرق بين رجل وست، سمعنا أنه فيه شاب اسمه محمد عزت البيومي ابن محامٍ شرعي قتله الإنجليز وواحدة اسمها حميدة خليل من الجمالية، أصيبت و...

ـ ماتت يا جدي.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، فانوس عنده حق.

ـ معك حق يا جد معروف، آسفة يا جدي فيض الله، وصلنا من تريزا آن بنات مدرسة السنية شتمن الإنجليز وهتفن ضدهم من شبابيك الفصول، ووقفن قدام بنادقهم عند باب المدرسة، آه لو كنا هناك...

تارة أخرى لفّت نظرات فيض الله المعاتبة حفيدته وصاحبتها الجريئة، هز رأسه متعجبًا على أيام كسرت فيها الحريم قضبان البيت وبدلن الخروج لزيارات الأقارب إلى الاشتراك في المظاهرات، وسمع عن سيدات سرن في صفين تهتف كل واحدة بسقوط حماية الإنجليز عن البلد ورفع الإنجليز بنادقهم في وجوههن، وحكى له هلال أفندي أن واحدة منهن علا صوتها بالإنجليزية في وجه الميجور: أطلق بندقيتك إلى صدري لتجعلوا في مصر «مس كافل» ثانية.. وأوضح صليب أفندي أن «مس كافل» ممرضة إنجليزية أسرها الألمان في الحرب وأعدموها رميًا بالرصاص واشتهرت في العالم كله فتنحّى الجند وتقدمن بالاحتجاج، لكن السيدات كانت حرم سعد باشا زغلول وهدى شعراوي حرم شعراوي باشا وحرم حنا بك مسيحة والكثير من ستات وبنات البكوات والباشوات غير منيفة ومريم وتريزا الصغيرات.

أفاق على أم فانوس المرددة عبارات التأنيب لبنتها، تفرد كفيها على رأسها والقلق يطفح على وجهها، تخطو نحو فم الربع وتعود، من فوره نهض فيض الله.

ـ أطلع أسأل عنه يا دميانة.

ـ لا يا عم فيض الله، زمانه راجع.

ـ صدقيني يلزمني حاجات من العطارين ولازم أشتريها.

دعا في قرارة نفسه أن يكون الخواجة لينوس فاتحًا، لكنه يعرف الخواجات وحرصهم على سلامتهم أهم شيء، أكيد قفل دكانه وسيحرمه من حوذ زجاجته، سار مباشرة نحو دكان فانوس فرآه مغلقًا وزاد عليه جاره الحريص قفلين، تسارعت خطواته متأبطا ذراع معروف متفاديًا هرولة الناس من حوله، كما توقع، بقالة لينوس مغلقة أشار له معروف إلى دكان آخر في آخر الشارع وصاحبه يلملم أشياءه، تسارعت خطوات فيض الله، مدّ إليه الزجاجة..

ـ املأها يا خواجة توما.

ـ خمسة قروش وبسرعة.

رفع معروف حاجبيه دهشة من ارتفاع سعر البيرة، ألقى إليه بقرشين فتناولهما الخواجة متبرمًا، في سرعة البرق أنهى تعبئة الزجاجة ودون أن يلفها في ورقة كعادة البقالين قدمها لفيض الله وأسرع يلملم بضاعته لسماع دوي رصاصات، تخبطت ركب معروف وقبض على ذراع صاحبه يستحثه على العودة إلى الربع الضيق الآمن فلا مطمع لبوليس أو إنجليز في بيوته المغلقة، أدرك فيض الله خطر البقاء ودون تردد استدار للعودة مقتربًا من مسجد السيدة زينب والناس من التروماي تهتف ضد الإنجليز والعسكر من بعيد يوجهون فوهات بنادقهم تحديًا واحترازًا للمواجهة الوشيكة التي تفجّرت بإلقاء الشباب زجاجات وطوبًا على الصفوف بمنتصف الشارع فردوا عليهم بإطلاق الرصاص.

كالنمل تفرّق المتظاهرون ومنهم من لجأ إلى مقام السيدة والأزقة المجاورة، الكثرة فتحوا صدورهم للرصاص ووصل لفيف منهم إلى الجند واشتبكوا معهم بالأيدي، كل ما يهم فيض

الله النجاة بصاحبه فانحنت قامته ولزم السير السريع في ظل الجدران، أمام زاوية بين بيت ساكنة بك والبيت المجاور جفلت قدمه.

شاب يتعارك مع إنجليزي ويمسك بندقيته، السونكي الحاد جرح جبينه فارتد إلى الجدار وقبل أن يوجه العسكري إليه فوهة البندقية كان عكاز فيض الله الأسرع، فأطار سلاحه وضربته التالية شجت رأس الإنجليزي فترنّح وهوى على الأرض، الشاب يداري وجهه بكفه، يميل ليلتقط طربوشه المغبر وحين اعتدل اتسعت عينا فيض الله..

ـ عبيد، هنا، تعال يا ولدي.

أراد عبيد أن يعود إلى بيته لكن الأرض دارت به، فتح عينيه وأغمضهما وكاد يغشى عليه فاستند على ذراع فيض الله وأسنده معروف، أسرعا به إلى حارتهما وما إن رآهم فانوس الواقف أول الشارع حتى حلّ محل السقاء العجوز وعاون فيض الله في جر الشاب إلى المصطبة، أماله إلى الوراء وفحص جرح رأسه..

ـ سليمة.

فاهت بها أم فانوس وهي تمد لهم قلة الماء، بخرقة نظيفة مسح فيض الله الخدش، الجرح سطحي ويكفي نظافته بالماء مع وضع القليل من البُن، عبيد الساكت طوال الوقت مستسلم لما يفعله فيض الله واستشعرت ساقاه الراحة.

ـ حظنا نقابل الأستاذ عبيد.

ـ حظي أنا يا جد فيض الله تنقذني من موت محقق.

ـ وأخبار جدتك حليمة هانم؟

ـ بخير، أبي وصل أول النهار من بورسعيد ومصمم على سفري معه ورفضت.

ـ رفضت؟

ـ غرضه يبعدني عن مدرسة الحقوق ومظاهرات طلبتها.

ـ أطعه يا بني، البلد ما عاد فيه أمان، وبورسعيد بعيدة عن المظاهرات.

ـ للأسف يا جد...

ـ معروف.

ـ أبي مصمم أن أسافر تركيا عند عمي هناك، هو نفسه له رغبة يستقر مع أهل زوجته، لكن لا أتخلى عن جدتي.

دمعات المطر أوقفت حوارهم ودفعته للنظر لأعلى، دون اتفاق دخل معروف بيته وكذلك فانوس مع أمه، في الوقت ذاته خرجت منيفة تتبعها مريم مبتهجتين بالرذاذ الخفيف، جفلت قدمها لوجود عبيد فاستدارت متوارية ونصف رأسها مطل من خلف الباب، أما مريم فوقفت قليلا تتفحص وجه عبيد، غمزت لصاحبتها وابتسمت قبل أن تدخل البيت، انتصبت قامة عبيد وهمّ بمغادرة الحارة المعتمة لكن دوارًا أصابه وكاد يغشى عليه من قلة الطعام من أمس، وأثر وخز السونكي الأليم ينكأ جرحه، اشتد هطول المطر فرأى فيض الله أن يبقى عبيد لحين هدوئها فقاده إلى الداخل وأغلق الباب.

أراحه داخل غرفته آخر البيت، غاب قليلا وعاد، ثبت عينيه في الشاب والحيرة تلبسته، كأنصال الخناجر نغزه القلق، فلو أن تقاوي موجود لبات مع منيفة وبقي الشاب هنا معه، على

كل بعد العشاء يدبر حال مبيته، وكأن الشاب قرأ ما في عين العجوز من توتر لوجوده بالبيت وبه عذراء فتماسك فقرر أن يغادر من فوره رافعًا الحرج عن فيض الله قليل الحيلة إلا أن العجوز باغته بالسؤال: ـ طلبة مدرسة الحقوق كانوا عند مقام السيدة؟!

ـ بعضهم يا جد لكن أنا...

ـ وسبب وجودك هنا وعركتك مع العسكري الإنجليزي؟

ـ وسط الناس زعقت في الإنجليز ولما اشتد ضربهم جريت، عند الزاوية بصيت على عيل يمسك رغيفين والعسكري الإنجليزي يصوّب بندقيته في وجهه ككلب مسعور فشبطت فيه وجرى الولد، والحقيقة يا جد فيض الله، بعد اختلافي مع أبي، استغليت فرصة نومه وطلعت من البيت لأجل أقابلك.

ـ تشوفني؟

ـ صحيح يا جدنا، كلام جدتي حليمة عنك وحكاياتك لما كنت هنا عرفت أنك مخزون روايات عن عرابي وغيره ممن حاربوا الإنجليز وأنا...

ـ لكن الوقت غير مناسب يا ولدي، وزمان جدتك حليمة هانم قلقة عليك.

أدرك عبيد أن الرجل يطلب منه في حياء عودته لبيته، فانتصبت قامته من فوره واستأذن، قرعٌ على الباب وصوت منيفة من خلفه تخبر جدها أن العشاء جاهز، لكن عبيد أصرّ على مغادرة البيت، تنحنح قبل أن تتسارع خطواته خارجًا من الغرفة قاطعًا المجاز إلى خارج البيت وفيض الله يلاحقه، ناولت منيفة جدها شمعة فأنارت بقعة شحيحة طريقهما، أراد عبيد أن يُبقي فيض الله لكنه أصر على السير معه إلى أول الربع، الأرض مسخمة، والعكاز يغوص في الطين، المصابيح مطفأة والظلام يلف البيوت، من بعيد أشباح تتحرّك وصوت رصاص يفرقع، حمحمة حصان خافتة وصوت من بعيد يرتفع: ستووووووب.

لم يجد فيض الله مفرًا من أن يقبض على ذراع عبيد الواقف في تحد، نفخ في لهب الشمعة الخافت ودفعه إلى داخل الحارة يرجو النجاة والوصول للبيت وإغلاق الباب قبل لحاق الإنجليز بهما فيطلقون عليهما النار أو يقبضون عليهما ويسوقونهما مطرودين، باب البيت بعيد وصهيل الفرس يقترب، ذراع مفرودة بمنتصف الربع يشير لهما، دون تردد يقود فيض الله عبيد فيدخلان البيت في سرعة ويغلق معروف الباب ويرفع يد الحديد ويسقطها في الحلقة الخلفية.

من فتحة مستديرة أعلى الباب يراقب معروف اقتحام عسكر الإنجليز أحدهما على فرس وآخرون خلفه يلمع سونكي بنادقهم في الظلام، دار رأسه يستطلع جنبات الربع ببيوته المغلقة في سكون، أدار لجام فرسه وغادر خلفه حرّاسه على أتم الاستعداد لإطلاق النار على أي شيء يتحرك، ظلوا ثابتين إلى أن وارب معروف الباب ليتأكد من رحيلهم، التفت إلى جاره وعلى ضوء المسرجة قذفه بنظرات اللوم..

ـ جننت يا فيض الله، تطلع والإنجليز في كل مكان.

ـ الأستاذ أصرّ يمشي.

ـ الأستاذ يفضل هنا للصبح ولما الدنيا تروق أنا بنفسي أرجعه بيته.

ـ لكن زمان جدتي حليمة ميتة من القلق.

ـ تقلق وأنت واقف على رجليك أحسن ما ترجع لها على نقالة.
كلمات معروف محتدة لكن عبيد رأى فيها حكمة اختبائه، فالسير في الليل فيه الموت المحقق لخوف الإنجليز من هجمات المتظاهرين، عاد فيض الله إلى البيت، دعا معروف ضيفه إلى الجلوس، فاستراح عبيد على الدكة وأمال ظهره على المسند..
ـ اخلع نعليك إنك بـ... ببيت المارشال ميجور معروف قائمقام وأميرالاي وبكباشي ويوزباشي بجيش عرابي سابقًا ومشعلجي أعمدة قصر العيني بعد تسريحه وحاليًا يشحذ الملاليم من سقاية الناس بعد انكسار وسطه.
ارتسمت ابتسامة على سحنة عبيد المتعبة، هزّ رأسه للعجوز المتندر على حاله، وما دام المبيت محتوما فلا مفر من الإذعان والطاعة فانحنى يفك رباط حذائه الملطخ بالطين وخلع الجاكيت المبلل وألقاه على حافة الدكة، حرّر رقبته من رباطها، دبدبة خافتة ولم يلبث أن دخل فيض الله وعلى كتفه حرام الصوف ووسادتان، خلفه منيفة بين يديها صينية العشاء تتوسطها شمعة، وضعت الصينية على الطبلية ووقفت تنتظر مرافقة جدها للبيت لكنه أشار إليها بالعودة وأن تحكم إغلاق الباب، اختلست نظرة خاطفة لعبيد والشاب بدوره خفق قلبه وتمنّى لو تبقى معهم يتناولون معًا العشاء ويسمح له بالكلام معها عما تحب أن تقرأ وسيعرض عليها كل ما بمكتبة جده عزيز من كتب.
تحلقوا حول الطبلية وأكل عبيد في نهم وفي قرارة نفسه سيمنح كلًا من العجوزين جنيهًا كاملًا مقابل مبيته وطعامه وإيوائه قبل كل شيء، أنهوا عشاءهم وغطى معروف ما بقي بأطباق الصينية ضامنا إفطاره الذي يتناوله مع نبتة الشمس وقبل أن يملأ قربته ويسرح بها في الشوارع يستقبل خروج التلاميذ والموظفين وتجار الدكاكين، الليل لم يوغل بعد ولكن الشتاء يشعرك بأنك في منتصف الليل، طار النوم من عيني فيض الله والتفت إلى عبيد مطيحا بالصمت الراكد على المطرح الضيق: ـ طلبت تعرف حاجة عن...
ـ عرابي يا جدنا، طول الوقت ما على لسان الناس في تركيا حتى بعضهم في بورسعيد غير أن عرابي خائن، عصى أمر السلطان عبد الحميد وهنا الناس اتهمته مع البارودي والنديم وغيرهم أنهم سبب نزول الإنجليز بر مصر.
فار صدر فيض الله وشعر بغليان دماغه، لكن لا غرابة فيما يقول عبيد المتربي في أسطنبول كعود أخضر نبت وسط أحجار حادة من أكاذيب لا يريدون له ولغيره غير تزييف الحقائق، وبورسعيد نفسها موبوءة بسكن الأجانب من مستوظفين وعمال بشركة القناة، لو وجدت بقية من فلول النوم أزالها فيض الله، بينما انشغل معروف في بسط الحصير على الأرض وفرد عليها مفرش صوف عتيقا، استراح عبيد لاتكائه على الوسادة وفيض الله قبالته يتلمظ شفتيه، ابتسم معروف للشاب المتأهب ورفع سبابته..
ـ أنا وجدك فيض الله كنا مشرفين على حفل الخديو إسماعيل لضيوفه الأوربيين يوم افتتاح ترعة السويس الكبيرة، وبعدها...
ـ اترك بعدها عليّ يا معروف.
ـ براحتك، النوم كبس على دماغي.

غابت قامة معروف النحيلة في ظلام فتحة مستطيلة دون باب، قرّب فيض الله الشمعة لتكون بينه وبين عبيد وعيناه تستطلعان أركان البيت الفقير بل أفقر بيت يمكن أن يكون رآه في حياته، جدرانه بطوب وحجارة ومسقوف بفلوق النخيل والجريد، أدرك فيض الله ما يدور في صدر عبيد فأوضح: ـ كنت أنا وهو بجيش عرابي، معروف مسكين، مقطوع من شجرة، أبوه كان عاملًا في معامل سلاح القلعة أواخر أيام الباشا الكبير محمد علي، بعد تسريح الجيش بقي في الخدمة لضمان قوته، بعد الهوجة بسنة رحل مع أورطة القائد علاء الدين باشا لحرب المهدي في السودان ومن القليلين الناجين من المهلكة، بعد رجوعه سرّح نفسه ورفض حتى أن يتزوج وكان يقول: الأحسن ألا توجد لي امرأة أعجز عن طعامها أو ولد يقاسي في دنيته.

ابتلع فيض الله ريقه، هفا للزجاجة فلم يحرم نفسه طرد السأم المتسلل، بلعة من زجاجة الخواجة توما أنعشت نفسه وتفتقت ذاكرته عما سيرويه لعبيد أحب الأسماء إلى نفسه.

***

(10)

كعادته يستعد لأخذ حمام الصباح الساخن ويرتدي الروب الثقيل، وبعدها يتناول إفطاره مع جدته في الحديقة أسفل تعريشة اللبلاب، ولو السماء أمطرت يشرب الشاي في الفراندة المطلة باستدارتها على شارع قصر العيني، ويصبّح على أعواد التوليب ويشم زهورها المتفتحة، يميل بوق الجردل المثقوب ليرويها ثم يسترخي على الكنبة الوثيرة وتريح وسادتها الناعمة عنقه المائل.

كأسلاك رفيعة تحز الخشونة جلده، رويدًا تتباعد رموشه ولم تلبث أن تجحظ عيناه لسقف الجريد الواطئ وفلوق النخل كأنها ستهوي عليه، انتفض قاعدًا ووقر في نفسه أن الإنجليز قبضوا عليه وهو محبوسٌ في زنزانة تحت الأرض، ينام على حصير ويتغطى بشيء لم يره من قبل ولا يعرف حتى اسمه، ألم برأسه ففرد أصابعه على الخدش، رويدًا استعاد إدراكه لما حوله، تواترت وقعات ليلته الفائتة، شعاع الشمس المطل من كوة بأعلى الجدار بدد مخاوفه، وأجاب انقشاع الغيمة عن ذاكرته عن سؤال: أين أنا؟

أنا في بيت الشيخ فيض الله، وبنت ابنه الحلوة تأتيني بالشاي. لا، أنا في بيت جاره ومنقذنا من عسكر الإنجليز بالليل اسمه، اسمه رءوف، أو... لا يهم، نفض غطاء الصوف، مسح رقبته والتفت فأدرك ألمها بسبب خشونة الحشية الملفوفة من المليف والمكسوة بملاءة قصيرة، نهض متأملا أثاث البيت الشحيح، وساكنه يهتم بنظافته وترتيب أشيائه القليلة، الباب مغلق ولا يجرؤ على فتحه، فضّل أن يصفق ولا مجيب، تجرأ وأرسل نظراته للداخل، المطرح فاضي وباب قصير موارب أسفل السلم المؤدي للسطح، خطا نحوه واستراح لوجود نقرة حمام وخلف الباب الخشبي المهترئ ماعون فخاري به ماء، أراح زنقته الطويلة منذ أمس، عاد لجلسته، لسعة برد ناوشته فلف الحرام حول كتفيه متدثرًا به، انتصب وجهه فجأة فأين الجد فيض الله، آخر ما سمعه منه أنه سيكمل له في الغد وفرد ظهره جواره وغطّ في نوم عميق.

ـ نعم، فيض الله نام وبعدها لم أقاوم أو أشعر بنفسي، لكني انتبهت لما حكاه عن الغبي المتعجرف الشركسي عثمان رفقي وتعنته ضد المصريين وتقريبه للضباط الشركس والأرناؤوط فكتب عرابي وأصحابه عريضة ترفض تعسف رفقي.

تثاءب عبيد وشعر بحلقه جافًا، ابتسم للقلة المركونة جواره رفعها وروى ماؤها عطشه، تأملها وابتسم، أغمض عينيه وتواترت في ذاكرته تفاصيل ما رواه فيض الله بعد أن ترع ما في زجاجته دفعة واحدة، صوته الحاد محفور في ذاكرته وأول ما يفعل بعد عودته كتابة ما رواه:

أمر عثمان رفقي بنقل الأميرالاي عبد العال حلمي حشيش قائد آلاي طرة إلى ديوان الجهادية، وتعيين خورشيد نعمان الشركسي مكانه، وفصل أحمد بك عبد الغفار قائمقام آلاي الفرسان، وتعيين ضابط شركسي مكانه، واتفق عرابي مع رفاقه على كتابة عريضة لعزل عثمان رفقي الشركسي، وفي سراي عابدين اتفقوا على محاكمة عرابي وأصحابه ونصب حيلة على

عرابي فدعوه ورفاقه إلى ديوان الوزارة بقصر النيل بحجة التشاور معهم في ترتيب حفل زفاف الأميرة جميلة هانم أخت الخديو.

لبّى عرابي دعوتهم وذهب إلى قصر النيل لكن بعد أن صحبه ضباط من آلاي الحرس من قشلاق عابدين يراقبون ما قد يحدث لزملائهم، وفوجئ عرابي بأمر اعتقاله وتجريده هو ورفاقه من سيوفهم، وسجنوا في قاعة سجن قصر النيل والضباط الشراكسة ظلوا يشتمونهم و يسبونهم ويصفونهم بالفلاحين الأجلاف لا يفهمون شيئا، يومها رجع عسكر الآلاي لقشلاق عابدين وأخبروا البكباشي محمد عبيد بما حدث.

ـ عبيد، كان اسمه محمد عبيد؟

ـ نعم يا عبيد، اسمك على اسمه.

ابتسم عبيد للحوار القصير الذي قطعت كلماته القليلة ما كان يرويه فيض الله، أمال رأسه إلى الوراء وصوت العجوز العميق يتردد: نادى البكباشي على الجند وكنت أنا ومعروف من بينهم، اعترض قائمقام خورشيد بك وسأل عن سبب هذا الاحتشاد فلم يجبه محمد عبيد بل أمر الجنود باعتقاله في إحدى قاعات القشلاق وعين حرسًا عليه، سار الجند بأسلحتهم خلف محمد عبيد إلى قصر النيل والخديو يشاهد تقدمهم وهو على سلاملك السراي المقابل للقشلاق فأمر راشد باشا حسني سر ياوره[16] بوقف الضباط لكنه لم يقدر.

أمر محمد عبيد بالهجوم على الديوان فكنتُ أول من رفع البندقية والسونكي أمامه زاعقًا في وجه ضباط الديوان، ومنهم عثمان رفقي الشركسي فهربوا من أمام وجوهنا، حتى أن عثمان رفقي الجبان نط من النافذة واختبأ في ورشة الترزية، كسرنا الأبواب مفتشين عن عرابي ووصلت إلى باب خشبي متين، ضربته بقدمي فانفتح ورأيت عرابي واقفا وسط الزنزانة، أديت له التحية وخرج مع رفاقه يتقدمهم البكباشي محمد عبيد وبقية الجند يحيطون بهم إلى أن وصلنا إلى قشلاق عابدين.

ـ وعثمان رفقي تدارى في ورشة الترزية؟

ـ كفأر مذعور هاهاها.

ـ هاهاها، يا سلام عليك يا جد فيض الله، كان يعوزني أعرف كل ما قاله، لما يرجع لازم يكمل بقية الحكاية.

***

كركبة معروف تنبهه فينفض عن نفسه الحِرام، عبيد الغاط في نوم عميق انزاح عنه غطاء الصوف، فرده فيض الله على جسمه وما إن نهض حتى واجهه معروف حاملا القربة الفارغة على كتفه..

ـ اقعد اليوم يا معروف.

ـ الناس منتظرة الماء.

ـ والإنجليز؟

ـ ما لي وما لهم، أنا سقاء، أملأ قربتي من نيلنا أو من الحنفية العمومية القريبة، فاكر زمان يا فيض الله، أيام كفر الدوار، جروا من قدام بنادقنا إلى الإسكندرية لكن اليوم كفاية علينا نكون سقائين ومشعلجية و...

ـ الحمد لله، المهم آنا قلق على تقاوي، آرجع البيت آطلّ على منيفة..
ـ وضيفنا النائم؟
ـ اتركه على راحته وبعد قليل أرجع له وأرافقه لجدته.
فتح الباب، تراجع خطوة لوجهي البنتين منيفة ومريم كأنهما نصفا قلبين متواجهين تتمازج أنفاسهما، أيقن أن مريم صعب عليها أن تبيت صاحبتها بمفردها فآنستها بالكلام طوال الليل ونامتا متأخرتين، تركهما إلى حجرته، أراح ظهره وصندوقه أمامه، أوراق الجرائد القديمة أصابها نشعٌ أبهت السطور والكلمات، ضيق عينيه ودارت نظراته على الأوراق الصفراء، بصوت خافت يقرأ عنوان الجريدة: التنكيت والتبكيت، وهذه اللطائف أما هذه فآخر نسخة من جرنال الأستاذ بعدها سافر النديم إلى الأستانة...
يميل وجهه أكثر ليتضح الخط الضئيل أمام مقلتيه ويقرأ: «وأعلنتُ حبَّ العسكر والتعويل عليهم، وناديت بانضمام الجموع إليهم، و...[17]».
بقية الكلمات ممسوحة فنقم على عدم اهتمامه بالصحف القديمة لعبد الله النديم، ترحم على الرجل الذي لم يره إلا مرة واحدة أثناء هوجة التل الكبير، حاول تذكر بعض كلماته المنسقة التي كانوا يرددونها لكنه لم يستطع، وحين يعود معروف سيسأله فهو يكرر الكثير من هذه الكلمات، ابتسامته غاضت حين نهشه القلق على تقاوي وأيقن أن عطية بكل تأكيد استبقاه خوفًا عليه بعد هيجان الناس على الإنجليز، وزاد على ذلك تعطل القطارات على طول خط الصعيد، تناهى لمسامعه أصوات من حجرة منيفة، نهض إليها، رآها تغلق الباب خلف مريم التي عادت لأمها بمجرد أن صحت من النوم، أهدته منيفة ابتسامة الصباح ووعدته أن الإفطار سيكون جاهزًا، ما إن غادر البيت حتى تاقت نفسه لاستطلاع الشارع، قهوة المعلم حسين مغلقة، قلائل من يتجولون في الشارع، استطاب وقوفه قليلا يستمتع بأشعة الشمس، وحين تعبت ساقاه استراح على المصطبة المبتلة.
تمنّى أن يتوقف حنطور وينزل منه تقاوي، لا، سأتمشّى إلى محطة القطار وأسأل، القطارات متوقفة وجند الإنجليز لا يرحمون أحدًا، بزغت في ذهنه فكرة قد تطمئنه على تقاوي، من ثنية بعيدة يرى معروف يحمل على ظهره قربتين.
تتخطاه بنادق الإنجليز المشهرة، أحدهم يشير إليه، فيميل فم القربة نحو الكوب ويسقيه، يتركهم ويقترب في بطء، يحاول فيض الله تخفيف حمله فرفض، دخلا الربع واستراح على المصطبة، التقط أنفاسه..
ـ بالسم.
ـ قلت لك استرح اليوم.
ـ ومن قال أني متعب.
نهض من فوره، قرع الباب ففتحت أم فانوس، أفرغ القربة فناولته العيش المخبوز لتوه، عاد إلى جاره فأزاح فيض الله الباب، فوجئوا بعبيد يتربع على الأرض وحول كتفه حرام الصوف، انتبه لوجودهما بعد أن سرقته غفوة قصيرة، التفت فيض الله لإقبال منيفة بالإفطار فتناوله منها جدها وعادت من فورها إلى البيت..
ـ الإفطار يا أستاذ عبيد وبعدها أوصلك لبيتك.

ـ لكن يا جدي محتاج تكمل لي كما وعدتني حكايتك بعد آن حرّر محمد عبيد عرابي من سجن قصر النيل.
ـ حاضر لكن لازم نطمئن جدتك حليمة، زمانها قلبت عليك الدنيا.
في سرعة أنهى عبيد إفطاره وارتدى ملابسه، عبثت أصابعه في جيب بنطاله وأخرج جنيهًا هو كل ما معه، قدمه لمعروف أما فيض الله فسيجعل جدته تمنحه مكافأة كبيرة، ابتسم السقاء وربت على كتف الشاب الصغير، هز رأسه وبدا كأنه يدندن: شرم برم حالي غلبان

وابن البلد ماشي عريان
ما معاه ولا حق الدخان
شرم برم حالي غلبان[18]

ـ فقير لكن عيب يا أستاذ تعطيني أجر ضيافتي.
احمرّ وجه عبيد خجلا من نفسه وفاضت عيناه بنظرات الاحترام الممزوجة بالشفقة على العجوزين الكريمين وقرر ألا يثقل عليهما بوجوده أكثر من ذلك، التفت فيض الله لمعروف..
ـ تصدّق يا معروف، كنت على وشك أسألك عن أغنية للنديم.
ـ تقصد أن ما قاله جد معروف من شعر كان لعبد الله النديم؟
ـ معلوم يا أستاذ، النديم كان جورنالجي تمام، وأحسن واحد تكلم عن عرابي وحربه مع الإنجليز، وله جرنال اسمه الطيف يكتب فيه، ابق معنا وأحكي لك عنه.
ـ عبيد لازم يرجع البيت.
ـ ونرافقه لهناك يا فيض الله، لكن نمشي ساكتين يا جماعة.
ـ ساكتين؟
ـ عرفت وأنا عند مقام السيدة أن اللورد اللنبي أصدر مرسومه بالسجن ستة شهور مع الشغل وعقاب بالجلد عشرين جلدة.
ـ أمر على من؟
ـ على أي إنسان يتكلم عن سعد زغلول أو واحد من أصحابه.
ـ رأيكم، أرفع صوتي في الشارع وأقول: سعد سعد يحيا سعد.
ـ لا يا أستاذ عبيد، أرجوك وأتوسّل إليك، الكلام جد وفيه خطر كبير، تمشي ساكتا وإلا ينقبض عليك وإن قاومت رصاصهم يصيب صدرك.
رأى عبيد في عيني العجوزين استرحامًا حارًا وخوفًا حقيقيًا عليه، مع قلة حيلة شيخوختهما في حمايته إذا واجه عسكر الإنجليز بمفرده فابتلع حنقه وصمت، أمام الباب هاتف فيض الله منيفة محذرًا إياها من مغادرة المطرح مهما يكن، استرقت عينا عبيد نظرات خاطفة لوجهها فخفق قلبه وود لو يجالسها ولو دقيقة ويشكرها على كل ما فعلت، استدارة فيض الله دفعته لأن يلوي وجهه بعيدًا.
تقدمهما عبيد فرفع فيض الله حاجبه دهشة للحذاء النظيف من سخام طين ليلة أمس والطربوش النظيف، التفت للباب المغلق وهز رأسه وتوالت خطواته، أمام فتحة الربع رفع عبيد يده طالبًا منهما أن يرجعا فما كان من فيض الله إلا أن أصرّ على مرافقته هو ومعروف

وفي قرارة نفسه يريد آن يذهب إلى بيت السيدة حليمة ففيه تليفون آو مسرّة كما آطلق عليه شيخ الجامع، ويمكن الاتصال بعمدة موشا والاطمئنان على عطية والسؤال عن تقاوي أو يقصد مكتب البريد ويطلب من التلغرافجي إرسال تلغراف إلى بندر أسيوط ويصل إلى موشا.

مروا أمام موقع معركة عبيد أمس، رفع الشاب وجهه للبيت المهجور وبابه الخشبي الكبير مغلق، حتى لا يسأل أجابه معروف: ـ بيت ساكنة بك، تسمع عنها؟

ـ لا، ولكن اسمها ساكنة بك؟

ـ وساكنة باشا، كانت...

ـ بعدين يا معروف، المهم هات لنا حنطور.

سكت معروف وتجنّب السير وسط الشارع فمشوا جوار جدران البيوت، ما إن رأى فيض الله حصان الحنطور يطل من زقاق حتى تسارعت خطواته نحوه، ركبوا متجاورين وتمايلت بهم نحو بيت عزيز بك المصري القريب من قصر العيني.

حليمة هانم تقف في الفراندة وعصمت والد عبيد أمام باب الفيلا الحديد، ما إن وقف الحنطور ونزل عبيد منه حتى غابت السيدة وحين نزلت كان عصمت يوبخه على غيابه وهو واقف بين فيض الله ومعروف دون الانتباه لوجودهما، من بين دموعها رحّبت السيدة بفيض الله ودعته للدخول، بينما قذفهم زوج بنتها عصمت بنظرات مملوءة بالاشمئزاز حين أخبره عبيد أنه قضى الليلة في بيت السقاء..

ـ أُصبت وجدي فيض الله أنقذني من سونكي الإنجليز و...

ـ واحدة واحدة، واحك لنا حكاية الجد فيضان.

قالها عصمت بك وهو يمسح شاربه ويهز رأسه في استخفاف مكسو بالغيظ من حماته التي سمحت لمشعلجي قديم دائمة الحديث عنه وسقاء بالجلوس معها على كرسيين أما مهما منضدة فقرّر ألا يجلس ويظل واقفًا مكتفًا يديه أمام صدره، روى لهم عبيد ما جرى، ومن حين لآخر تنقذف آهة متعجرفة من بين شفتي عصمت، أشار بإصبعه لمعروف..

ـ ونمت يا عبيد باشا في فندق سافواي المشعلجية!

حدجت حليمة هانم زوج بنتها بنظرات الغضب وتمنت تركهم لتشكر العجوز الشهم على حمايته لعبيد وإيوائه وبكل تأكيد قام هو وجاره المسكين بواجب الضيافة بقدر استطاعتهما وهم على ما هما عليه من رقة الحال، التفتت إلى فيض الله وأضفت على سؤالها نبرة حنان:

ـ وأخبار تقاوي يا عم فيض الله؟

ـ أرجو أن يكون بخير يا ستنا، سافر لأسيوط عند أهل المرحومة أم منيفة، قلق عليه يا هانم.

ـ البلد ما عاد فيه أمان.

ـ وأستسمحك نجري اتصالا لعمدة موشا أو لزوج روحية هانم، أعرف أنه باشمهندس كبير في قناطر الري وممكن يرسل عاملا من عماله لموشا القريبة من أسيوط ونطمئن عليه.

ـ للأسف يا عم فيض الله، الخطوط مقطوعة وعجزت عن الاتصال ببنتي روحية أو زوجها وانقطع اتصال عصمت ببورسعيد.

اعتصر فيض الله عينيه للخبر الصادم ولحظ معروف امتعاض وجهه، ضم أصابعه في قوة لوجه عصمت المتغطرس وينفث دخان سيجارته الغليظة، لا يرى فائدة لبقائهما فترك لفيض الله قرار عودته للربع، سحابة من صمت أظلتهم لا يبدده إلا صوت أنفاس عصمت الذي باغتهم: ـ كنا مرتاحين لولا سعد والناس حوله ما طاح الإنجليز في البلد.

ـ لولا سعد وأصحابه لاستمر الإنجليز في ظلمهم لأهل البلد.

ـ أنا متعب من سهر الليل بسببك يا عبيد، بعد الظهر نرجع لبورسعيد وأنا دبرت سفرنا.

ـ تسافر وحدك يا أبي، لا أترك جدتي والجامعة تنتظم بعد أيام.

ـ على راحتك، لكن احذر ولا تخرج إلا للضرورة القصوى.

الوحيد عبيد لحظ ابتسامة السخرية التي ارتسمت على وجه فيض الله ولا يدري سببًا لها، لم يجد فائدة من بقائه في فيلا حليمة هانم فاتكأ على عكازه ووقف فأصرت حليمة هانم أن يشرب الشاي، تركت الحديقة وجاءتهم الخادمة بصينية الشاي، زاد معروف من السكر والتفت إلى جاره..

ـ فاكر للضرورة القصوى يا فيض الله؟

ـ إلا فاكر، هو فيه كلمة خربت بلادنا ونكبتها غير للضرورة القصوى.

ـ كلمة أبي هي سبب نكبة مصر؟

ـ صحيح يا عبيد، كلمة والدك عصمت بك هي نفسها ما أضيف في مؤتمر الأستانة أيام هوجة عرابي.

ـ كلمات وأضيفت، أرجوك يا جدنا، تكلم.

ـ ركن الإنجليز سفنهم الحربية قدام الإسكندرية وأعلنت حمايتها للأجانب، وصلت الأخبار للسلطان عبد الحميد وقرار الدول الاجتماع هناك، وهناك اتفقوا على عدم التدخل في مشاكل مصر لكن مندوب الإنجليز الخبيث أضاف على التعهد عبارة إلا للضرورة القصوى.

ـ وطبعا كان لازم تحدث الضرورة القصوى لضرب الإسكندرية وحربنا مع الإنجليز.

ـ الله عليك يا جد فيض الله و...

وقوف العجوزين بتر تمني الشاب في الاسترسال في الكلام، أقبلت عليهم حليمة هانم شاكرة لهما ما فعلاه من أجل عبيد ولم يدع لها فيض الله فرصة للاعتذار عن حوارات عصمت وعدم تقديره رعايتهما لابنه، أدركت حاجة فيض الله للعودة لبيته وابنه غائب ومنيفة بالبيت..

ـ إن شاء الله تزورنا منيفة.

هوّم فيض الله برأسه ولمح انشراحًا على وجه عبيد وخلعه لطربوشه مقربًا إياه من صدره، ابتسم وتبع معروف استدارته خارجين من فيلا السيدة حليمة.

***

الياور: كلمة تركية تعني المرافق الشخصي، وأيضا هي رتبة عسكرية عثمانية تعني رئيس حرس الأمير.

من أقوال عبد الله النديم.

من أزجال عبد الله النديم.

(11)

حقيقة لا تدري منيفة كيف تسحّبت بعد خروج جدها، قبضتها المضمومة نقرت الباب ففتح عبيد الباب، أما مه وقفت ووجهها للأرض، تلعثمت وهي تطلب منه الجاكت والطربوش، فأعطاها ظهره فأفسحت لنظراتها لتحوطه بهما، ارتجف قلبها وهو يمد يده بالطربوش مستبقيًا الجاكت، أحرجت من طلب الحذاء المتسخ فخطت للداخل وتناولت أصابعها الفردتين، نظرته تمنحها امتنانًا صامتًا فارتعشت شفتاه وهي ترجوه: ـ حافظ على نفسك يا أستاذ عبيد.

ـ الحمد لله، وشكرًا لجدي فيض الله.

ـ جدي ما عمل غير الواجب لكن احذر رصاص الإنجليز.

ـ أنا نادم أني ما كنت مع زملائي من مدرسة الحقوق.

ـ تصدقني لو قلت لك أتمنّى أطلع مع بنات مدرسة السنية، لكن جدي أهم خصوصًا وأبي غائب.

ـ ربنا يرجعه بالسلامة يا منيفة وجدتي حليمة منتظرة زيارتك وهناك أغرقك بالكتب والورد.

همس بكلمته الأخيرة فتلاحقت أنفاسها، هي وعيناها تهربان من عينيه، تغادر بيت معروف، لم تضيع الوقت ونظفت الطربوش وقربته من نيران الكانون الهادئة ليجف، بخرقة قماش أزالت الطين العالق بنعل الجزمة ومسحت وجهها، كادت تتزحلق وخطواتها متسارعة أمام الباب ناولته الجزمة والطربوش ودون كلمة عادت إلى البيت وأغلقت الباب، صعدت السطح فقابلتها مريم ببشاشة..

ـ أما أنك جريئة يا منيفة.

قالتها مريم وهي تقدم قرصة صغيرة لصديقتها، تجلسان متقابلتين على حافة الزيار، فأطرقت منيفة رأسها..

ـ لأني مسحت طربوش الأستاذ عبيد ولمعت جزمته؟!

ـ لأنك تكلمت معه.

ـ عبيد معرفة قدَيمة لأبي وجدي، وجدته الهانم زارتنا ووعدتها بزيارتها.

ـ ربنا ينجح مقاصدنا.

ـ ومقصدك مع يوسف.

ـ آه، سلمت عليه قدام الكنيسة ومشيت على طول، لولا سفره دمياط لاستلامه بضاعة الدكان لزارنا هو وأمه لـ...

ـ مبروك مقدمًا يا حبيبتي.

ـ أرجو الدنيا تهدأ ويرجع يوسف بالسلامة.

ـ ويرجع أبي يا مريم، يظهر هوجة سعد باشا تطول بعد طرده لمالطة.

كلمات متداخلة ميزت منيفة صوت جدها، اقتربت من مقدمة السطح فرآته جوار معروف، نزلت من فورها لتفتح لجدها الباب لكنه فضّل القعود ففردت له مفرش الصوف، بدورها نزلت مريم وبعد قليل فتح الباب وخرج فانوس وبين يديه صينية الشاي، القلق باد على وجه الشاب وهو يقدم الكوب، مريم أمام الباب جوار منيفة..

ـ لا تقلق يا فانوس، مسيرها تنتهي وتفتح دكانك.

ـ الليلة كسر الحرامية باب دكان جواهرجي وسرقوه.

ـ وعسكر الإنجليز؟

ـ تصدّق يا عم معروف، عسكري إنجليز واقف من بعيد وما تحرك إلا بعد ما الحرامي نهب المحل، عندها رفع مسدسه فألقى إليه الحرامي إسورة وجرى.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

ـ كله بسبب الباشا سعد.

ـ ورأيك يا فانوس لو تعرف أن البابا رفض عرض الإنجليز بحماية الكنيسة وقال له: شعب مصر واحد وحمايته لله وحده.

ـ صحيح يا فيض الله، مد يده لشيخ الأزهر ورفض عرض الإنجليز، يا سلام عليه رجل شجاع من أيام هوجة عرابي.

ـ البابا كيرلس الخامس رجل وقور ومهيب وزمان وقّع على عريضة خلع الخديو توفيق بعد تحالفه مع الإنجليز ورفض وضع الكنيسة تحت أي حماية إنجليزية، رجل موقف بصحيح ورأيه قوي، رفض عرض اللورد كرومر بمنح المدارس القبطية معونة مالية.

ـ ولو عمك تقاوي هنا لحكى لك عنه، كان مكلفه رعاية أعمدة مصابيح الكنيسة كلها وفوانيسها بالداخل.

ـ تدوم محبتكم يا عم فيض الله.

ـ عشرة عمر طويلة يا أبا الفوانيس، فاكر يا فانوس يوم طهورك، عمك فيض الله رفعك على الماجور ومعروف قطع لك وأنت ترفص برجليك وتصرخ وتشتمه وتتف عليه.

ـ أنا أشربك ماء النيل وأنت شربتني ريقك.

علت ضحكة أم فانوس وتمازجت مع ضحكة البنتين الخجلة ومريم تشير إلى أخيها في تشف، سحبت منيفة للداخل وهمست لها: ـ تريزا وأمها زارتا أمي وقالت أن يوسف نوى الإكليل على عيد القيامة.

ـ الله، ربنا يتمم على خير يا حبيبتي.

ـ اقرصيني في ركبتي لتلحقي بي في جمعتي.

قرصتها منيفة فمثلت مريم تأوهًا مرحًا وعادتا للجلسة الحميمة، فيض الله يتصنّع انبساطه بالقعدة لكن في داخله شيء من قلق لغياب تقاوي وود لو منعه من السفر أو كان أجله فيرافقه هو ومنيفة فتزور قبر أمها وبالمرة تتعرف على أولاد خالها، على كل تقاوي ما ارتاح ساعة بعد أن عجزت عن عمل المشعلجي من عشرين سنة وتزيد، ربنا يرجعك بالسلامة يا ولدي.

دخل فانوس وأمه البيت، مريم ومنيفة كعادتهما بغرفة منيفة، تحامل فيض الله على عكازه ونهض، كركبة عربة قادمة وصاحبها يدفعها لداخل باحة الربع، يمسح عرقه ويزفر في تأفف،

خطا فيض الله نحوه..
ـ خيرًا يا خميرة.
ـ لا مؤاخذة يا عم فيض الله، لا مؤاخذة يا عم معروف، عسكري إنجليزي طماع، ترع قرعة وقرعتين وأربعة ولما طالبته بالمليمين تطوح ورفع كعب البندقية وغرضه يكسر الزير.
ـ ولا يهمك يا خميرة، هات قرعتين وأربعة وخمسة ولك خمسة مليمات بحالهم.
رفع خميرة غطاء الزير الخشبي فانتشى فيض الله برائحة البوظة الفجة، بقعب فخاري عبأ قرعتين ونا ولهما للعجوزين فشربا على مهل، المرة الثانية غاصت ذراعه في جوف الزير، القرعة الخامسة أهداها معروف لفيض الله فَترعها ومسح شفتيه بكم جلبابه، استأذن خميرة في إيداع عربة البوظة جوار جدار بيت جلال ابن محمود المغلق بابه، وغادرهم على وعد بأخذها فيما بعد، التفت فيض الله لمعروف..
ـ ملأت بطني لكن...
شعر فيض الله برغبة في الغثيان فمال بوجهه إلى الجدار، قاء ما بجوفه في دفقات حارة ومعروف يهدئ منه وأتاه بكوب ماء، شرب وقاده لغرفته آخر البيت مارًا بباب حجرة منيفة المغلق عليها هي ومريم، أراحه على الأرض..
ـ ولما البوظة توجع بطنك تشربها؟
ـ قلت بدل بيرة الخواجة، افتكرت ما كنا نشربه من بوظة الشعير أيام ناظر الحربية البارودي.
ـ بلاها بيرة، بقينا جلد على عظم يا فيض الله.
ـ بعد أن كان الواحد منا يفتح عينيه طول وقوفه في نوبة الحراسة.
ـ آه على نوبات الحراسة، كنت حارسًا في فرقة الطوبجية[19] بالإسكندرية لما زميل لنا وهو يعبر الشارع صدمه أوتومبيل لواحد أوربي، بسرعة نقلناه إلى المستشفى لكنه مات.
ـ كان الخديو توفيق وقتها يقضي الصيف في سراي رأس التين.
ـ وعلى المحفّة حمل أصحابنا القتيل إلى سراي رأس التين وتعالت أصواتهم مطالبين بمعاقبة الجاني.
ـ غلطة لا تغتفر يا معروف، السراي الخديوية ما لها وقضية اصطدام عربة برجل في الشارع، حاكمهم توفيق باشا لسجن والأشغال وتم ترحيلهم إلى الخرطوم وتنكر الخديو لناظر الجهادية البارودي واعتبرها فوضى فاستقال البارودي وعين الخديو قريبه داود باشا يكن مكانه.
ـ أيام يا فيض الله، المهم أخبار تقاوي؟
ـ ربنا يرجعه على خير.
ـ لا تقلق من تأخيره، السكك مقطوعة، أيام وتلاقيه معكم.
سكت معروف ونهض منصرفًا وبقي فيض الله بحجرته، همّ أن يفتح الصندوق لكنه كره رؤية الكرباج، وأوراق الجرائد القديمة، أما الطربوش، فلا بد أن يلقي تحية المساء على الطربوش ففتح الصندوق في سرعة ورآه قابعًا في الركن، رفعه وشم البقع الدكناء، ركنه وفرد

العكاز على كتفه وكأنه بندقية ويده مفرودة بالتحية، ذرف دمعة حارة وأعاده، التقط إحدى مجلات الهلال التي تحب منيفة قراءتها فانسلت قطعة الورق المستطيلة من بين الصفحات، التقطتها أصابع فيض الله واعتدل في جلسته للصورة القديمة، القديمة جداً وهو يقف جوار حصان البكباشي قائده وتقاوي الصغير الذي لم يبلغ العاشرة يمتطي السرج..

ـ صورة جوازك من جدتي زينب.

التفت إلى منيفة الواقفة أمامه تضحك في خبث فدعاها لجواره، تأملت الصورة الباهتة من أطرافها وزاهية قليلا في الوسط، حيث يقف جدها فيض الله الشاب جوار الفرس والطفل تقاوي يقبض على اللجام، افترت شفتاه عن ابتسامة فرح لرؤيته الصورة التي قد نسيها لسنوات طويلة واحتفظت بها منيفة بين أوراق الهلال..

ـ على أيامنا ما كان فيه تصوير، جميل أنك احتفظت بها.

ـ فيك من يكتم السر؟

ـ أنت عارفة إننا أصحاب، سرك في بئر ما لها قرار.

ـ كان فيه واحد جريجي(20) معه ماكينة تصوير وصورني أنا ومريم لما كنا في الشارع.

ـ وانكشفت وجوهكم؟

ـ لحظة التصوير وبعدها رفعنا البرقع.

ـ والصورة؟

ـ مع مريم، ولو عرف أخوها يبهدل أخته.

ـ الخواجة بيلا عنده دكان للتصوير في شارع قصر النيل لو لك رغبة ممكن يلتقط الصور هناك.

ـ تمام يا فضفض يا حبيبي.

ـ زمان سمعنا أن مصورا فرنسيا التقط صورة لقصر حريم محمد علي باشا برأس التين بالإسكندرية.

ـ ممكن تكون بهتت بعد كل السنين.

ـ صحيح يا منيفة، الصورة بعد موت صاحبها تحزن عليه وتبهت ويتبقى منها خطوط متشابكة ومع مرور الزمن تتحول لورقة بيضاء.

ـ وصورة أبي؟

ـ آه، بعد حفل ترعة السويس الكبيرة، بعض المصورين الأجانب قعدوا في مصر لشهور قبل رجوعهم لبلادهم.

ـ صوروا البلد؟

ـ أصابهم هبل بمصر، كل واحد يقف خلف صندوقه، صوروا الأهرام وأبو الهول والنيل وقناطر محمد علي وجامع الحسين والسيدة والسلطان حسن والكنيسة المعلقة ومستشفى قلاوون، والمصور وسط الشارع بمصر عتيقة ويصور جامع عمرو والدكاكين والناس ملمومة حواليه، في يوم كلفني البكباشي بحراسة واحد منهم وبعد ما انتهى قرب البيت أبوك جري عندي، لا أنسى ضحكة بكباشي محمد عبيد، نزل من على فرسه وحملت

تقاوي على السرج وصوره الفرنسي عدة صور، احترقت كلها ما عدا صورته وهو على حصان محمد عبيد.

سرحت منيفة ووقعت صورة أبيها من بين أصابعها، غامت الرؤية أمامها وانشق الجدار عن فرس أبيض يمتطيه فارس يتجه نحوها ببطء، يمد عبيد يده، تتلاقى أناملهما وتتشابك الأصابع، يرفعها أمامه، يميل وجهه الوسيم عليها فتغمض عينيها وتتلاقى الشفاه، يشد مقود فرسه فتسمع نقرات حوافر الفرس المسافر بهما إلى بعيد، النقرات تعلو فيهز جدها كتفها..

ـ منيفة، افتحي الباب.

أفاقت من نوبة الشرود، قامت من فورها ولا تزال آثار اعتصار ذراعيه القويتين تشعر بضمهما، أفسحت الطريق لمعروف، وقفت لئلا يطلب جدها الشاي أو أي شيء آخر، رفع رأسه وغمز بعينه وهو يطلي كلماته بالحنو..

ـ مركوب جدك معروف محتاج يتلمع وطربوشه محتاج ينفض التراب من عليه.

جحظت عيناها عن آخرهما، سقط قلبها بين ضلوعها والتفت حول نفسها هاربة من بين مخالب ضحكة جدها الساخرة، لا يعي معروف ما يريد صاحبه من حواره مع حفيدته، أخرج زجاجة البيرة من طيات ملابسه الرثة..

ـ ولا الحاجة لبوظة خميرة ووجع البطن.

ـ شكرًا يا معروف، جاءت في الوقت المناسب، بص صورة تقاوي وهو صغير.

ـ فاكرها، لما المصور الفرنسي كان يتمشّى في الشوارع ويصور الناس.

ـ آه يا معروف، أبي رحمه الله وحده عاش من بين إخوته، وأنا ولد رجل[21]، وأوصاني لما ربنا يرزقني أسمي ولدي تقاوي على اسم واحد من أعمامه في أدندان، تزوج أربعة وأنجب أربعين، منهم من عاش ومنهم من مات لكنه كان مضرب المثل في قبيلتنا.

ـ ونفذت الوصية لأجل تكثر بذورك.

ـ وما خلف تقاوي غير منيفة وأمها راحت في الشوطة.

ـ اندفنت وسط أهلها يا فيض الله معززة مكرمة، غيرها حرقوهم بالنار؛ حتى لا ينتشر الوباء، واحمد ربنا أن زوجها سترها بيديه.

ـ الحمد لله، ربنا يرجعك يا تقاوي يا ولدي بالسلامة.

***

الطوبجية: المدفعية.

جريجي: يوناني.

ولد رجل: أي وحيد لا إخوة له.

(12)

بين نخلتين تحرث قدما عطية الأرض جيئة وذهابًا قلقًا على تأخر ابنه الأكبر ماهر، فرد أصابعه أعلى جبينه ويمم بصره لآخر الطريق، تقاوي يفترش التراب يتناوب مع عطية القلق ولا حيلة له غير الانتظار بعد ما وصلهم أن المتظاهرين في الأيام المنقضية هدموا مكبس التبن وألقوا مشاعلهم في أحواشه ومخازنه، ووصف من رأى أن السماء كلها أصحبت دخانا واشتد غيظ الإنجليز لأحتراق علف خيولهم فأطلقوا النار في كل من يرونه؛ حتى امتكث الناس في البيوت والغرف السفلية والبدروما ت، ومنهم من هرب عند أهله في القرى ومضارب العربان البعيدة، ليلة أمس تحلق حول النار أهل الناحية يستدفئون بأوارها المشتعل، وروى عليان أحد تجار موشا ما أثلج قلوب أهل البلد فقد كان في سوق الوليدية المطلة على النيل رأى البائعين يلملمون بضاعتهم ويزقون عرباتهم وسمع أن بكباشي محمد كامل رفض أمر الإنجليز بالقبض على الأهالي والطلبة المتظاهرين وفتح السلاحليك ووزع البنادق على الرجال فطاردوا الإنجليز ورموهم بالرصاص في كل شارع وحارة.

هاص رجال موشا وأتى أحدهم بطبلة وقرّبها من النار ليشد جلدها، وعلى صوتها رقص الشباب ولعبوا بالعصا، وعرضوا السفر للبندر لتأديب عسكر الإنجليز، وعند الفجر أقبل عليهم فرس يركبه شاب أصيب برصاصة في ظهره وهو على الطريق الزراعي، ارتمى من على حصانه وشخر أنفاسه الأخيرة، بعد دفنه نصحهم الكبار بعدم الخروج من البلد فلا أحد من أهل موشا أو أي بلد غامر بالذهاب إلى أسيوط، وما إصرار ماهر ابن عطية على الانتقال إلى أسيوط إلا ليبيع ما أعطاه له أبوه للخواجة متشولح الساكن بالقيسارية.

تقاوي القابض على جمار الصبر يهدئ كل ساعة من قلق نفسه على أبيه ومنيفة ويرجو ألا تضطر الظروف أيًا منهما للخروج من الربع المنعزل خلف مسجد صرغتمش العتيق، فالحارة المنزوية في أمان ولا يأتيها إلا القاصد، تتعارك الكلمات داخل صدره: لا أرحل بغير الفلوس، السفر لأسيوط من غير أي مشاكل متعب ومجهد فما بالك لو فيه حرب مع الإنجليز وأهل أسيوط فيهم عناد وشراسة ولا يتراجعون حتى بعد أن ألقت طائرات الإنجليز قنابل من السماء فدمرت البيوت وأحرقت بساتين الوليدية، وفي ديروط هاجم الثوار قطار الأقصر المتجه إلى القاهرة وقتلوا ضباط وجنود الإنجليز فأشيعت أسماؤهم ورتبهم والعيال هنا في موشا يكررون أسماء قتلى الإنجليز قائمقام بوب بك مفتش السجون والمايجور دارفز والملازم وللبي، يطبلون على علب الصفيح ويغنون: بوب بك بوب بك

محمد كامل ألقى بك
ولبي يا ولبي يا قرموط
دمك ساح في ديروط

- ديروط عطلت الدنيا...
- تكلم نفسك يا تقاوي؟
- لازم أرجع لعمك فيض الله ولبنت أختك يا عطية.

ـ ترجع إن شاء الله ومعك الخير كله.
ـ قلت لي إن لنا ميراثا غير نصيب الأرض والمواشي!
ـ أخبرك يا تقاوي لكن احذر أي إنسان يعرف غيرنا، أنا حقاني وما دامت اللقية في بيتنا يبقى أختي نجية لها فيها وأنت ومنيفة من بعدها.
ـ لقية؟!
ـ زمان عمك همّام عند عودته من الغيط فوجئ بغريب مغطى على المصطبة، قدم له واجب الضيافة وقال له الرجل قبل ما يمشي: مكان دماغك فيه لقية، احتار أبي في الكلام، وحكى لواحد من المشايخ على أنه حلم ففسّره أن في حجرة نومه يوجد كنز مدفون.
ـ وحفر وطلعه؟
ـ صبرك بالله يا تقاوي، بعد أيام حفر وحفر واشتركت معه وطلعنا أكوام وأكوام وما نالنا غير التراب وخفنا على الحيطان من الهدم.
ـ وبعد؟
ـ غيّر أبي رأيه ولام نفسه على ضياع وقته في وساوس ما لها أساس ورجع يهتم بأرضه ومواشيه.
ـ عين العقل.
ـ أنت عارف مشكلتنا مع أولاد عنتر؟
ـ عندي خبر بها.
ـ لما مات عمك همام كانت وصيته يندفن هنا في الحوش جنب أمي ونجية، بعد الجنازة، دخلت أقرأ الفاتحة عليه لاحظت هبوط الأرض تحت جدار المنامة، صراحة حفرت وقلت أطلع التراب وأردمها بالرمل لكن سن الفأس رنت على حجر، ناديت على ماهر وقفلنا علينا باب الحوش، طلعنا الرمل ووسعت النقرة، كشفنا الحجر وزحزحناه وظهرت...
ـ اللقية؟
ـ السلالم، سلالم نازلة لتحت وعلى لهب الشمع نزلنا، المقبرة جنب مقبرة عمك همام، الجثة في صندوق خشب وحاجات ما لها لازمة، والأهم وجدنا قدرين؛ في واحدة منهما قطع من الذهب وصناديق طلعت منها عروستين[22] طول الواحدة شبر.
ـ العروسة لوحدها تساوي ثروة.
ـ كفيت على الخبر ماجور وطول الوقت أسأل وأستقصى إلى أن استدليت على الخواجة متشولح، حتى أنه عرض عليّ يزور المقبرة.
ـ احذر.
ـ وهو أنا عبيط يا تقاوي؟ رفضت وعرضت عليه شراء البضاعة واتفقنا على سعر كبير لكن هاجت الهوجة وتعطلنا.
ـ كنت أحضرتهم مصر وهناك...

ـ السكة طويلة وخفت يفتشني البوليس آو تقع اللقية في يد إنجليزي وآروح في سين وجيم، لكن هنا أمان ونقدر نبيع الذهب القديم ونقبض الجنيهات بالكوم.

ابتلع عطية ريقه وعيناه تبرقان، كعادته لا يبدي تقاوي شعورًا رغم أن الفرحة لا تكاد تسعه لنصيبه وبنته في ميراث ما كان ليحلم به، هز رأسه وتردد بين جنبات صدره: كل تأخير وفيه خير.

انقلبت سعادته نقمة على المتظاهرين وتعطيل رجوعه لبيته بربع المشعلجية، وما عليه غير الصبر..

ـ الصبر، ولما أرجع بكيس الفلوس أشتري عمارة، لا أشتري كل بيوت الربع وأهدها وأضم أرضها وأبني سراي، وتبقى سراي المشعلجي.

مال بظهره وضحك فلحظ عطية انبساط زوج أخته، أهداه ابتسامة المشاركة لكن تأخر ماهر يحز في نفسه، دفن رأسه بين ذراعيه وأخذته سنة من نوم انتبه على يد تقاوي تهزه، أشار إلى أول الطريق، الشبح المقبل نحوهما دفعه لأن ينتتر من قعدته ويهب واقفا والانشراح يكاد يشطر صدره لإقبال ماهر عليهما يركب حمارًا والمكاري يجري جواره ويضرب مؤخرة الركوبة بعصا الخيزران، يقبض المكاري على الحبل الملفوف حول رقبة الحمارة، صدره ينهج، دون استئذان يرفع القلة ويشرب، يعطيه ماهر أجرته فيلف مقود الحمارة، يلتزم ماهر الصمت لحين ابتعاد المكاري، لم يستعجله أبوه وأشار إليه أن يستريح أسفل النخلة..

ـ الخواجة متشولح اشترى الـ...

زاغت عينا ماهر بين أبيه وزوج عمته وخشي أن يكون تعجل الإفصاح عن دفينة مقبرة جده همام، تهويمة رأس أبيه طمأنته وأدرك أنه حكى لزوج عمته سر الكنز.

ـ أعطاني نصف الفلوس.

ـ وبقيتها؟

ـ بعد يومين أسلمه باقي البضاعة ويسلمني بقية المبلغ.

لم ينطق عطية بكلمة وعادوا إلى البيت، أغلقوا على أنفسهم باب المنظرة، من أمارات التكدر المرسومة على وجه تقاوي شعر عطية بانطفاء حماسة زوج أخته للعودة سريعًا، أطرق تقاوي وسحابة من حنين تظلله شوقا لأبيه ومنيفة، هز رأسه وقرر البقاء يومين آخرين ربما الحال يتغير والدنيا تهدأ ويتمكن من العودة بالقطار لا على ظهر مركب كما خطط له عطية، أفاق على أصابع صهره القابضة على معصمه..

ـ تعال يا تقاوي.

انقاد له وساروا نحو باب الحوش، فناء البيت الأخير مفتاحه مع عطية، لا أحد يدخله إلا هو أو ماهر بحجة أنه مقبرة العائلة ولا يصح أن يعبث بها أحد، حرص على تعلية الجدار بعشرة مداميك أخرى وزيادة في الأمان بنى عمودًا في المنتصف مدّ عليه العروق الخشبية وألقى عليها أطنان البوص والحطب؛ ليخفي المقبرة عن عيون المتطفلين من طالعي النخل القريب من الحوش، أحكم ماهر إغلاق الباب، وبهمة رفع حزم البوص وجرّ بابًا خشبيًا فانكشفت الفوهة المظلمة، قرابة متر من الجدار زحزح حجرًا ثقيلًا وسحب قرصًا خشبيًا

مستديرًا، أشعل مصباح الزيت وخطا أمام أبيه وزوج عمته فتحسّست قدما تقاوي السلالم الحجرية.

دقيقة وكانوا في وسط الحجرة المربعة ورائحتها الزهمة تزكم أنف تقاوي فعطس، وجهه ماهر إلى آخر الجدار فشعر بانسياب تيار الهواء البارد، رفع وجهه لأعلى فأشار عطية للفتحة المستديرة.

ـ حفرها ماهر وأحاطها بألواح الخشب لأجل التهوية.

دارت عينا تقاوي ماسحًا بنظراته جنبات المقبرة والرسوم أعلى الجدران، أسفلها مواعين من الفخار وجرار فاضية، التابوت الخشبي أعلى مصطبة واطئة، بأجنة مدببة رفع ماهر الغطاء فانكشف الرأس الملفوف بشرائط الكتان، أشاح تقاوي بوجهه وشعر بانقباض مصارينه ورغبة في التجشؤ، تمالك نفسه وأبدى رغبته في الطلوع، قاده عطية وترك ابنه يعيد غطاء التابوت، بزغ رأسه من فتحة المقبرة، ألقى الباب الخشبي وأخفاه بأحزمة الحطب وأطنان البوص، ستر فتحة التهوية وركن الحجر على القرص الخشبي.

في حجرته تركه عطية ليستريح، تمدّد تقاوي وود لو اكتفى بنصيب نجية من الأرض والغلة ورجع، لكن بريق الذهب أسكت نفسه ورضي بها، عاد يفكر في الراقد بمقبرته جوار مدفن زوجته، كثيرًا ما كان يسمع من أبيه ومعروف عن نباشين قبور الفراعين، ومنهم من كان فقيرًا واغتنى، حكى أبوه عن صاحب البيت المقابل واسمه غني المشعلجي، طول الوقت يسخر من اسمه بأنه غني وهو يأكل طقة ويجوع طقتين، وبعد الكهرباء بطلت صنعته واشتغل في الفاعل يهد بيوت ويحفر أساسات، ويحمل على كتفه التراب، في يوم قصده واحد يعيش قرب الهرم في حفر بئر ماء والقصة المعروفة، تزحزح الحجر وطلعت الخبيئة، تقاسمها مع صاحب الأرض واشترى بيتا ووكالة في الغورية، وأصبح بين يوم وليلة اسمًا على مسمى.

ـ أرجع وأشتري وكالة قدام وكالتك يا غني.

انتابه النعاس فتشابكت رموشه وشفتاه تلوكان الكلمة الأخيرة: غنيييي... يشعل جذوة المصباح ويرفعه أمامه، ينفتح أمامه باب الحوش، فوهة المقبرة مضاءة، نزل السلالم ووقف أمام التابوت وغطاؤه ملقى جواره، دار في خاطره أن يبيع الميت نفسه ويقبض ثمنه ويرحل، ما إن مدّ يده إليه حتى انتصبت الجثة واليدان الملفوفتان بالكتان مفرودتان نحو رقبته، تراجع خطوات والتصق ظهره بالجدار، احتبست الكلمات في حلقه وشعور بالعطش يشرخ زوره، الجثة تنهض، تتحرك، تخطو نحوه فكاد يغشى عليه، قامة ملفوفة برداء أبيض حالت دون وصول ميت الفراعين إليه، والصوت الرفيع المألوف يردد: بينا وبينك حد الله.

انصاع الميت وعاد إلى تابوته، استدارت القامة البيضاء فابتهج تقاوي لوجه منيفة لا، إنها أمها نجية، منيفة الخالق الناطق تشبه أمها، تبتسم نجية وتمسك يده، تقوده خارج المقبرة فيرقص قلبه لكن فرحته غاضت حين نزلت به لمرقدها، تمددت ودون أن يشعر نام جوارها، استلبت إرادته، عجز عن تحريك يديه وقدميه وألجم لسانه، ضاقت أنفاسه وحجر يجثم على صدره، جهد ليزعق فارتعشت شفتاه وانفكت عقدة لسانه وعلت برطمته، انقلب من على السرير والعرق يغرق جلبابه، نهض وقعد على حافة السرير، هز رأسه وترع ما في القلة، عض

شفته للكابوس الذي عاش وقعاته المفزعة، غمغم في خفوت: ـ الله يلعنك يا عطية كان لزم تنزلني المقبرة؟!

***

عروسة: تمثال ذهب.

(13)

ودّعت نظراتهم أشجار موز جزيرة الواسطى وعطية يدعو ألا يعوقهم عائق والأهم سلامة زوج أخته وما معه من ميراث زوجته وما ينضاف عليه بعد مقابلتهم للخواجة، المركب تمخر أمواج النيل مقتربة من فم ترعة الإبراهيمية، ظلّ النوتي يضرب بالمجذافين حريصًا على قيادة المركب بمحاذاة الضفة الشرقية للنيل من ناحية ملجأ الأمريكية لليان، فرد ماهر كفه أمام عينيه فرأى الممر مفتوحًا لكن عسكر الإنجليز على القناطر، وسوس لأبيه فبرقت عيناه وهز رأسه، أمر المراكبي بالانحراف نحو البر فحوّل تابعه الدفة، ظلّ المجذافان يضربان الماء وتقاوي لا يبدي اعتراضًا على قيادة عطية للأمور، رست المركب أمام سلالم حجرية فهاتف المراكبي وشد على كتفه، صعدوا إلى البر، الطريق ضيقة والفلاحون ينتثرون في الغيطان البعيدة، مال عطية على تقاوي..

ـ الأحسن نمشي من هنا ونقابل المراكبي بعيدًا عن الخزان ويوصلنا لبر الوليدية ومن هناك...

طلقات رصاص بترت كلماته وأشار ماهر إلى بعيد حيث يطارد الإنجليز متظاهرين أول القناطر وغيرهم يتجهون نحوهم فتسارعت خطواتهم خلف عطية المتجه نحو ممشى عرضه متر منصوب على ترعة صغيرة تفصل بينهم وبين الملجأ والبيوت القليلة المحيطة به، قطعوه ووصلوا إلى بوابة مغلقة، قرع عطية الباب، بحذر انفرجت درفة الباب فأزاحها ماهر وأغلقها خلفه، ارتاب الحارس لتصرف الشاب ودارت نظراته بين الفلاحين الأكبر سنا فعاجله عطية:

ـ مسافرين وغرضنا نستريح وخفنا من رصاص الإنجليز، ممكن ماء.

قبل أن ينصرف الحارس أشار إلى غرفة جانبية ففضل عطية الالتجاء إليها إمعانًا في الابتعاد عن مرور دوريات الإنجليز أو البوليس وشغله الشاغل ألا يصطدم بهم فلو فتشوا الزكائب لاستولوا دون تردد على ما بها وإن حاول هو أو ماهر الاعتراض فالرصاص نصيبهم، دارت عينا تقاوي تستطلع البناية العالية والقلق يكسو ملامح وجهه فأراد عطية أن يؤنسه..

ـ ملجأ للأيتام بنته واحدة أمريكية اسمها لليان.

ـ دير؟

ـ لا، ملجأ فيه حجرات للبيات ومدرسة صغيرة و...

ـ ملجأ هنا في البر الشرقي؟

ـ والست مخلصة في رعاية الأيتام والأرامل وغيرهم من عوائل.

ـ تعرفها يا عطية؟

ـ من سنين نزلت موشا راكبة حمار تجمع تبرعات وتدعو الناس لزيارة الملجأ ومدها أهلنا بفلوس وغلة ودقيق.

ـ ممكن نلف فيه ونتفرج؟

ـ أسأل الخفير.

قبل أن يطلّ عطية من الباب دخل الخفير خلفه واحدة بيدها إبريق كبير وكوب تصب لهم الماء فارتووا وحاور عطية الحارس فاستأذنهم قليلا ثم عاد ووجهه يبدو عليه الموافقة، أول غرفة كانت بها أسرّة خشبية صغيرة ذات حواف عالية ومناغاة الأطفال دون العامين تتداخل، خفق قلب تقاوي لوجوه الرضع الناظرة إليه وسيدات يعتنين بهم وملاءة كل سرير نظيفة والحجرة ذات شبابيك كبيرة مفتوحة، استدار عطية وقطعوا طرقة أفضت إلى باب حجرة فاتسعت عيون تقاوي للكراسي والمناضد وأولاد يجلسون أمامهم خوجة يكتب على السبورة بقطعة طباشير، صمت المعلم فأشار له الخفير أن يواصل وتارة أخرى غادروا الحجرة..

ـ مكتب ماما لليان.

قالتها إحدى الشغالات وهي تشير إلى آخر غرفة ففاجأ تقاوي عطية وماهر برغبته في السلام على أمينة الملجأ، دخلت السيدة وأغلقت خلفها الباب وتقاوي يتهيأ لمقابلة عجوز طاعنة في السن كراهبات رآهن في الكنيسة المعلقة بمصر عتيقة، انفرجت درفة الباب وكادت الزكيبة تنفلت من بين يدي تقاوي، وقف مبهوتًا أمام الشابة الثلاثينية المرحبة بهم ملبسها كأجنبيات القاهرة وشعرها مصفف للخلف، رأى فيها شبهًا بدميانة في شبابها، سلمت عليهم جميعًا..

ـ مرحبًا يا حاج.

تارة أخرى انخطف قلب تقاوي لكلماتها القليلة ودون تردد قال: ـ عرفت أن الملجأ يقبل الهبات.

ـ صحيح يا عمنا، الملجأ يقبل التبرعات لرعاية الأيتام ولو حضرتك تحب تمر على...

ـ مررنا يا ست ليلو.

ـ لليان.

ـ عاشت الأسامي.

الزكيبة بين قدمي تقاوي، عالجت أصابعه رباطها المتين وفك عقدته، أخرج خمسة جنيهات كاملة وقدمها للسيدة لليان فتناولتها وابتسامة هادئة مطمئنة انشرح بها وجهها الطيب، بدوره سحب عطية الجوزلان من جيب الصدار وتبرع بمثل مبلغ تقاوي وقبلت السيدة وأبدت لهما انشراحًا..

ـ ربنا يرد عملكما الخيّر بأفضل منه و...

اقتحام أفراد من البوليس بتر ثناءها واصطدمت ركبتا تقاوي في بعضهما أما عطية فقبض على ذراع ابنه واحتدت ملامحه وتأهب لأي صدام، طبنجة الكونستابل مشهرة وبنادق العسكريين خلفه فوقفت رئيسة الملجأ وخطت من خلف المكتب..

ـ أهلا برجال البوليس.

ـ فيه شباب اختبأوا هنا؟

ـ أبدًا والملجأ تعرفه، ما به غير أطفال والشغالين، وأعمامنا من أهل الخير الكرماء تبرعوا للملجأ...

ـ آسفين يا مس لليان.

ـ شكرًا لجهدكم في حفظ الأمن.

قطعت السيدة لليان نظرة الشك حول ضيوفها، فدار الكونستابل حولهم وعمت عيناه عن الزكيبة، هز رأسه لوجه تقاوي الظاهر عليه كبر السن، استدار خارجًا من الحجرة تبعه حارساه، ودعتهم السيدة وعادت تهز رأسها، رغب عطية في البقاء قليلا لحين ابتعاد دورية البوليس وجاء الشاي في وقته فشربوا على مهلٍ والسيدة أمامها دفتر تراجع فيه حساباتها، نهضوا منصرفين فرافقتهم بالطرقة، عامل قصيرٍ يقف على منضدة وينفض المصباح المعلق أعلى الباب ويحاول لف شريط الكتان فينفلت من بين أصابعه، تناول تقاوي الشريط وشمّركم جلبابه، رفع ذراعيه عن آخرهما وأحكم لف شريط الكتان، فبادر العامل وجرّب إشعاله، تارة أخرى شكرتهم لليان وودعتهم حتى باب الملجأ، وعطية يهز رأسه ويردد في سره: يموت الزمار...

لم يقطع عطية الطريق إلى الكوبري الضيق وفضّل السير على طول الترعة مارين ببيوت بني مرّ إلى قرب التقاطع المؤدي إلى الطريق الزراعي لبلدة أبنوب وطريق قرى بني زيد والأكراد والطوابية وطوال الساعة وتقاوي يفكر في لليان بوجهها الودود المكتسي جدية ونفسها الهادئة تجبر أي إنسان على احترام وجودها، غير ملجأها الغريب وتخيل تقاوي أن كل هؤلاء الأولاد والصبايا ليس لهم مأوى أو أهل، دون هذا الملجأ لألقوا في الطرق ووسط الزراعات ونهشتهم ذئاب البشر.

انحرف عطية في مدق ترابي ساروا فيه دقائق إلى أن بدت حافة النيل، فجدّت خطواتهم حتى التقطوا أنفاسهم أعلى الشط، أشار عطية للمركب الراسية وفي حذر نزلوا وتقاوي تتعثر قدماه بفصوص الطين الملقاة، عادوا إلى المركب وهمّ النوتي في الابتعاد في مشقة وهو يجذف ضد جنوب سريان الماء وعطية من حين لآخر يرمق تقاوي الطيب واستبشر التوفيق بعد أن بدأ تقاوي عمله بإخراج الصدقة لإنفاقها على أبناء الملجأ.

مالت المركب نحو بر غيطان الوليدية، نقد النوتي أجرته وصعد أمام ماهر وتقاوي السلالم حتى وقفوا أسفل شجرة، ربت عطية على كتف زوج أخته..

ـ فيك الخير يا تقاوي، فكرتني بعمك همام الله يرحمه كان يخرج زكاة الزرع قبل دخوله البيت.

ـ الحمد لله وربنا يسترنا.

ـ مستورة إن شاء الله، واليوم أحقق رغبتك، معك إرث نجية ونقبض من الخواجة متشولح وأعطيك نصيبك وترجع لعم فيض الله ومنيفة بالسلامة.

ما قاله عطية هو ما أصرّ عليه تقاوي بأن يجهز صرّته وزكيبة صغيرة بها ملابسه وزاد الرحلة ويرافقهم للخواجة، ثم يرحل بما يجود به عطية من محطة أسيوط فالقطارات انتظمت بعض الشيء بعد أن أعلن عن الإفراج عن سعد باشا والكثير من رفاقه لحقوا به في مالطة استعدادًا للسفر إلى أوربا، ولو تعذرت القطارات فوابور البحر موجود، ويمكن تعطلهم بملجأ لليان في الخير، اكتروا حمارين فامتطى تقاوي أحدهما والآخر ركبه عطية خلفه ماهر بينهما زكيبة تبن، ظل المكاريان يركضان خلف الحمارين في طريق زراعي دائري طويل إلى أن بدت من بعيد البيوت ومئذنة مسجد سيدي المجذوب.

فرح صاحبا الركوبتين بالملاليم العشرة لكل واحد منهما، حمل ماهر الزكيبة، وساروا على جنب في شارع كبير معظم أبواب دكاكينه مغلقة، وحرص على الابتعاد عن علوة النصارى فالإنجليز منتشرون في المنطقة، انحرف عطية في شارع أضيق، صعدوا سلالم وساروا نحو حارة ضيقة كأزقة الحسين، باب دكان موارب المصراعين ولفافات الأقمشة مرصوصة على الرفوف، سأل ماهر عن الخواجة فقادهم الشاب اليافع إلى باب جانبي، فتحه لهم ودارت عينا تقاوي بين الصناديق الخشبية وبالات الأقمشة، تحسّس ماهر الشرشرة الحادة التي يخفيها بجيب الصدار، بينما قبضت أصابع عطية على المسدس أسفل ذراعه الشمال، رجل آخر تمشّى معهم فدلفوا من المخزن إلى غرفة لا نوافذ بها وبالوسط يربض مكتب خشبي يجلس خلفه الخواجة، نهض من فوره وخلع البرنيطة فظهرت صلعته البيضاء.

ـ أهلا وسهلا بتاسا وأهل تاسا، على فكرة يا معلم عطية، أنا زرت دير تاسا مرتين، أهلها ناس كرماء بصحيح.

لحظ تقاوي أن الخواجة وجهه باهت والنمش يرقط وجنتيه، وكلماته الممطوطة تنفث من أنفه المعقوف دون لجلجة في حروفه غير الخواجة لينوس أو توما، لزم الصمت وأدرك أن عطية أو ماهر أفهما التاجر أنهم من تاسا؛ إمعانا في إخفاء حقيقتها فالحذر واجب مع أي غريب وخصوصًا لو كان من تجار الأنتيكات القديمة، دون إضاعة المزيد من الوقت فتح الخواجة محفظة جلدية فأطلّ عطية على الجنيهات، عدها ماهر في سرعة وعزل بعضها، وضعه في كيس وربطه، قدّمه لزوج عمته فأخذه تقاوي وركنه داخل الزكيبة، بدوره فكّ عطية رباط زكيبة التبن وسحب كيس الصوف، من جوفه أخرج تمثال الذهب القصير فبرقت عينا الخواجة للمعانه، نفث دخان سيجارته، تعاركت تقاسيم وجهه الطامعة وتحرّشت أنامله بجسم العروسة المتوهج..

ـ لو عندك غيرها يا حاج أنا تحت أمرك.

ـ يسهل ربنا يا خواجة، ادع ربك أن البلد يهدأ وننبش ونبيع لك كل ما نطلعه.

ـ بالعكس يا حبيبي، الفوضى في صالحنا، كل ما كان البلد فوضى وفيه ضرب وقتل سهل علينا نهرّب كل حاجة.

ـ لأجل تجارة القماش.

ـ ومشاريع يا حبيبي، اليوم أتاجر في الأرض و...

وكأن متشولح أدرك أنه ثرثر زيادة عن اللزوم فبتر كلماته، عضّ تقاوي شفته غيظًا واجتاحته رغبة في الرجوع عن إتمام الصفقة ولو على حساب نصيب نجية منها، فسحنة الخواجة لا تختلف عن وجوه يهود الضاهر والموسكي والعتبة، جحظت عيناه لوجه الميت الذي راوده في كابوسه وكأنه غاضب على بيع ممتلكاته، أنهى وقوف عطية وقت المقايضة بعد أن أحكم ماهر وضع الفلوس داخل الزكيبة ونفض يديه من بقايا التبن، قادهم الخواجة للخارج وتارة أخرى يتحسّس ماهر المتحفز مقبض سلاحه متأهبًا لنحر أي مهاجم عليهم، ودّعهم متشولح وزيادة في إضلاله أعلن عطية أنه سيبحث عن مكاري ينقلهم إلى مرفأ الوليدية.

طلقات رصاص قريبة، يختلط صراخ السيدات بصياح الرجال المحذرين فأغلقت النوافذَ والأبواب وتعالت الصيحات، لفيف من الشباب يهرول وفي أعقابهم عسكر الإنجليز يصوّبون بنادقهم، أمام قدمي تقاوي يرتمي ولد وهو يردد: الاستقلال التام أو الموت الزؤام، بكّ الدم من فمه وحملق في الفضاء، انحنى عليه تقاوي وأراد حمله لكن قبضة عطية القوية أنهضته وجروا في الشوارع هائمين لا همّ لهم غير النجاة، تكاثر عسكر الإنجليز وتوالت رصاصاتهم نحو الشرفات والشبابيك والأبواب، ثقلت قدما تقاوي حين لمح اثنين ينهبان بضاعة دكان مفتوح، فزقه ماهر تجاه ثنية زقاق، جروا إلى أن صكت أذني تقاوي صرخة سيدة، التفت إلى حارة سد، عسكري إنجليزي ينفرد بامرأة ملفوفة بملاءة سوداء، تراكضت الدماء بعروقه ولمح عطية الشرر يتطاير من عيني زوج أخته، ألقى تقاوي الصرة والزكيبة ورمح لآخر العطفة، صفع الإنجليزي على قفاه وحين التفت لكمه على صدغه ولم يترك له فرصة ينتبه من فرط الضرب، والإنجليزي يناوشه بالسونكي، تأوه تقاوي ومال بجذعه نحو الجدار، عدل الإنجليزي وضع البندقية فهوت شرشرة ماهر على رقبة العسكري منهيّة الموقف، ركله بقدمه فغاب بجوف مجاز البيت المقابل، أمسك بمعصم زوج عمته وجروا نحو أبيه القابض على مسدسه وإصبعه على الزناد مؤمنًا انسحابهما، قرب مدخل العطفة التفت تقاوي فإذا بالسيدة تطلّ بوجهها القلق من خلف نافذة المشربية وتشير إليهم أن يختبئوا في البيت، عطية يوقن أن مقتل عسكري إنجليزي لن يمر دون تفتيش شقوق البيوت فالفرار لا بد منه.

طلقات الرصاص ابتعدت فخمّن عطية أن المهتاجين من أبناء البلد انتقلوا لضاحية بعيدة والإنجليز يطاردونهم، جفلت قدما تقاوي وتدلّى لسانه من فرط اللهاث، انداح عرقه على الجلباب، عض شفته وآهة مألومة انفلتت رغمًا عنه، دسّ يده بجلبابه، رفعها والدماء ملطخه كفه، ارتجف عطية وفي سرعة كشف جرح تقاوي، الدماء نازفة من طعنة أسفل ذراعه اليمنى، كبسها بمنديل، حمل الصرة والزكيبة ودون أن يطلب عاون ماهر زوج عمته الجريح وواصلوا الابتعاد، صهيل من جوف حارة، التفت عطية وخفق قلبه للمحنطور المركون، تسارعت خطواته وساعد تقاوي في الركوب، أمال الغطاء فحجبهم عن الأنظار، تجذّر في نفس ماهر أنه لو لم يظهر للمحنطور صاحب سيقوده بنفسه، لكن إلى أي اتجاه وهو يجهل المخرج من المدينة إلى بداية الطريق الزراعي.

أصوات رصاصات بعيدة أعقبتها رصاصات فلم يتردد ماهر، سحب القمشة وشدّ لجام الحصان هوى بها على فخذه، صهل وارتبكت قوائمه، الجلدة الثانية أجبرته على السير، من باب بيت بزغ رجلٌ فاردًا ذراعه أمام مطيته وبالأخرى يرفع العصا الغليظة مهددًا اللصوص، هوى بها فأصاب طرفها ساق عطية، شهر مسدسه أمام وجه صاحب العربة، تواجهت الوجوه فحملق تقاوي في وجه العربجي الذي أوصله لموشا أول قدومه، اصفرّ وجه الرجل وأيقن أنه ميت لا محالة فالمسدس موجه إليه وأي ضغطة على الزناد تفجر دماغه في الحال، أفلتت العصا من بين أصابعه وجمد كل منهم على حاله إلى أن فرد تقاوي كفه وأمال ذراع عطية، ابتلع العربجي ريقه وخطا نحو عربته، حدّق في منقذه، أشار إليه وكأنه تذكره من البقعة الحمراء المفترشة جلباب تقاوي أدرك عبده العربجي أنه مصاب، تجرأ وكشف عن جرحه، رفع حاجبه ودون كلمة غاب بالبيت وعاد بين يديه زجاجة سبيرتو، سحب ماهر المنديل

الغارق في الدماء، بخرقة نظف المعلم عبده مكان الجرح، تآوه تقاوي وشعر بسخونة السبيرتو على جلده..

ـ ادخلوا بيتي.

ـ لا، لازم نرجع موشا، رأيك؟

حملق العربجي في الجنيه، تارة أخرى دخل بيته وعاد ببطانية سوداء، تولى ماهر مهمة تغطية زوج عمته، استكمل عبده إمالة غطاء الحنطور الجلدي فأخفاهم، في سرعة ارتقى موضعه وقاد العربة خارجًا من الدرب الضيق إلى شارع جانبي ومنه إلى شارع كبير، استراح عطية لظهور مئذنة المسجد فأيقن بقرب مغادرة القيسارية، ما إن فارقت العربة أول الشارع حتى علا صوت الإنجليزي: ستووووووب ماااااان.

لم يلتفت العربجي وأحرقت القمشة فخذ الحصان فتراكضت سيقانه مخترقة قنطرة المجذوب والطلقات تصيب العجلات، العربة سريعة والضربات تتوالى والهروب هو الحل الأجدى للنجاة فلم تتوقف العربة إلى أن مالت نحو مدق ترابي ضيق بين الزراعات، التفت العربجي إلى الوراء وأيقن بوجوب وقف النزيف وإلا سيموت قبل وصوله البيت، قاد العربة نحو الغرب، من مرأى الجبل الرابض أدرك ماهر أنهم في الطريق إلى الجبل الغربي، الحنطور يقترب من دير العذراء مريم، لفيف من حراس الدير الشباب يوقفون العربة، أطلّ أحدهم على تقاوي وأشار لرفاقه..

ـ مصاب.

تتابعت خطوات أحدهم ليقود العربة إلى قرية دُرُنكة، في أول بيت أشار شاب فهدأ الحنطور حتى توقف، في الغرفة استقبلوا جسد تقاوي المنهك، أفندي على وجهه كمامة كشف الإصابة، مسح الدماء وطهر الشق الغائر، توقف النزيف ورفع الأفندي إبرة وخيطًا، منعه عطية فالتفت إليه الشاب..

ـ لا تخف، أنا في مدرسة طب قصر العيني.

رنت الكلمة في أذن تقاوي فجرفه الحنين إلى ميدان السيدة زينب وطاف به الشوق لمنيفة وأبيه فكز أسنانه والطبيب الشاب يطهر الجرح ويرتق الجلد، عقد ثلاث غرز، لفه بشاش أبيض وأتى شابان بالأرغفة والجبن وطبقين من البصارة، أكلوا في صمت وفضّل عطية البقاء في حماية أهل دُرُنكة لقرب الغروب ويستترون بالعتمة في طريق عودتهم غير المرتب لها لموشا.

***

(14)

كثرت قعدات رواد المقاهي المتوارية في الأزقة والحارات؛ لاختصارها عن ميادين المظاهرات والبُعد عن الإنجليز ومطاردتهم للمحتجين، أصوات الأفندية الجالسين تصخب فتؤذي أذن فيض الله، بعد أن قعد ليستريح قليلا من اللف على كعب رجله يسأل ويستقصي الأخبار من أي تاجر بالحسين أو الغورية أو الحمزاوي يكون قد أقبل من أسيوط أو حتى الصعيد بأكمله، قبالته يجلس معروف والقربة الفارغة على كتفه، يحرر طربوشه القديم من اللاسة الملفوفة حوله، يمسح ما علق عليه من غبار ويعيد تثبيته على رأسه، سئم فيض الله اجترار سيرة أعوان سعد باشا الذين لحقوا به في مالطة لمرافقته إلى باريس والتكهن بما سيواجهه هناك، حتى منطقتهم التي ظن أنها بعيدة عن بنادق الإنجليز أمست محل أنظارهم بعد أن نقل الثوار اجتماعاتهم من الأزهر المحاصر من عسكر الإنجليز إلى مسجد بن طولون ونهض كل رجل في إقامة متاريس من عربات حنطور قديمة وأحجار، واشترك الجميع في حفر خندق طويل ليعجز الإنجليز من الوصول إليهم، ولكنهم غزوا المنطقة وأطلقوا النار على المتحصنين وشاع أن غلامًا يطلق عليه ابن القباقيبي من شارع الركبية أصابته طلقة رصاص ومات عند سبيل أم عباس، ومشى في جنازته خلق ما لهم عدد، وبعدها أجبر الإنجليز الناس على رفع الأحجار وردم الحفر وحاول أحد الرجال أن يتملص من العمل فعاجله الإنجليز برصاصة أصابت كتفه فانصاع بقية أهل الناحية لسخرة الإنجليز حتى عاد الطريق لما كان عليه، التفت إلى معروف وقال في رجاء: ـ حقيقة أتمنّى لو ينفذ الناس أمر السلطان فؤاد المنشور في الوقائع المصرية وبقية الجرائد بوقف المظاهرات.

ـ وخاصة بعد أن أعلن الجنرال اللنبي الإفراج عن سعد زغلول والسماح له بالسفر إلى باريس، لكن تفتكر لو أن المصريين سمعوا كلام السلطان، مصر تتحرّر ويطلع الإنجليز منها؟

ـ نتمنى.

ـ تمنيك في غير محله يا فيض الله، يا محارب قديم في جيش عرابي، فاكر لما السلطان في أسطنبول أعلن عصيان عرابي، استغلّ الإنجليز الفرصة وكل الفرص واحتلونا، نفس الموقف لو تخلينا عن سعد باشا، يطبق الإنجليز على رقابنا.

ـ على رأيك يا معروف، والعمل؟

ـ العمل عمل ربنا و...

لم يكمل معروف كلماته فقد تابعت نظراته دخول مشهور القرداتي مرتديًا على الجلباب جاكت بذلة عسكرية قديمة ويلف حول وسطه حبلًا ليفيًا رفيعًا وعلى رأسه طاقية مقطعة فبدا في كامل قيافته، يجرّ القرد من سلسلته، يقعي بباحة القهوة، يقحم يده في عب الجلباب ويسحب كسرة خبز ويأكلها، يرفع الرق ويطبل، قبل أن يلعلع بأغنيته المعتادة يقف أحد الأفندية ويصفق: ـ الليل الليل الليل يا ميمون، اعمل نوم العازب، لا لا، عجين الفلاحة.

تتلاغط ضحكاتهم وآحدهم يلقي بعقب سيجارته نحو القرد فيتحاشاها مشهور بيده لئلا تصيب وجه رفيقه فيتغير مزاجه ولا ينفذ ما يريد فيخسر رزق يومه، مشهور يكشر فيظهر ناباه المسننان كنابي قرده ويصب كلماته عليهم: ـ عجين الفلاحة؟ الفلاحة ماتت في دنشواي، وكلنا اليوم ننتقم لها.

ـ أنت يا قرداتي تعرف تتكلم، قردك ميمون أنبه منك.

ـ ميمون؟ ما عاد اسمه ميمون، غيرت اسمه.

ـ واسمه الجديد، سعد؟

ـ لا، يا ذكي أفندي، ممنوع نتكلم عن سعد باشا، لكن مسموح لنا نتكلم عن الإنجليز، غرضك تعرف اسم القرد، اسمه الخواجة إدموند.

ـ تاجر خمور في الموسكي؟

ـ الخمورجية وتجار المزاج تعرفهم أنت، قردي يبقى الخواجة إدموند اللنبي.

تعالت ضحكات كل من بالقهوة حتى فيض الله رغم ما يقاسيه من قلق ابتسم وتحولت ابتسامته إلى ضحكة ثم قهقه حين تأمل وجه القرد المسكين وقد انقلب إلى سحنة المارشال اللنبي بوجهه المتين وأنفه المستقيم الحاد، وشاربه المهذب وحول رقبته سلسلة وينفذ ما يأمر به صاحبه القرداتي، علا صوت محروس أفندي: ـ اخرس يا جربوع، اللنبي يريد الخير للبلد، وسمح لسعد باشا السفر لباريس.

ـ الخير يا محروس أفندي، محروس بيه، محروس من العين، أي خير واللنبي نفسه من سنتين دخل القدس ويا عالم يسلمها لمن بعد أن هجرها الأتراك ووقعت تحت انتداب الإنجليز وا ليوم كا تم على أنفاسنا، الناس كا نت فر حانة بسفر سعد با شا قدّام حد يقة الأزبكية فضرب الإنجليز عليهم الرصاص وقتلوهم.

ـ ما لهم حق.

في داخل نفسه احتقر فيض الله لفيف الأفندية وهيافتهم في النظر إلى الحال من حولهم باللا مبالاة والشيخ عبد الحق ليس له كلمة غير عنده حق وما له حق، في حين يفصح القرداتي المسكين عن كارثة لم يشعر بها الكثير لانشغالهم بما يقاسيه البلد جراء الحرب مع الإنجليز، أقبل هلال أفندي وألقى السلام على القاعدين، جلس قبالة جاره وصديقه الأستاذ صليب الصامت طوال الوقت وكأنه منتظره ليستأنس بجلسته..

ـ لما الأتراك كانوا موجودين أبي ـالله يقدس روحهـ زار بيت لحم وصلى في كنيسة القيامة، لكن بعد احتلال الإنجليز الدنيا ما عاد فيها أمان.

ـ صحيح يا صليب، والموضوع له أبعاد ما يعلم بها إلا ربنا، وعد وأعلن آرثر بلفور وزير خارجية الإنجليز بيانه لروتشيلد اليهودي باعتبار فلسطين وطنا لليهود ولازم يتحقق.

ـ وفلسطين كانت أرضًا مملوكة للإنجليز ليهدوها لغيرهم؟! فلسطين ملك أصحابها، صحيح يا أخي أعطى ما لا يملك لمن لا يستحق.

هذه المرة شارك الشيخ عبد الحق خوجة اللغة العربية دون أن يكرر كلماته التي حفظها الجميع عن ظهر قلب: عنده حق، ما عنده حق، بعد كلماته الرصينة سكت واستمع لهلال أفندي: ـ تعرف عاموس أفندي ابن كوهين؟

ـ آعرفه، آمين مخازن المصلحة.
ـ غاب يومين من غير لا حسّ ولا خبر وعرفنا أنه باع شقته وسافر مع ابن عمه لفلسطين ولما جردوا المخزن كان أغلبه ناقصا.
ـ لا حول الله، رغم أنه فيه جيران يهود في حالهم والواحد منهم طول عمره مراعي لقمة عيشه، أم عاموس نفسها كان اسمها ليا على اسم زوجة النبي يعقوب، كانت صاحبة جدتي وكانت تذكرها بكل خير لتدبيرها في بيتها، وتعاونها مع جاراتها وليوم موتها ولا جارة اشتكت منها..

حوار هلال أفندي مع جاره الأستاذ صليب لقي رضا فيض الله غير بقية الأفندية وكلامهم الأناني، وفي قرارة نفسه دهش لجرأة مشهور، القرداتي مشهور يعرفه منذ أن كان يسرح مع أبيه صغيرًا ويهزهز صاجات الرق وهو يغني بكلمات مبتذلة يسخر فيها من الخديو توفيق بأنه شارك الإنجليز احتفالا بباحة قصر عابدين، أشار له فخطا نحوه وبين أصابعه الرق، ألقى فيض الله بقرش وتلاه معروف بنصف قرش، لمهم مشهور ورفع صوته المبحوح: لنبي يا لنبي يا جبان

نتانتك طلعت م الحمّام

شال الحمام حَط الحمام[23]

من مصر السعيدة للسودان

زغلول وقلبي مال إليه

أنده لُه لمّا أحتاج إليه

الله، الله عليك يا ست منيرة يا مهدية، طقطوقة حلوة غنتها في نزهة النفوس[24]، سمعتها يا محروس أفندي من العين.

ـ امش يا قرداتي يا حشّاش، ما تجيب سيرة سعد أو زغلول وإلا ينقبض علينا ويجلدنا الإنجليز.
ـ مذعور يا محروس أفندي أنت والأفنديات، زغلول يا أفنديات، عُمر المحروسة أمكم ما أكلتكم زغاليل محشيّة بالفريك.

قلب أحدهم دفتي الطاولة وآخر ألقى بالشيشة بعيدًا والمعلم حسين بدوره مبسوط من القرداتي الذي مسح بتخاذلهم الأرض، ربت فيض الله على كتف مشهور وبدوره فرد الرق أمام بقية الرواد القاعدين على كراسي ودكك القهوة..

ـ قوت القرد، أقصد قوت للنبي، أكل للمارشال، حمص لد...

ألجم لسان مشهور وتجمّدت يده الممدودة بالرق، كل القاعدين نهضوا من على كراسيهم، محروس أفندي استغلّ فرصة وجوده على طرف القهوة فنتش طربوشه وانسلّ من المطرح دون أن يشعر به أحد، ابتلع المعلم حسين ريقه وهو يقف من خلف نصبة الطلبات وأوجس في نفسه خيفة على مصير قهوته فكما سمع، الإنجليز بهدلوا قهوة الجندي وقهوة الشيشة ومحل جروبي القديم، أكيد الإنجليزيان الواقفان على قيد خطوات خلف الكابتن أتوا للقبض عليه وجلد ظهره بسبب عملة القرداتي المقطوع.

اغترف ما في الحصّالة من قروش وملاليم ليهبها لهم ويتركوه في حالة، في حين بقي فيض الله ومعروف جالسين مكانهما ولم يطرف لهما جفن، تشجّع القرداتي وأعاد كلمات أغنية منيرة المهدية، صلصلت صاجات الرق وهو يهزه أمام الإنجليز، مسح شاربه وابتسم في خبث:

ـ قوت المارشال.

ـ مارشال؟

ـ أي نعم يا خواجة، المارشال اللنبي.

قالها مشهور وهو يشير بإصبعه للقرد، شدّ السلسلة وبحركة مدربة انثنى ميمون واضعًا رأسه لأسفل وفخذيه لأعلى فشهر أمامهم مؤخرته الحمراء ولاعب ذيله الملوي فسقط قلب المعلم حسين وندم أنه لم يستعن بواحد من الفتوات يرهب نبوته عسكر الإنجليز، فيض الله أيقن أن رصاصة ستستقر في رأس ميمون المسكين، تماديًا في السخرية وضع مشهور برنيطة قديمة على رأس ميمون نكاية بهما فلم يتمالك الجنديان نفسيهما، تمايلا وعلت ضحكاتهما وهما يشيران إلى القرد وحركاته العفوية، بينما الكابتن صامت، تمالك أحدهما نفسه ورفع الطاقية العسكرية وانحنى ليقدّم بكلمات متكسرة الاحترام لقائده ذي السلسلة الصدئة: ـ كل التحية لسيدي الجنرال، أوامره وأوامر المارشالات حرمتنا من بلدنا وزوجاتنا، وتسببت في موت زملائنا.

انتصبت قامة ميمون القصيرة وأشار له مشهور بعصاه فرفع يده وفرد أصابعه تحية للجنديين، هذه المرة ابتسم الكابتن ورفع قبعته، مثّل الانحناء وما إن عاد إلى وقفته حتى انقبضت سحنته وزاد احمرار وجهه، أحد الجنديين قرّب منه كرسيًا فانهارت قامته عليه، بحذر اقترب منه الصبي فشهر الجندي الآخر بندقيته لئلا يستغل رواد القهوة الفرصة ويهجمون عليهم، نهض فيض الله وخطا نحو الكابتن، ضيق عينيه وبإصبعه فتح فمه فلحظ جفاف لسانه مع عرق جبينه، طلب كوبًا من الماء مذاب فيه الكثير من السكر، أتاه الصبي في سرعة وبيده قرّب فيض الله الكوب فشربه الكابتن في جرعات، هدأت نفسه وانتظمت أنفاسه، وشعر بعودة توازنه، عاونه رفيقه على النهوض، دارت عيناه في وجوه الواقفين وكل منهم يخشى موت القائد فلا تترك رصاصات الإنجليز شبرًا بالقهوة دون رشقه.

أدار وجهه لفيض الله وهز رأسه في رضا والعجوز ثابت، مدّ الكابتن له يده مسلمًا فاستدار فيض الله وعاد لجلوسه على الدكة، همّ أحد الجنديين بالقبض عليه فأشار له الكابتن أن يتراجع، رجع خطوة وخطوتين، وغادر المطرح فزفر المعلم حسين نفس الخلاص بعد رحيل الإنجليز، فلم يصدّق أن جولة ميمون انتهت بنجاته، ونجا القائد من نوبة مرض ستكون سببا في حرق محل رزقه، دون أن يطلب حمل مشهور قرده وابتعد وهو يدندن بأغنياته، التفت معروف لفيض الله..

ـ والله خفت عليك يا فيض الله، زمان فلاح في الطريق الزراعي سقى جنديًا إنجليزيًا فقتلوه و...

ـ لا تقلب المواجع يا معروف، الحمد لله قدّر ولطف.

يقطع حوارهما دخول الشاعر عازف الربابة، يتوسّط في قعدته إحدى الدكك ويثبت طرف الربابة بين ساقيه المتربعتين، ويميل القوس على طارة الربابة استعدادًا للعزف الذي نال رضا

المعلم حسين؛ حتى يزيل موقف القرداتي، ويستمعوا لقصة جديدة للزناتي خليفة وأبو زيد الهلالي، تنحنح الرجل وكعادة تلزمه عرّف نفسه رغم شهرته بين أصحاب المقاهي..

ـ أنا عبدون الشاعر، صلوا على شفيعكم.

تعالت الأصوات بالصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وأشرف الخلق أجمعين، لوى فيض الله عنقه لوقوف غريب خارج القهوة فأتى له صبيها بكرسي، حرّر كتفه من ثقل الخُرج وبرم شاربه، خمّن فيض الله أن يكون من أهل الصعيد بجلبا به الأزرق ذي الكم الواسع، لم يهتم ببدء غناء الشاعر ونهض من فوره خلفه معروف، ألقى التحية على الرجل وسأله في لهفة: ـ من الصعيد يا بلدينا؟

ـ من جهينة.

ـ تاجر؟

ـ غلة.

ـ مررت بأسيوط؟

ـ مرور الشؤم بعيد عنك، عدت المركب فتحة القناطر بالعافية والإنجليز في كل مطرح على البر.

ـ مسافر بمركب؟

ـ القطارات معطلة والسفر بمركب أمان.

ـ تفضل معنا للبيت والجود بالموجود.

ـ شكرًا يا حاج، الأكل وفير والحمد لله.

ـ يبقى الشاي علينا.

عاد فيض الله ومعروف لجلستهما وعبدون لا يزال يحرّك وتر القوس يمينًا ويسارًا، ولأول مرة يستمع لشاعر يتحرّى خفض صوته قدر الإمكان فيسمعه المحيطون بجلسته: يا زرع بلدي يا بخت سعدي

عليك أنادي قصدي ومرادي[25]

اقترب معروف من جاره وهمس في أذنه:

ـ لو مصمم على السفر يا فيض الله، أعرف واحد من المراكبية ممكن يوصلنا لأسيوط.

ـ يوصلنا؟

ـ أنا وأنت، متصوّر أسمح لك تسافر وحدك، رجلي على رجلك يا صاحبي.

بأصابعه قبض فيض الله على كتف رفيقه وجاره وأحاطه بنظرة امتنان وشكر، في نفسه قوي الأمل المستحصن بالعزيمة للرحيل إلى أسيوط، انتبه ليسمع ما فاته من أغنية الشاعر: يا زرع بلدي يا بخت سعدي

سعد وقال لي راجع لوطني[26]

ضرب المعلم حسين كفًا بكف وتلفت حواليه لئلا يكون أحد مرشدي الإنجليز موجودًا، في سرعة أشار للشاعر أن يتوقف وعلا صوت المعلم حسين: ـ أبو زيد الهلالي يا عمنا، احك سيرة الزناتي خليفة الله يسترنا ويسترك.

يتنحنح الرجل ويرشف من كوب الحلبة، يعيد تثبيت الربابة ويدير مفتاح وتر القوس ليشده أكثر، شرع يغني: ـ نحكي في سيرة وأكمل(27).

عرب يذكروا قبل ذلك
في سيرة عرب أقدمين
كانوا ناس يخشوا الملامة
رئيسهم أسد سبع ومتين
يسمى سعد الهلالي سلامة

قالها شاعر الربابة وهو يأكل الحروف؛ حتى لا يتنبه المعلم حسين لإضافة الاسم، يتبسّم فيض الله وينهض متوكئًا على عكازه، يترك المطرح المترع بالآهات والصيحات من محبي السيرة الهلالية، يتأبط ذراع معروف وتدب خطواتهما في تمهل وتيار من هواء بارد يرشق ظهريهما رغم بداية فصل الربيع.

***

كلمات أغنية من تأليف الشيخ يونس القاضي وغنتها سلطانة الطرب منيرة المهدية.
نزهة النفوس: مقهى أسسته المطربة منيرة المهدية بحي الأزبكية.
مقاطع من أغنية للشاعر يونس القاضي.
مقاطع من أغنية للشاعر يونس القاضي.
بداية السيرة بني هلال.

(15)

ـ يرضيك يا عم تقاوي، فانوس غرضه يصفّي الدكان.
ـ يقفل دكان المقدس فنجري؟
ـ غير وكستي المنيلة، من يومين رجع فانوس ودماغه تلف ويكلم نفسه، وشمت منه مريم حاجة غريبة ولما سألته قال أنه كان مع عشم ابن منصف.
ـ منصف أخوك.
ـ أخو الندامة بعيد عنك، وعشم ابنه مشيه بطال ولا له شغل ولا مشغلة.

تمسح دميانة دموعها وهي تشكو ابنها لفيض الله وتمد يدها بالشاي لمعروف، فمنذ أيام تعارك فانوس مع أمه طالبًا منها بيع الكردان المتبقي من ذهبها، وقرّر التخلص من لفف القماش وبقية بضاعته الكاسدة ومشاركة ابن خاله في تجارته التي لم يفصح لأمه أو أخته مريم عنها، والأكثر إجحافًا رفض طلب أم يوسف يد أخته ليوسف مؤيدًا بقوة خطبتها لعشم ابن خاله منصف، فشكته أمه أكثر من مرة ولم يستجب فانوس لطلب جارهم فيض الله بأن يسمع كلام أمه، التفت لها:

ـ ربنا يصلح حاله.
ـ ربنا يخلصني منه.
ـ لا يا دميانة، لتكون أبواب السماء مفتوحة.
ـ وربنا والعذراء مريم ما يتزوج عشم المعفرت بنتي أبدًا، وأقولها لك صراحة يا عم معروف، منصف شقيقي لكن اسم على غير مسمى، استخسر فيّ نصيبي من بيت أبي وحرمني من حقي فيه.
ـ اسمع كلام أمك يا فانوس وزوج أختك ليوسف.
ـ خالي ناصح ويطلع القرش من الحجر وعشم ابن خالي أنصح من الكل وطلب مريم وأنا وافقت ويبقى زيتنا في دقيقنا.

من جوف المجاز ألقى فانوس بكلماته المحتدة وهو جالس على الدكة، ثم خرج أمام أمه الشاكية لينهي الموقف بإعلانه عن موعد خطوبة مريم والسبب الأهم هو ألا يتدخل أحد في شئونهم وانتظر سنوح الفرصة التي واتته حين نصحه معروف فالتفت إليه وبصوت منزوع من الود ثرثر كلماته من بين الضروس:

ـ اسمع يا عم معروف، أنت جارنا ولكن طلعت أو نزلت أنت شحاذ وما يلزمنا قربتك، أملأ القدور والأزيار من الحنفية العمومية، وأنا قلت كلمة مريم لعشم يعني لعشم، كلمتي كلمة رجل لا عيل.
ـ عشم إبليس في الجنة يا فانوس، إلهي تعتم ولا يظهر لك نور.

تركهم وانصرف وهو يبرطم ولسانه يتبذأ بالشتائم، انخرطت دميانة في نوبة بكاء، مالت على معروف المندهش من سلوك ابن جاره، حاولت تقبيل يده فسحبها في سرعة..

ـ فانوس ما كانت أخلاقه منحطة.

ـ من ساعة لمته على عشم الطالح من ظهر طالح، وتعلّم يدخن الـ...
ـ الحشيش، الحشيش معبق من أنفاسه.
ـ عارفة يا عم معروف، وعشّمه أنه يشاركه في تجارة.
تتقطع كلماتها وتارة أخرى تبكي بانفطار قلبها على ابنها واستعجاله الغنى وجريان الجنيهات بين يديه، هدأت قليلا وأصرّت على الإفصاح لجاريها عما كانت تخفيه وتقاسيه من ويلات تصميم ولدها على تزويج أخته بعشم..
ـ منصف وابنه اشتغلا في بيع الأكل لقشلاق الإنجليز، عشم نفسه حرامي، زمان ضبطه حارس الجبانة يسرق توابيت الميتين ومن أيامها وأبو فانوس قبل موته قطع رجل منصف من البيت وحلف عليّ ألا أقبل مليمًا منه.
ـ الله يرحمك يا فنجري، ما دخل جوفه الحرام أبدًا.
ـ والغريبة يا عم فيض الله، يطلع ابنه يتاجر في الحرام.
ـ الحرام؟
انتظر فيض الله مزيدًا من إفصاح جارته الطيبة لكن خروج مريم مع منيفة والدموع تغرق خدي الفتاة المنكوبة شغلهم فربت فيض الله على كتفها.
ـ اطمئني يا مريم وطيبي خاطرك، والله ما يجبرك فانوس على شيء.
دخلت الفتاة بيتها ومنيفة الباكية خلفها، تبعتهما أم فانوس وبقي فيض الله مع معروف الصامت في انكسار من إهانة جارهم الطائش..
ـ شحاذ! عسكري في جيش عرابي يُقال له أنت شحاذ، ذنبي أني بعد ما كبرت أسقي الناس.
ـ ولا يهمك يا معروف، على الأقل أنت تسقي الناس وتنال أجرك مرتين، مرة ملاليم ومرة من ربك لأنك تروي العطشان، أما أنا فعاجز، وتقاوي يصرف على البيت، ربنا يرجعك يا تقاوي.
ـ ما فيه أخبار عنه؟
ـ أسابيع مرت لا حسّ ولا خبر ولولا ألم صدري ورجليّ كنت سافرت أسيوط.
ـ أسيوط خربانة يا فيض الله، بعد قتل عسكر الإنجليز في ديروط، جن جنونهم وسمعنا أنهم ضربوهم بقنابل من طيارة.
ـ وسمعت في قهوة حسين أنهم قبضوا على مأمور البندر، بكباشي اسمه محمد كامل.
ـ ينقبض على بكباشي بوليس مصري! الله يلعنهم.
صمت معروف ومطّ شفتيه، خطا نحو بيته وغاب بالداخل، عاد وبين يديه خوذة دهش فيض الله لوجودها لدى جاره، علقها معروف بمسمار مدقوق بالحائط، وقف أمام فيض الله بقامة نهشتها السنون حتى يبست، باغت جاره ونتش العكاز المائل على الجدار، ثبّت طرفه على كتفه وأغمض عينه وفتح الأخرى، صوبها نحو هدف وهمي..
ـ بوم بوم.. فاكر لما كنا في القصاصين غرب الإسماعيلية، حاصر أهلها الجنرال جراهام؟
ـ أنت كنت في القصاصين وأنا كنت في التل الكبير.

ـ يومها نزلت على الإنجليز مدافع وبنادق وذخيرة، ذبحوا الأهالي وكنت وسط الناس في الليل أضرب في الإنجليز بوم.. بوم.. وأنقل المصابين داخل البيوت، إصابة كتفي من رصاصهم، بوم.. بوم..

سكت معروف وأمام فيض الله ألقى العكاز وخطا في سرعة نحو الخوذة، اختطفها وطوّح بها بعيدًا، تدحرجت وانقلبت أمام قدمي الشاب الواقف أول الشارع، انحنى وأمسك حافة الخوذة، اعتدلت قامته فانتبه فيض الله ومعروف لوجوده، خطا نحوهما، أخذ معروف الخوذة ومد فيض الله يده..

ـ مرحبا يا أستاذ عبيد، كيف حال جدتك حليمة، والباشمهندس عصمت؟

ـ بخير.

ـ تفضل يا ولدي.

جلس عبيد على مفرش الصوف، هاجس غير مريح نهش صدر فيض الله من تلك الزيارة غير المبررة لواحد من أولاد البكوات وكونه أفصح أنه يريد معرفة ما جرى زمان أيام عرابي لم يقتنع بها فيض الله، وإن كان مجيئه لرؤية منيفة فليستعد لدرس في الأخلاق لم يهذب بمثله في سنوات عمره القليلة، عاد يتأمل الشابَ ذا وجه وسمته نعمة الرفاهية، ودار في نفسه أن جدته حليمة ذات نبل وكرم ولا تستحق أن يوبخ ابن بنتها وإنما سيترفّق في نصحه، ويلقي إليه بعتاب خفيف، كلاهما استبطأ الاستفسار فهمّا بالكلام في نفس واحد، غاب معروف في بيته والتزم فيض الله الصمت فتجاسر عبيد بتحطيمه:

ـ جدتي تسلم عليك، وتعرفك أن تليفونها اشتغل ويمكن أن...

فزّ فيض الله من قعدته، وتدلّى فكه في رغبة حقيقية للشكر، وقد أزال الخبر ما كان بنفسه من توتر مشحون بالخوف، أخيرًا يمكن إجراء اتصال بزوج بنتها روحية أو بعمدة موشا القريب من بيت همام الموشي والسؤال عن تقاوي، قبل أن يستأذنه في دخول البيت وتغيير ملابسه الرثة بأخرى أكمل عبيد:

ـ ولها طلب، ترى منيفة.

كالماء البارد نزلت كلمات عبيد فوقف فيض الله هنيهة قبل أن يدخل البيت، خلع جلبابه وغيّره بآخر نظيف، التحف بالعباءة، وأحكم لف العمامة حول رأسه، لم يعترض لوجود منيفة معه ما دام سيرافقها ولا يجوز إغضاب السيدة حليمة بعد إتاحتها الفرصة للاطمئنان على تقاوي، ومنيفة نفسها لم تخرج من الحارة الضيقة منذ أيام وضاقت نفسها وهذا المشوار يخفف عنها، استراح لهذا الخاطر المقنع، أمام بيت أم فانوس صفق بيديه..

ـ منيفة!

ـ السوارس قدام الشارع يا جد فيض الله، أنتظرك أنت والحاج معروف..

بدوره فرح السقاء بصحبة في مسيس الحاجة إليها؛ لينفض عن نفسه غبار الوحدة، أطلّت منيفة وعلى وجهها آثار انقباضات على صديقة عمرها، خبر المشوار قلب سحنتها إلى فرحة عارمة لكن العجوز اللئيم لم يفصح عن وجود عبيد بالخارج فقط أخبرها أن العربة التي أرسلتها حليمة هانم تنتظر أمام المسجد، وفي دواخل نفسه يريد أن يرى أثر مفاجأة رؤيتها لعبيد، العجوزان في المقدمة ومنيفة ببرقعها خلفهما، جفلت قدماها لعبيد الواقف أمام عجلة

العربة الأمامية، كف جدها دفعتها للقعود على الكرسي الخلفي وهو جوارها، في المنتصف معروف وأمامهم عبيد، اهتزّت العربة وعجلاتها تدوس على الأرض الحصوية، تخطت القهوة ولا يزال شاعر الربابة يتربع ويحكي حكاية الخضرة الشريفة والجازية، مرت أمام بيت ساكنة بك فتفرّسه عبيد وأبدى دهشته لبابه الموصد على الدوام رغم مشرباته الجميلة.

الكثير من الدكاكين مغلقة الأبواب وعسكر الإنجليز في كل شبر يوقفون الماشين ويفتشونهم، اغتاظ فيض الله لرؤية العسكري بالشورت القصير يصوّب البندقية في صدر رجل وحين قدم له الجوزلان نتشها منه ونهب ما بها وألقاها على الأرض، سائق السوارس يقودها في ثبات ويوجه مطيته في هدوء، منذ جلوسها ومنيفة تلعب دور المتماسكة ولم يبد عليها أي أثر لوجود عبيد مما طمأن جدها، ومن حين لآخر تتأمل ظهره خلسة وتود لو أنها تمسح طربوشه وقبل أن تعيده إليه تميل بخدها على شعره الفاحم، هزت رأسها لئلا يلمح جدها طيف تمنيها، فتنبسط ابتسامتها ثم تنقبض لوجه مريم الباكي وحلمها بالارتباط بمن تحب وفانوس قلبه كصخرة صماء أمام حياتها.

يوسف شاب جميل، رأته منيفة وهما عائدتان من السوق، قبالة دكان العطارة وقف جوار مريم وتشابكت أصابعهما فترة تبادلهما الكلمات الهامسة، تركها وعاد للتمشية على ناصية الشارع، انضمت لهما أخته تريزا فتقمص يوسف دور الحارس وهو يسير بالناحية المقابلة، إلى أن اقتحم المتظاهرون الشارع هاتفين ويلقون الطوب والزجاجات على عسكر الإنجليز المطاردين، فجرت منيفة نحو مدرستها القديمة، المدرسة السنية وأمامها وقفت الفتيات في تحد يهتفن «الاستقلال التام أو الموت الزؤام، سعد سعد يحيا سعد. ..» فاشتد ضغط الإنجليز على المتظاهرين وتراجعت الفتيات إلى سور المدرسة، ومع إطلاق الرصاص في كل اتجاه علت صرخاتهن وفوجئت منيفة بيوسف يقبض على معصم أخته تريزا ويدفعها أمامه ويبقى ليؤمن ابتعاد مريم ومنيفة فجروا جميعًا متفادين هراوات الإنجليز التي طالت عصا أحدهم رأس تريزا فساحت دماء رأسها فجن جنون يوسف وانهال بيديه على الإنجليزي، عاونت منيفة ومريم صديقتهما على الابتعاد ولحق يوسف البنات إلى أول العطفة المجاورة لربع المشعلجية، أغلقوا خلفهم باب البيت وأم يوسف انخطف نفسها لوجه تريزا السائل عليه الدماء.

كشفت مريم الجرح وطمأنتهم أنه سطحي، نظفته منيفة بالماء وربطته بشريط قماش، طلع يوسف من البيت ليطمئن الفتاتين أن الطريق آمنة فعادتا إلى الربع ودون أن تعد منيفة صديقة عمرها مريم اتفقت على ألا تحكي لأمها أو فانوس وقائع انضمامهما لبنات مدرسة السنية؛ فعقاب فانوس سيكون قاسيًا ويتخذها حجة ليسرع زواجها من عشم، أما منيفة فقد جلست ليلتها أمام جدها فيض الله وحكت له كل ما جرى وهو ما بين انبساط وتجهم كان راضيًا أنها صارحته وقرص أذنها وحذرها تكرار الاشتراك في المظاهرات ضد الإنجليز فرصاصهم غدّار.

أقحمت يدها داخل غطاء رأسها وبأناملها تحسّست موضع قرصة جدها على حلمة أذنها، التفتت إليه فرأته مثبتا ذقنه على أصابعه القابضة على عكازه، ألصقت كتفها أكثر بجدها لتستمد منه الأمان فلوى وجهه لها، أهدته ابتسامة مخفية وراء البرقع فباغتها بسحبه، انكشف وجهها للحظة ورفعت حاجبها دهشة لمداعبة جدها التي لم تتوقعها، امتقع وجهها خجلا

وعبيد الصامت طوال الوقت أرسل لها نظرة مختلسة لحظة انجلاء وجهها، أعقبها بإغماض جفنيه ليأسر ملامحها، على الفور أعادت البرقع، مال فيض الله بكتفه على جسد حفيدته وبميوعة خفية أبعدته، يميل عليها فتبعده، يتبادلان الابتسام حتى قطع مرحهما وقوف العربة أمام بيت حليمة هانم الكبير.

اطمأنّ عبيد لإغلاق البوابة الحديد للحديقة وبقاء الحارس خلفها ممسكًا بعصا غليظة، في ردهة البيت الفسيحة استقبلتهم السيدة حليمة بترحاب حميم، احتضنت منيفة وانهالت قبلاتها على خديها، التفتت إلى فيض الله ونظرة أسف على وجهها اللحيم.

ـ قلبي معك يا عم فيض الله، إن شاء الله يرجع أبو منيفة بالسلامة.

ـ شكرًا يا ستنا.

دون أن تضيع وقتًا آخر في مزيد من المجاملات قرأت ما على وجهي العجوزين من قلق، أتى عبيد بالجهاز القديم، رفعت حليمة هانم سماعة الأذن وأدارت يد المحول الجانبي في سرعة، أنصتت الآذان لأصوات الصفير المتقطع، أغلقت الخط وأدارته ثانية، علا صوت في الجانب الآخر لكن صوت الصفير حلّ محله، فيض الله يصيخ السمع آملا أن يشفي قلقه صوت من الجانب الآخر، ركنت السيدة حليمة السماعة وبدا على وجهها التأثر.

ـ مصلحة التلغراف بها أعطال، أكلف عبيد بإرسال برقية لزوج خالته روحية وهناك...

ـ لا يا ستنا، الأستاذ عبيد لا يطلع ولا يخرج من البيت.

ـ البواب.

ـ ولا البواب، إن شاء الله القطارات تنتظم وتقاوي يركب أول وابور ويرجع بالسلامة.

ـ لولا المخربون ما كان فيه أي شيء يتعطل.

علا صوت عصمت الواقف أعلى السلم متكئًا بكوعه على الدرابزين وبيده جريدة وبالأخرى سيجارة، نزل في هدوء وظلّ واقفًا كأنه يأنف الجلوس برفقة هؤلاء البسطاء من الناس ويستغرب تمسُّك حماته بمعرفتهم، التفت إليه معروف وهمّ بقول شيء لكن نظرة فيض الله منعته، تاركًا المجال لعبيد يرد على أبيه:

ـ سعد باشا وكل رجال الوفد في باريس لا نصفهم بالمخربين، طالبوا برحيل الإنجليز.

ـ كان غيرهم أشطر، الإنجليز عمرهم ما رحلوا عن بلد دافعوا عنه.

ـ الإنجليز دافعوا عن مصر يا سعادة البك، ضد من؟

ـ حموا الخديو من جرائم عرابي.

ـ عرابي حارب الإنجليز في وقت كان الشراكسة وغيرهم مرحبين بسفن الأجانب الداخلة البلد بسبب غدر دي لسبس.

ـ كلام صحيح يا جد معروف.

احتدت المناقشة بين سؤال معروف وإجابة عصمت وهو يتكلم وأنفه مرفوع ووجهه جامد وعيناه مثبتتان على ابنه وكأن لسان حاله يقول: من أنتم يا جهلة حتى يكون بيني وبينكم حوار، فيض الله الصامت رفع عكازه أمام معروف فصمت الأخير بدوره وبقي عصمت يثرثر بكلمات غير مفهومة وحليمة تحاول تهدئته إلى أن استأذن الخادم الواقف أول البهو وبيده حقيبة سفر كبيرة، دون استئذان نفث عصمت دخان سيجارته وألقى الجريدة على الكنبة

العريضة، استدار مغادرًا وعبيد خلفه ليودعه، برحيل عصمت استراحت نفس حليمة من حجر كان يجثم على صدرها وعادت تلوم نفسها أنها يومًا ما وافقت المرحوم زوجها على ارتباط ابنتها من هذا المتعجرف ثقيل الدم، وبموتها ربنا رحمها من عشرته الكريهة.

في محاولة للاهتمام بضيوفها ومحو ما في نفوسهم من حنق اتسعت ابتسامتها وتارة أخرى قبّلت منيفة، ضيق فيض الله عينيه ليقرأ عنوان الجريدة «المقطم» وخبرًا في المنتصف عن بيع القطن المصري للحكومة الإنجليزية، أدرك تمامًا مدى أنانية عصمت وولائه لمصلحته الخاصة دون النظر لمصلحة بلد يتنفس هواءه، هوم برأسه في لا مبالة ووقف ليعلن انتهاء الزيارة.

ـ لا والله يا عم فيض الله، ما تمشي قبل الغداء، والأكل جاهز، لكم هنا مع عبيد وأنا ومنيفة نأكل بعيدًا عنكم.

استراح فيض الله لرفقة منيفة للسيدة الكريمة، التقط عبيد أنفاسه ودعاهم إلى الطعام، أزالت أصناف الأكل ما في نفس معروف من امتعاض على عصمت ورأيه في أحوال البلد، لأول مرة يقعد على كرسي وثير أمامه منضدة وأطباق متنوعة وفي الوسط صينية فاكهة تنتظر انتهاءهم.

ابتسامة معتذرة طفت على وجه الشاب المهذب من جراء حوار أبيه المخالف له على الدوام، فهز فيض الله رأسه كأنه يقبل أسفه، كعادته يكتفي فيض الله بالقليل، انتظر معروف وتارة أخرى لمح تأثرًا على قسمات وجه عبيد وهذه المرة تكلم الشاب في رجاء حقيقي:

ـ جد فيض الله، لو سمحت غرضي أسمع منك ومن جدي معروف، تكشف لي عن حقيقة يحاول الإنجليز وأعوانهم في أيامنا نشرها عن حرب عرابي.

ـ في أيامنا؟! يا ولدي، من أول ما نووا احتلالنا ومحاولاتهم مستمرة لقلب الحقائق، مصر ما فيها أمان للأجانب، الأسطول الإنجليزي لحماية رعاياهم ولحماية الخديو، عرابي عصى السلطان وخالف أوامر الحضرة الخديوية، طلبة عصمت مجرم، وخنفس مسالم متعاون، محمد عبيد خائن، عبد الله النديم كذاب، البارودي ضعيف الشخصية، الخديو محمد توفيق على حق وعرابي خاطئ، الشراكسة أفضل من المصريين...

اتسعت عينا عبيد لكل ما ذكر فيض الله ومعروف من أسماء، فمعروف يذكر اسمًا وفيض الله يوافيه بتاليه.

ـ وتعرف كل من ذكرت يا جد فيض الله؟

ـ تحسبني من الجاهلين يا أستاذ؟ أنا تعلمت في الأزهر وقرأت كتبًا وصحفًا (أشار إلى المقطم) وجرنال يعقوب صروف وشاهين مكاريوس وفارس نمر وجريدتهم المقطم طول الوقت تدعو لقبول الإنجليز وأن من مصلحتنا وجودهم لحمايتنا وتثبط أي محاولة للثورة ضدهم.

ـ أنا عن نفسي أحب الهلال وأقرأ المؤيد.

ارتفع حاجب فيض الله وافترت شفتاه عن ابتسامة إعجاب ورضاء عن الشاب المستنير وقرر مع معروف البقاء وقتًا؛ ليجيب عما يدور في ذهنه ورسخ في نفسه بذل كل الجهد لتوضيح ما دار حول عرابي من أكاذيب وهو الذي عاش الهوجة من أولها لآخرها.

***

(16)

ـ قلت لي يا جد فيض الله أن محمد عبيد فك أسر عرابي من سجن عابدين.
ـ حصل، وأنا فتحت الباب بنفسي لعرابي.
ـ وبعدها؟
ـ الأميرالاي[28] عبد العال حلمي عرف بسجن عرابي وكان في طرة، فاستعد لنجدتهم ولما حضر خورشيد بك نعمان بصحبة ياور الخديو قام البكباشي خضر أفندي خضر باعتقالهم وقاد الجند إلى قصر النيل، وهناك تأكدوا من الإفراج عن عرابي وأصحابه وخطب عرابي فيهم ومدح شجاعتهم في الإفراج عنه، لكن الخديو اجتمع برجاله للتشاور فيما حدث في قصر النيل وأشار عليه وزير الأوقاف محمود سامي البارودي بالاستجابة لطلب الجند.
ـ وطلبات الجند؟
ـ صحب البارودي خيري باشا رئيس الديوان الخديو لمقابلة عرابي فطلبوا عزل عثمان رفقي ناظر الحربية الشركسي فاستقال وعين الخديو محمود سامي البارودي مكانه.
ـ والبارودي أصلح الجيش؟
ـ عمل كل ما يقدر عليه، زادت مرتباتنا، والعسكري منا كان يدفع نصف الأجرة في السكة الحديد، وطبخ لنا اللحم والأرز بالمبن بدل العدس والفول، وصرف للجنود السودانيين شراب البوظة كمألوف عادتهم.

هذه المرة أجاب معروف عن السؤال الأخير بعد أن رأى ارتخاء جفون فيض الله، طلب من عبيد كوبا من الماء، وما إن ابتعد حتى أخرج الزجاجة من جيب جلبابه فاتسعت عينا فيض الله ورفعها على فمه وشرب عدة جرعات، استنشق نفسًا عميقًا أعاد له نشاطه، خبأ الزجاجة الصغيرة وتناول كوب الماء من يد عبيد..

ـ غرضي أعرف، عرابي كان ضد الخديو توفيق على الدوام؟
ـ لا، بالعكس، أقام البارودي حفلة في ديوان الجهادية بقصر النيل ابتهاجًا بزيادة رواتب الضباط والجند، ودعا الضباط إلى الخضوع لأوامر الحضرة الخديوية وعرابي نفسه مدح رياض باشا وحكومته ونسب كل الإصلاحات إلى همة الجناب الخديوية ودعا بطول بقاء الخديو ويعززه برجال حكومته ويمتع البلاد بأحكامه العادلة وأن يحفظ الله الحضرة الخديوية.
ـ معقول يكون شعور عرابي تجاه الخديو راقيًا وبعدها...
ـ بعدها أنا حكيت لك عنه، استقال البارودي بعد حكاية موت جندي الطوبجية في الإسكندرية.
ـ افتكرت.

ـ وتوقع عرابي الشر من الخديو بعد تعيين صهره داود باشا يكن مكان البارودي ونهى داود باشا عن اجتماعات الضباط.

أطبقت شفتا فيض الله مفسحًا لمعروف كي يروي هو الآخر ما يختزن بين تلافيف ذاكرته، مال برأسه إلى الوراء ولم يشعر بنهوض عبيد وخروجه من الغرفة يتبعه معروف الذي طلب الحمّام، أغمض فيض الله عينيه ونقرات حوافر الحصان تدق ذاكرته للفارس المقبل على أورطة الجند فانتظموا في وقفتهم وأدّى معهم التحية للقائد بكباشي محمد عبيد الذي رفع صوته الجهوري بأنهم يلزم عليهم التحرّك تجاه سراي عابدين، ومن حين لآخر يتبادل فيض الله حوارًا مبتورًا مع زملائه السائرين جواره من أن الخديو الخبيث يريد تفريق قادة الجيش، فجعل داود باشا يكن يصدر أوامره بنقل آلاي القلعة إلى الإسكندرية، فخاف الضباط من هذا التغيير غير المبرر ورفضوا تنفيذه واتفقوا على انتظام فرق الجيش في ميدان عابدين لعرض مطالبهم على الخديو وها هو يسير وسط زملائه، ووقفوا فجأة بجانب الميدان فمدّ بصره فوجد آلاي السواري[29] بقيادة أحمد بك عبد الغفار وصل، بعد قليل اتجهت كل الأنظار للفرس وراكبه يشهر سيفه وتهامس الجند عرابي.. عرابي..

عرابي يقود آلاي العباسية وإسماعيل بك صبري معه بآلاي الطوبجية وبطاريات المدافع تتخلل أورطة المشاة أثناء السير، انتظمت فرق الجيش المدفعية والفرسان والمشاة وخلفهم آلاي القلعة والآلاي السوداني حضر من طرة يتقدمه عبد العال بك حلمي وأورطة المستحفظين، رفع رأسه وطافت نظراته ليرى جموع الناس حول فرق الجيش وانفتحت نوافذ البيوت المجاورة للسراي وتجمع الناس فوق سطوح البيوت للفرجة على الجيش، بعد قليل رأى الخديو محمد توفيق نازلا حوله حرسه الخاص والمستر كوكسن قنصل الإنجليز والسير أوكلن كولفن.

من بعيد سمعوا الخديو يطلب عرابي فتقدم نحوه حوله ثلاثون ضابطا شاهرين سيوفهم فعلا صوت أحد الحرس أن يغمدوا سيوفهم فسمعوا صوت السيوف وهي تعود لأغمادها، الصوت بعيد وبعض الكلمات تواترت إلى سمعه بأن الخديو طلب من الضباط العودة إلى بلوكاتهم فثبتوا مكانهم حول عرابي منتظرين عرضه لما جاء من أجله، لم يسمع سؤال الخديو وأرهف السمع لصوت عرابي وهو يجيب: «جئنا يا مولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة...».

لغط وحوار متداخل أخفى بقية ما كان يقوله الخديو لعرابي حتى رأى الخديو يرجع إلى داخل السراي وسط حرسه ومستشاريه فعلت الأصوات بين الجنود حتى أن كل قائد طلب من أفراد فرقته الصمت فقد خرج من السراي المستر كوكسن ومعه السير أوكلن كولفن فقد أرسلهما توفيق للحوار مع عرابي بدلا منه فقال لعرابي «إن عزل الوزارة من اختصاص الخديو وطلب تشكيل مجلس النواب ليس من حقوق الجهادية، وزيادة الجيش لا لزوم لها لأن مالية الحكومة لا تساع على ذلك».

التزم المحتشدون الصمت منتظرين رد عرابي على ما قاله المستشار الإنجليزي، ولم يجعله عرابي ينتظر فقال: ـ «اعلم يا حضرة القنصل أن طلباتي المتعلقة بالأهالي لم أعمد إليها إلا لأنهم أقاموني نائبا عنهم في تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن إخوانهم وأولادهم فهم القوة التي ننفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة...».

تارة أخرى تداخلت الأصوات فلم يستطع أن يسمع بقية حوار عرابي مع القنصل مستر كوكسن الذي عاد بعد قليل وغاب داخل السراي وظلت فرق الجيش بعابدين إلى أن أعلن عن تعيين شريف باشا رئيسًا للحكومة وأنهم أرسلوا له تلغرافا ليأتي من الإسكندرية، احتبست أنفاس الجند والضباط وهم يرون عرابي يتوجه داخل السراي وخشوا عليه من غدر الخديو، لكنه خرج وتحدث مع قادة الجند وأمر بعودة الآلايات إلى مراكزهم ما عدا آلاي طرة وقائده عبد العال بك حلمي في ضيافة آلاي الحرس بقشلاق عابدين وأثناء العودة تداول مع رفاقه أن عرابي وهو بالسراي شكر استجابة الخديو لمطالب الأمة، فأقسم الخديو أنه مرتاح لما فعل وأنه وافق على هذه الطلبات بنية صادقة فكرر عرابي الشكر والدعاء له.

ـ ما لك يا فيض الله، نمت؟

استفاق فيض الله على صوت معروف فتلفت حوله ليجد السيدة حليمة ومنيفة جالستين قبالته وعبيد ومعروف جواره، تلفت حوله كغريق انتشل من بحر الذكريات، ابتسامة مقتضبة ارتسمت على وجهه..

ـ تذكرت تجمع الجيش في عابدين، في يوم أحكي لك يا عبيد عنها.

ـ حكت لي جدتي حليمة تفاصيل يوم تسعة سبتمبر سنة واحد وثمانين.

ـ لما عرفنا أن الجيش كله ناحية عابدين في سرعة أوصلني أبي لبيت واحدة صاحبتي تسكن قرب سراي عابدين وشفت كل حاجة هناك كانت سني وقتها عشرين أو واحد وعشرين تقريبا وللّيوم محتفظة بالوقائع المصرية، افتح يا عبيد خزانة الكتب و...

ـ أعرف يا جدتي مكان الجرائد القديمة.

أسرعت خطوات عبيد وعاد وبين يديه كيس كتاني متسع، أخرج منه صحفًا أوراقها صفراء داكنة وأطرافها ملتوية، قلبت السيدة حليمة وسحبت إحداها، حذرت عبيد في التعامل مع الأوراق القديمة، فرد الجريدة وبدأ يقرأ: «الوقائع المصرية عدد الأحد 11 سبتمبر سنة 1881 «في ليلة السبت 16 شوال سنة 1289 من الهجرة 10 سبتمبر سنة 1881 استعفت نظارة دولتلو رياض باشا فقبل استعفاؤها وكلف دولتلو شريف باشا بتشكيل نظارة جديدة».

ـ كلامك صحيح يا ستنا حليمة، وأرجو السماح لنا بالعودة، الليل ليّل.

ـ نتعشّى يا عم فيض الله.

ـ وبعد كل الأكل فيه مكان للعشاء؟!

تبادلوا الضحكات ومنيفة الساكتة طوال الوقت تختلس النظرات لعبيد وهي غاية في السعادة للساعات التي لم تحسب أنها ستعيش دقائقها بكل ما فيها من قرب للسيدة حليمة وعبيد ومع جديها فيض الله وجارهم معروف، ولو أن تليفون البيت تواصل مع أسيوط واطمأنوا على أبيها لكانت الزيارة قد اكتملت لكنها مبسوطة ومن حين لآخر تتحسس زهرة أهداها لها عبيد وبيدها الأخرى عدة مجلات وصحف لفتت نظر جدها فيض الله فأجابت عن نظراته المتسائلة: ـ الهلال والمؤيد أهداهم لي الأستاذ عبيد.

ـ أنت قلت لي يا جد فيض الله أنك كنت مع فرقة البكباشي محمد عبيد.

ـ وعمك معروف كان مساعدًا في أورطة السودانية.

ـ أنا مستعد أكتب كل ما تقوله عن وقعة الإسكندرية وحرب كفر الدوار.

ـ في يوم تشرفنا بالزيارة في الربع وأحكي لك وفيه حاجة يهمني آن تراها.
انشرح وجه عبيد وتعهد بسرعة زيارة فيض الله، تسارعت خطواته خارجًا من البوابة الحديد ، أول من تقدمت نحو الباب كانت منيفة خلفها معروف وعبيد الواقف بالشارع يستدعي العربجي لتوصيلهم السيدة زينب، أوقفت حليمة فيض الله ورجته ألا يتضايق من التزام عبيد به أيامًا ليعرف سيرة عرابي ممن عاشوا الهوجة..
ـ عبيد كمنيفة يشرف بيتنا المتواضع في أي وقت.
ـ الشرف لنا يا عم فيض الله.
ـ العفو يا ستنا الكريمة والله ما رأيت إنسانة متواضعة مثلك.
ـ أنا مصرية يا عم فيض الله وكون أبي زوجني واحدًا من الشراكسة فلا أتنكر لأي إنسان من بلدي.
ـ أصيلة يا ست حليمة.
ـ أنت فضلك عليّ كبير يا عم فيض الله، أدين لك بحياتي كلها، وعبيد أريده يتعلم منك وهو ولد متواضع وأحسنت أمه الله يرحمها تربيته.
ـ أكيد.
ـ وربنا يهيئ له شريكة حياة صالحة وشرطت عليه يبعد عن بنات الشركس ومناخيرهم المتكبرة.
ـ ربنا يسعده، نستأذنكم.
ـ مع ألف سلامة يا عم فيض الله وربنا يطمئنك على تقاوي.
يعاونه عبيد على صعود السوارس وبضربة من القمشة تتسارع خطوات الفرس، تودّع نظرات معروف البيت الكريم وما ذاق فيه من حلاوة العز، منيفة تزم الصحف إلى صدرها وأنا ملها تتحسس بتلاتت الزهرة النا عمة، فيض الله يأسف لانقطاع الاتصال وعدم تمكنه من الاطمئنان على تقاوي ويتمنّى في قرارة نفسه أن يكون بالبيت عندما يعود.

***

الأميرالاي: رتبة بالجيش = عميد.
السواري: الفرسان.

(17)

عاون فيض الله منيفة على النزول، رفع قرشًا للسائق ففرد كفه أمامه ممتنعًا عن أخذه أمارة أن الأجرة وصلت، ترافقا متأبطين إلى داخل الربع في حين استأذن معروف في البقاء ساعة بقهوة المعلم حسين المنزوية، يكتنفها الهدوء من صخب القرداتي أو شاعر الربابة، فقط روادها من أهل الناحية أو غرباء قليلون، ثبت كعب قدمه على حافة الدكة وعلى ركبته فرد ذراعه، أتاه صبي القهوة بالجوزة، أقحم مبسم ماسورة الغاب بفمه وظلّ يرضع مستمتعًا بالدخان الخارج من منخريه حتى بردت جمار الحجر فصفق ليأتيه الصبي بحجر آخر..

ـ يا ولد، النار خسعة.

على دكتين متقابلتين خلفه مباشرة جلس رجلان، وطلبا الشاي، لم يبال معروف بحوارهما بل أغمض عينيه مستلذًا بخدر خفيف يسري بدماغه، تباعدت رموشه فجأة لصوت الجالس خلفه: ـ اصبر يا معلم حسنين، فانوس ابن اختي صفّى الدكان ونصيبه يستر معنا.

ـ لكن احذر التأخير وإلا البضاعة تكون من نصيب غيرك يا منصف، أنت صاحبي لكن المصلحة تحكم.

ـ الليلة أو في الصبح فلوسك كاملة تكون عندك، غير أن عشم طمعان يخطب مريم وممكن تبيع أختي دميانة البيت ونصيبنا في كل عملية يزيد.

ـ يا سيدي ألف مبروك مقدمًا وربنا يتمم على خير.

ـ يتمم وكل حاجة تبقى عال العال.

اتسعت عينا معروف لرنين أسماء جيرانه، نفض ما في نفسه من سرحان وتردد حوار الرجلين، دار في خاطره أن يلتفت إلى منصف ويصفعه على خططه في تشريد أخته وأولادها لصالح طمعه في فلوس الدكان وبيت زوجها فنجري، تراجع في آخر لحظة وبمكر الجندي القديم أمال رأسه إلى الوراء أكثر ليستمع لحوارهما الخفيض؛ وحتى يحتج به أمام فانوس اللاهي عما يحوم حوله من خطر تصفية تجارته في الأقمشة الآن والتخطيط لبيع بيت أبيه فيما بعد، غير المسكينة مريم وخطة السفيه عشم مفسود النية لافتراس براءتها بزواج وراؤه طمع، لا والله لا يحدث لجارتي دميانة الطيبة ودينها معلق برقبتي.

دارت الكلمات بذهن معروف فسافر بذاكرته لأيام إصابته بحمى كادت تفتك به فما كان من جيرانه فيض الله وتقاوي والمقدس فنجري الكريم غير تطبيبه، أما أم فانوس نفسها فكانت تغطس خرق القماش في الماء البارد وتفرده على جبينه وذراعيه وقدميه غير تعهدها له بالمسلوق والشوربة والخضراوات إلى أن استرد عافيته وعاد لملء قربه بالماء.

ليدعم موقف جارته سيروي لها ما سمعه من أخيها منصف وتاجر الحشيش، لكن فانوس لا يطيق كلامه، إذن سيفصح لفيض الله بكل ما سمع ويسمع وهو بدوره يخبر دميانة و...

ـ والبوليس والإنجليز يا معلم حسنين؟

ـ منشغلين في الجري هنا وهنا وملاحقة المتظاهرين، وواحد من الفتوات دفعت له ليحمينا إن لزم الأمر.

ـ يعني البلد في حالة فوضى.
ـ والفوضى في صالحنا.
ـ صحيح، كل ما كان فيه فوضى سهلت تجارة المزاج.
ـ والناس يا حلاوة غرضها تنسى.
ـ عليك نور.
ـ وعليك فلوس لازم تدفعها يا معلم منصف.
عند ا لكلمة الأخيرة نحّى معروف ا لجوزة و تمالك نفس ه وهو يلتفت لل رجلين لي رى سحنتيهما، تصنع التثاؤب وفرد ذراعيه عن آخرهما وهو يتفرّس في هيأتهما كي يصفهما بكل دقة، عاد إلى الربع وبيوته الغارقة في عتمات الليل، فيض الله يقعد على المصطبة، سأل عن أم فانوس فأجابه بأنه لم يرها ومنيفة عند مريم.

***

تربت منيفة على كتف مريم وتطيب خاطرها ثم حضنتها فكفكفت الفتاة دموعها وبرفق أبعدت صديقة عمرها، ابتسامة حلوة تربعت على وجه مريم وهي تسأل صديقتها: ـ وأخبار من كنت عندهم؟
ـ السَت حليمة طيبة وحنونة وعطف الدنيا فيها وتعاملني كبنتها.
ـ و...
قبل أن تكمل مريم كلمتها نادت عليها أمها فهبت واقفة وتركت منيفة بمفردها في الغرفة، مالت بوجهها يمينًا ويسارًا ولما اطمأنت لعدم وجود أي مخلوق تمادت في الأمان وأغلقت باب الحجرة، دست يدها داخل صدرها وبرفق سحبت زهرة لا تزال محتفظة برونقها، قربتها من أنفها وتنشقت رائحة عبيد الذي اقترب منها في الفراندة وأشار إلى ما بالأصيص..
ـ زهرة اللالا أو التوليب وهنا يسمونها زهرة اللعلع معشوقة الناس في أسطنبول.
ـ منظرها بديع ورائحتها جميلة.
ـ هدية مني لك.
قلبها ترتجف دقَاته، دفء كفه المضمومة على أصابعها هو ما سرى بكيانها الذي يكاد يطير كعصافير أشجار الحديقة، كافأته بالرضاء عن مغامرته وبقاء يدها بين كفيه الحميمين، أرسل نظراته تتوسّل لعينيها الصافيتين فاستجابت وتلاقت رسائلهما الصامتة، وحين همّت بإعلامه أنه تمادى مال على كفها ووشم يدها بشفتيه، انفرجت كفاه وبقية من دفء هدأ ارتعاشة أصابعها، خطوات جدته المقبلة ألجأته إلى التراجع خطوة ونظرته الأخيرة تلقت منها وعدًا ستفكر فيه حين تختلي بنفسها بالبيت.
ـ سرحت؟
ـ لا، أخيرًا زال هم وجهك.
ـ أمي مع جد فيض الله وجد معروف وسمعت طرطشة كلام بأن عندها تموت ولا تزوجني لابن خالي الفاسد ويكون على جثتها رغبة فانوس.
ـ تعالي نسمعهم قبل رجوعي البيت.

ـ المهم يا دميانة آنا حكيت لك يا آختي عن حوار منصف مع التاجر، وفيض الله بعد ربنا شاهد عليّ.
ـ صادق يا معروف، والغريبة أن فانوس يقول نزوج مريم لعشم ونبقى أنا وخالي منصف خالطين، وخاله خال طين.
ـ ربنا يصلح حاله.
ـ لو مشى في طريق السوء يبقى ربنا يطلع روحه من بدنه.
تحت ضغط إلحاح فانوس وعدم تفاهمه تضعف أمه حين تتحاور عنه فتبكي وتنتحب وتترحم على روح أبيه الطيب، تستدير وتكمل بكاءها بمجاز البيت والبنتان تحاولان تهدئتها، اتكأ فيض الله بذقنه على قبضته الممسكة بالعكاز وشاركه معروف الصمت، أصوات بعيدة دفعتهما للانتباه؛ طلقة رصاص أجبرت فيض الله على الوقوف، جلجلة، دبدبة وأصوات أخرى قادمة من خارج الشارع مقتحمة ممر الربع الضيق فأوجس فيض الله في نفسه خيفة من أن يكون السرّاق والكثير من النهابين يستغلون فرصة انعدام الأمن ويقتحمون الدكاكين والحواري والبيوت لسرقتها، رفع معروف شومته مستعداً لقتال غازي ربعهم، العربة المدفوعة تقتحم الباحة الضيقة وشبح رجل محني الظهر يزيحها للأمام، على ضوء فانوس بيت معروف المضاء تتبين هيئة خميرة المائل بجسده على الجدار وأنفاسه تكاد تنقطع من فرط اللهاث، يناوله معروف قلة الماء فيشيح بذراعه ويميل ليتأكد أن أحداً لا يطارده، يتبين فيض الله زير البوظة المكسور والرجل لا حول له ولا قوة..
ـ خيرًا يا خميرة؟
ـ لا خير يا عم فيض الله، عسكري إنجليزي أوقفني، اتهمني أني أخفي السلاح ببطن الزير ولما اعترضت كسره بكعب البندقية.
ـ المهم، أنت مصاب؟
ـ لا، بعد كسرهم للزير واحد منهم ضرب على العربة رصاصة ورفع صوته: هاري أب.. وضحكوا وأنا أجري من قدامهم، ساعة أستريح وبعدها أرجع البيت.
ـ لا تطلع ولا ترجع، تبات معي والصبح ارجع بيتك.
ابتلع خميرة ريقه ووجدها أنسب لينال الراحة بعد عناء يوم في اللف والدوران على كعب رجله وختم يومه بتفتيش الإنجليز وكسر مصدر رزقه ولا يدري كيف يعوض الزير القديم العزيز على نفسه، قاده معروف إلى بيته وجهز له الفرش والغطاء، تمدد وأراح رأسه على حشية الليف إلى أن أتى لهم فيض الله بعشاء جهزته منيفة، في أثناء تناولهم لقيمات الخبز بالعسل والجبن سأله معروف: ـ وأخبار الدنيا يا خميرة؟
ـ كل الناس مغتاظة من وحشية الإنجليز في قرية العزيزية والبدرشين بالجيزة.
ـ قصدك تقول مظاهرات خمسة وعشرين مارس الماضي.
ـ ما كانت مظاهرات يا عم فيض الله، أورطة كاملة من عسكر الإنجليز قالوا مائتين أو تزيد هاجمت البلدين بالأسلحة، أحاطوا بيت العمدة، وطلبوا منه كل ما عنده من سلاح، ونهبوا أساور وخواتم وكرادين الحريم والماشية من زريبة كل بيت، وأحرقوا البيوت وقتلوا الناس هناك، وقبلها بيومين دخل قطار مسلح ميت القرشي وتظاهر الناس بالقرب

منه والناس هناك أقسمت أنهم ما رفعوا أي سلاح لكن المجرمين قتلوا ابن العمدة برصاصهم وضربوا الفلاحين بمدافعهم الرشاشة وحصدوا أرواح مائة من أهل ميت القرشي الطيبين.

ـ الله يلعنهم في كل مكان وزمان، أهل البلاد من الفلاحين ما لهم ذنب.

ـ والأخبار في الحسين والسيدة نفيسة وغيرهما؟

ـ كنت قدام جامع الحسين في الصبح والإنجليز أوقفوا شابًا يوزع ورقًا على الناس ولما حاول الهرب ضربوه بالرصاص.

ـ أنت متعب يا خميرة، نم الليل وفي الصبح نحكي.

غادر فيض الله إلى بيته، أغلقه بإحكام وزاد على الضبة والمفتاح الذراع الحديدية المثبتة بالجدار فرفعها وانزرق طرفها بالحلقة، منيفة نائمة فأشعل شمعة قاده لهبها إلى حجرته، أمام تقاطع الجدارين وقف، تحسست أنامله العجفاء قوالب الطوب العريضة، تعاونت أصابعه في زحزحة قالب المنتصف وخلعه من مكانه، غابت يده بجوف الجدار العريض، سحب كيس الصوف، فك رباطه وخفق قلبه وهو يسحب الطبنجة والرصاصات لا تزال بخزانتها، قربها من أنفه وشم رائحتها..

ـ الله يرحم صاحبك، أوان استعمالك حان يا حبيبتي.

أعاد قالب الطوب لمكمنه وأبقى السلاح بين يديه فترة حتى شعر بثقل أجفانه، أعاد الطبنجة للكيس وعقد رباطه، أخفاه بصندوقه الخشبي العتيق، سحب الحرام على كل جسمه ونام.

ما بين الإغفاء والصحو يتناهى صوت قرع على الباب، نهض ونور الصباح الوليد يتسرّب من كوة بأعلى الجدار، نفض الغطاء ونهض ليفتح الباب لتقاوي ويلومه على تأخره كل هذه الأيام حتى كاد القلق يقتله، جفلت قدماه أمام الباب المغلق فالدقات متتالية لكنها ليست على بابه، فتحه ومن مواربته شاهد ظهر رجل أمام بيت الأونباشي محمود البنهاوي المجاور لبيت معروف، خرج من البيت ونسمات الصباح الباردة تصفع وجهه..

ـ من؟

التفت القادم بقامته النحيلة مواجهًا فيض الله، فاتسعت عيناه لوصول جلال ابن محمود الغائب منذ سنوات..

ـ جلال، حمدًا لله على سلامتك يا ولدي.

ـ الله يسلمك يا عم فيض الله.

تعانقا وربت كل منهما على ظهر الآخر، وتهيأ فيض الله للحمل الثقيل في إخبار جلال بمصير أبيه وتمنّى حقيقة أن يكون معروف لا يزال ببيته ليناصفه مشقة الحديث لكنه يعلم أن جاره يحمل قربة ويغيب حتى طلوع الشمس.

ـ دقيقة وأرجع لك يا جلال.

غاب فيض الله داخل بيته سحب باب الطاقة الخشبي فانخلعت درفته، عبثت أصابعه المتوترة بأشياء مهملة حتى عثر على مفتاح البيت، عاد به إلى جلال وأداره فانفتح الباب ورائحة الفراغ تفوح من جدرانه المتشققة، رفع رأسه نحو السقف فوجده متباعدا قليلا عن

الحيطان مما ينذر بأنه آيل للسقوط لولا أنه وسط بيوت الربع، التفت جلال العائد بعد طول غربة..

ـ أبي؟

ـ رحمه الله حزنه عليك كسره ومات من سنتين.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، وأمي؟

ـ صحبت زوجتك وعيالك ورجعوا بلدك بنها العسل، تعال يا ولدي استرح في بيت عمك معروف.

انصاع جلال لرأي فيض الله، دقّ الباب ففتح خميرة، ألقى عليه تحية الصباح وقدم له جارهم العائد من السفر، سحابة من وجوم أحاطت بجلال الغائب منذ خمس سنوات من بداية حرب الإنجليز مع الأتراك والألمان، تهالك على الحصير وانشغل خميرة في تجهيز الإفطار فسحب رغيفين من القفة وأخرج من البلاص قطع الجبن ومن جرة العسل دلق القليل بطبق الفخار، ببطء أفطر جلال، وترك قامته تتمدد مكانه، استراح فيض الله على المصطبة فأطلت أم فانوس، التفت إليها وأعلن: ـ جلال ابن المرحوم محمود البنهاوي رجع ونائم في بيت معروف.

ـ حمدًا لله على سلامته، يفطر؟

ـ لا، زمانه في سابع نومة ويمكن ينام طول النهار.

ـ العشاء عليّ.

ـ طول عمرك كريمة يا دميانة.

ـ العشرة ما تهون إلا على أولاد الحرام وطول عمرنا جيران وأهل يا عم فيض الله وربنا وحده يعلم أني أعزكم زيادة على أهلي.

ـ الله يكرمك.. وموضوع عشم ابن منصف؟

ـ عشم إبليس في الجنة، على جثتي لو تم، أنا مجنونة أزوج بنتي الوحيدة لعيل سفيه وأبوه المخبول يأكل مال النبي.

ـ وربنا يقدرني أنا ومعروف نلين دماغ فانوس الناشف ونمسح ما عليه من غبار.

ـ قصدك تقول دماغه المعفرت، هو مسطول وابن خاله مسطول.

دخلت بيتها وبقي فيض الله ينتظر فلم يتأخر معروف فعاد يحمل القربة على ظهره، أفرغها في الزير المركون خلف الباب وجلس جوار جاره يلتقط أنفاسه، تركه فيض الله يحشو ورقة البفرة بالقليل من التبغ ويلفها على مهل، بلسانه يبلل طرفها ويشعل، سحب أول نفس، مال عليه فيض الله..

ـ جلال ابن محمود البنهاوي رجع ونائم في بيتك، بيته مهجور وجدرانه مشققة، والأفضل يسافر لأهله في بنها، هناك أرضهم وتجارتهم.

ـ كلامك في محله يا فيض الله.

ـ المهم، ينال كفايته من الراحة وبعدها نتكلم، وأم فانوس وعدت بالعشاء.

ـ وطول مدة غيابه كان في مصر ولّا...؟

ـ فاكر يا معروف لما جلال غاب لأسابيع وأبوه سأل واستقصى وعرف أنه سافر من بورسعيد على سفينة إنجليزية.
ـ من خمس سنين وتزيد.
ـ من ساعتها وانقطعت أخباره ومحمود البنهاوي قلبه انفطر عليه ولما مات لمت أم جلال عيال ولدها وأمهم ورجعت بكرامتها لبنها.
ـ كانت حكيمة وما قبلت مساعدة منا وفضلت تعيش وسط أهلها وأهل زوجها على أن تتلطم.
ـ ولما يقوم يحكي لنا.

***

(18)

كما توقع فيض الله ظلّ جلال نائمًا طيلة نهاره إلى بعد أذان العصر بساعة، الشمس اشتدت حرارتها فلاذ فيض الله بحجرته الباردة، يتمدّد ساعة ويقلب في أشياء الصندوق، عاد يعتصر تفكيره في غياب تقاوي وانقطاع أخباره رغم الكف عن المظاهرات لأيام ورجعت الحياة للشوارع والدكاكين، منيفة منشغلة في غسيل الملابس ونشرها على الحبال بالسطح، وتوضيب البيت وترتيب أشيائه وكنس الأرضية ورشها بالماء وترفو جلاليب جدها المفتقة وحين تختلي بنفسها تشم زهرة التوليب وتقرأ حكاية للمنفلوطي بجريدة المؤيد، وتقلب في مجلة الهلال، عادت لقراءة قصة (جهاد المحبين) لصاحب دار الهلال جورجي زيدان، ووضعت خطا تحت عدة كلمات لم تفهم معناها وستطلب من عبيد أن يشرحها.

عبيد، ليت نظراته التي وعدتها بالارتباط تصدق وتعيش في بيت كبير له شرفات وحجراته واسعة، وأرضيته مبلطة ومفروش عليها سجاد ثمين وحوله جنينة أشجارها تحفل بأعشاش الزرازير والعصافير وطيور أخرى غريبة، غير جدته الطيبة حليمة هانم التي تحبها وأكيد أفصح لها عن رغبته وإلا لما رضيت أن يقترب منها وقد لمحتها تقف بعيدًا عن الشرفة مبتسمة، أما أبوه المتعجرف فيعيش مع زوجته وأولادها ببورسعيد، أكيد أم عبيد كانت طيبة مثل أمها حليمة هانم، ستطلب منه أن يحكي ما يتذكره عنها قبل أن ترحل منذ سنوات، تغلي الشاي لجدها وتعطيه الكوب فيرشف ويغمز لها بعينه ومن حين لآخر يُسمعها كلمة عن قرب زيارة عبيد وأن كل ما تفعله ليظهر البيت في أحسن حال.

البيت.. مهما حاولت يا منيفة فلن يضاهي بيتنا حجرة البستاني الذي يرعى جنينة بيت عزيز بك، معقول عبيد عصمَت ابن بنت حليمة هانم يرغب في أن تكون أم أولاده منيفة الفقيرة، أبوها مشعلجي وبطلت مهنته فيعيش على خدمة البيوت وإصلاح المسارج وتنظيف قناديل المساجد، وأنا وإن كنتُ جنديًا قديمًا في الجيش أيام عرابي، إلا أنني سكنت حارة المشعلجية واشتغلت شغلتهم حتى ضعفت، ربما تكرمني السيدة النبيلة لأجل إنقاذها أنا وأبي من الغرق في النيل عند القناطر من سنين طويلة والست حافظة الجميل.

تكاثفت عليه غيوم الظنون وهو يحاور نفسه وكعادته يقطع برأيه حتى لا يستهلكه التفكير ويسد نفسه عن كل شيء حتى اللقيمات القليلة التي يقتاتها ويلجأ إلى الكونياك، وإن لم يتوفر فالبيرة التي داوم عليها منذ شهور فإذا تعززت عليه يهديه خميرة قرعة البوظة يكرعها ليصبّر نفسه قليلا.

القليل باق بالزجاجة، رفعها على فمه وبلع ما بها دفعة واحدة، شعر بتفتح مخه وأعاد ترتيب ما قد سيصدم به منيفة، منيفة الطيبة لا تستحق أن يحول دون حلمها وأبوها غائب، إذن فلينتظر إلى أن يعود تقاوي ويستشيره في ميلها وميل عبيد لها، ربما يكون له رأي آخر، صمت قليلا وعاد يسأل نفسه: لا سبب حقيقيا يدعو للخوف، حليمة هانم أمها كانت من أسرة فقيرة، أحبها عزيز بك مهندس القناطر وتزوجها، وكانت بنته الوحيدة المدللة لكنه أحسن تربيتها وزوّجها لطبيب شاب من أسرة شركسية عادية تكافح من أجل الحياة، ومات

زوجها في السودان ودفن هناك، وآنجبت بنتيها آلطاف آم عبيد ماتت وعبيد صغير لم يبلغ العاشرة وروحية تعيش في أسيوط.

ـ لا، لا أكسر خاطرك يا منيفة ولو الولد جاد ما يمنع سعادة حياتك مانع.

ـ رجعت تكلم نفسك يا فيض الله؟

ـ لا يا معروف، كنت أفكر.

ـ جلال صحا من نومه وغرضه يكلمك.

معًا ترافقا خارجين من البيت، الحصير مفروش أمام أبواب البيوت المفتوحة، وقرص الطبلية الواسع يتوسّط القعدة، طاجن البامية الفخاري رائحته تصل لمقام السيدة، وأوراك وصدور فراخ آم فانوس التي تربيها ترم البدن، اجتهدت منيفة ومريم في رص أطباق الملوخية وشرائح العيش الشمسي..

ـ آم فانوس أصرت على تجهيز العشاء وأعرفك بمنيفة بنت تقاوي، ومريم بنت المقدس فنجري.

ـ البنات تكبر بسرعة، فاكر لما كانت منيفة ومريم وبنت صغيرة ناسي اسمها تلعب معهم الحجلة.

ـ تريزا بنت أم يوسف يا عم جلال.

ساعة المغربية الهادئة أظلتهم بسحابة من طمأنينة فاستطابوا القعدة المليحة وأطالوا فترة تناولهم للعشاء بين الحوارات المختصرة والكلمات الخاطفة، وكأنهم لا يريدون للمة أن تنتهي، وحمدت دميانة ربها أن فانوس غير موجود وإلا كان عكّر عليهم صفاء ساعتهم الرائقة، في سرعة أتت مريم بطست وإبريق ماء كبير وصابونة، غسلوا أيديهم وقدمت منيفة بصينية الشاي..

ـ كنا انتظرنا فانوس يتعشّى معنا.

ـ الله لا يرجعه البعيد، كان عكنن علينا.

لا يفهم جلال ما تقصد جارته الكريمة التي أحاطته بكل حفاوة احتفالا برجوعه، وأيضا لم تسترسل أمامه في الكلام عن أفاعيل ابنها؛ حتى لا تضيع حلاوة الدقائق الحميمة التي مرت، مال جلال على أذن معروف..

ـ أحب أدخن جوزة.

ـ موجودة، نشرب الشاي وقهوة حسين قعدتها تمام التمام.

متجاورين سار ثلاثتهم، فيض الله ومعروف ووسطهم جلال البنهاوي، هيأ معروف دكة منزوية أسفل شجرة ذقن الباشا الوارفة، من بين أنفاس الدخان هزّ جلال رأسه وتواترت كلماته: ـ البيت غير صالح للمعيشة يا عم فيض الله.

ـ بعد دفن المرحوم محمود، لم تطق والدتك الحياة وأنت غائب وأولادك أكبرهم ما كمّل العشرين، وفي يوم طلبت مقابلتي أنا وعمك معروف وشاورتنا فنصحناها بالعودة إلى بيت جدك الكبير في بنها وما يسّر الأمور وصول عمك الحاج صادق من البلد وأصر على عودة أمك وأولادك لبنها.

ـ فيه الخير، رعى غيبتي.

ـ صحيح يا جلال، عمك حفظ جميل آخيه الكبير وتربيته له، وبعد آيام آوصلنا آمك وأولادك بنفسنا لبنها، المهم أمك أعطتني المفتاح على أمل عودتك وأنت رجعت والحمد لله.
ـ لكن البيت...
ـ البيوت لما يرحل أصحابها تحزن عليهم وتتشقق جدرانها.
ـ الحمد لله على كل حال، أرجع الليلة لبنها.
ـ لا، تبات الليلة في الربع.

كان من الممكن أن يعود جلال لبنها لكن فيض الله أراد أن يعرف منه ما مرّ به وما سمعه الناس من أن الإنجليز خطفوا الشباب وأرسلوهم إلى أوربا لخدمتهم وها هو واحد من الذين كتب الله لهم حياة جديدة ونجا، يتركه يعدل مزاجه بأول حجر معسل وحين يغيره يسأله مباشرة ليحكي كل ما واجهه في غربته، دائما فيض الله يختصر المقدمات فهمّ أن يسأله مباشرة لولا وكزة معروف بكتفه وأشار إلى الشاب النازل من الحنطور، نادى فيض الله على عبيد فالتفت وألقى على القاعدين التحية..

ـ آسف يا جد فيض الله، الوقت متأخر.
ـ تشرّف في أي وقت يا أستاذ عبيد، أعرفك بجلال جارنا، أبوه المرحوم محمود كان حارسًا على معامل صب المدافع في طرة وزميلنا في الجيش أيام هوجة عرابي.
ـ كان في فرقة الطوبجية، وأذاق الإنجليز نار مدفعه في كفر الدوار.

ابتسامة خافتة بدت على وجه عبيد من تعطل زيارته التي لام نفسه على تأخرها رغم تحذير جدته بالعودة سريعًا، فزيارته حُسبت عليه وكان من الأفضل إلغاؤها أو تأجيلها لصباح الغد أو بعد العصر إن تأخر لكن يأتي بعد غروب الشمس ويمنعه من الكلام مع فيض الله شخص آخر فهذا شيء لا يحتمل، همّ أن يستأذن ويأتي في وقت آخر وحجته أن الوقت تأخر فعلا، معروف أخذته حمية ردّ جميل الغداء ببيت السيدة حليمة وحلف عليه يشرب الشاي وإن كان يضايقه دخان الشيشة فليجلس بعيدًا عنها، هز عبيد رأسه ووافق على شُرب الشاي على مضض، لكنه يحبه باردًا بعض الشيء، فيض الله الساكت دار في باله أن عبيد المتعطش للحكايات سيرضى عن سماع ما يقصّه جلال فلم يضيع المزيد من الوقت في مجاملات معروف وسأل جلال مباشرة: ـ المهم، احك لنا يا جلال، نقلك الإنجليز لبلدهم؟

ـ لا يا عم فيض الله، ساقونا لجزيرة بعيدة في عرض البحر محاطة بأسلاك وأسوار أبنية لعساكر من كل بلد.
ـ قشلاق؟
ـ عنابر جيش تشبه قشلاق الإنجليز.
ـ أيام وأسابيع وشهور طويلة شتاء يجمد الدم في العروق وصيف رطوبته تخنق طول الوقت.

لوهلة شعر عبيد بشيء من الملل، فما مصلحته وحكاية واحد راجع من رحلة في جزيرة بالبحر ويصف برد الشتاء وخنقة الصيف، أهمل بقية الشاي وقرر الانصراف فورًا لولا سؤال

فيض الله الذي آثاره ودفعه للاستماع إلى إجابة المدعو جلال: ـ وصحيح هزم جيش السلطان جيش الإنجليز؟!

ـ حصل يا عمنا وغرقت سفن الإنجليز والفرنسيين في البحر.

ـ وما شغلكم هناك؟

ـ حفرنا الآبار وبنينا سكن الجند، ورفعنا الأسوار ورصفنا الأرض وزرعناها ومنا من كان يطبخ ويعجن ويخبز ويغسل بلاطي العساكر وقوادهم وقمصانهم وسراويلهم وينشرها ويلمها، مات منا ناس من الجوع والمرض والسل ودفناهم هناك.

ـ أي جزيرة يا عم جلال؟

ـ والله ما فاكر يا أستاذ، أرض وسط المالح تابعة للجريج، رددوا اسمها قدامنا يمكن تكون لمناس أو ليمنوس وبلد اسمها مدارس مودروس.

ـ جزيرة ليمنوس، أعرفها جزيرة يونانية.

ـ وهناك سمعنا عن عركة كبيرة حصلت على بر تركيا وأن قتلى الإنجليز والفرنسيين بالآلاف وسفن الإنجليز غرقت في البحر ونصبنا خياما للمصابين نداويهم وحفرنا للميتين قبورهم وزرعنا عليها الصلبان.

أنهى عبيد كوب الشاي وأثارته الأخبار المهمة التي يرويها هذا الناجي بحياته من حرب العالم الكبيرة بين الإمبراطورية الهنغارية وجيش ألمانيا ومعهم تركيا ضد الإنجليز وفرنسا وانتهت بهزيمة الألمان وما سفر سعد باشا أصحابه إلا لمفاوضة الإنجليز للخروج من مصر، أنصت تمامًا لما يقول وقرّر تأجيل انصرافه لما بعد حتى لو بقي يستمع لجلال حتى مطلع الفجر.

ـ وبقيت هناك في الجزيرة حتى رجوعك؟

ـ لا يا عم معروف، رست سفينة كبيرة وتعشمنا نرجع لكن حشرونا مع غيرنا، هنود وبنغال ومصريين من الشرقية والبحيرة ومن الصعيد وسودانيين أيام طويلة سافرناها ونزلنا في بلد اسمها مرسيليا، لكن المصريين والسودانيين جمعهم القائد مع بعض وزعونا على بلاد وطرق ما يعلم بها إلا ربنا.

ـ وبنيتم عنابر هناك؟

ـ وحفرنا خنادق وزرعنا أعمدة التلغراف وساوينا ألواح الفلنكات الخشب تحت قضبان سكك الحديد، وكان معنا هجانة سودانية شاركوا في حرب فرنسا مع ألمانيا في بلد البلجيك.

ـ اسمها بلجيكا.

ـ دفنا ناس منا في الثلج ورمينا غيرهم في البحر وقبور أصحابنا غريبة.

ـ والمعترض على العمل؟

ـ الرصاص بين عينيه أو في قلبه وهو فيه إنسان يقدر يعترض أو يهرب، الصبر.. الصبر لحد ما ينال الواحد منا الفرج.

ـ الرجوع؟

ـ أو الموت.

ضرب عبيد كفًا بكف من تأكيد ما سمع عن الترحيل الغاصب للعمال والفلاحين المصريين الذين سمع عنهم وهو في بورسعيد، أبوه نفسه كان واحدًا ممن كلفوا بتوريد العمال المصريين لخدمة الإنجليز، وتداول اسمهم بأنهم فيلق العمال والهجانة وظن الكثيرون أنهم يعملون مع الجيش المصري، لكن في الحقيقة فنوا وهم يخدمون جيش الإنجليز، مد عبيد كفه وسلم على جلال..

ـ أقسم لك يا عم جلال حال إنهاء دراستي بمدرسة الحقوق، أرفع قضية أطالب فيها برد حقوقكم.

ـ ضد من يا أستاذ عبيد؟

ـ ضد كتشنر وهنري مكماهون وريجنالد ونجيت واللنبي ونحاسب كرومر في قبره على إعدامه الفلاحين في دنشواي.

يمينًا ويسارًا تلفت فيض الله لئلا يكون واحدًا من قطط الإنجليز وعيونهم واقفًا أو مارًّا قريبًا منهم، في حين وقف معروف وتمشّى نحو المعلم حسين وبالمرة حاسب على المشاريب ولما اطمأن على عدم وجود واش عاد إلى جلستهم، حامت نظرة إعجاب حول الفتى المتحمّس ورسخ في نفس فيض الله التمسّك به ربما لو تزوج منيفة يخرج من ذريتهم هم وغيرهم شاب غيور، واحد شريف قلبه على البلد يقتلع السلطان الضعيف ويطرد الإنجليز، سؤال دار في باله لكن دقات حافر الفرس لفتت نظره لتوقف الحنطور على بُعد أمتار، خطا جناينى السيدة حليمة نحو جلسة فيض الله، فوقف مرحبًا بالرجل الممسك بهراوة غليظة مثل نبوت فتوة حارة العطوف أو الحسينية..

ـ حليمة هانم مشغولة عليك.

ـ اقعد يا عم منير اشرب الشاي ونمشي.

ـ أرجوك يا أستاذ عبيد، أمرتني نرجع على طول.

تضايق عبيد من قطع سماعه لجلال العائد من حرب الإنجليز والفرنسيين في أوربا، أشار إليه فيض الله..

ـ ارجع يا عبيد يا ولدي وأكمل أنا كلامي معك.

لم يجد عبيد مفرًا من السلام عليهم والعودة، لا يدري سببًا لاقترابه من جلال، حضنه في قوة والرجل مستغرب تصرف الشاب الصغير مع رجل أول مرة يراه، رافق فيض الله عبيد حتى العربة، قبضت أصابعه على كف فيض الله..

ـ كان غرضي أطلب...

ـ بعدين يا عبيد، ارجع لجدتك وكفاية قلق، كل ما ترغب في معرفته عن عرابي أحكي لك عنه.

ـ لا، قصدي...

ـ قصدك عارفه، واركب بلا مهاترة.

وكأن العربجي ينتظر جلوس عبيد جوار حارسه فصفع فخذ الفرس في قوة وانطلقت العربة، عاد فيض الله إلى رفاق سمر الليلة فوجدهما واقفين، عادوا إلى الربع والليل أعتم المطرح، على ضوء المصباح اقترب جلال من البيت ومسحت كفه الجدار، ربت معروف على كتفه..

ـ يا ولدي لا يمكن آنسى آمك وهي كل يوم تمشي لآول الشارع وترجع وآبوك يحاول منعها، تمسك رأسها بيديها وتولول: والله البيوت تعوز ولد فيها

إن مالت الحيطان يبنيها

والله البيوت تعوز ولد معها

إن مالت الحيطان يرجعها[30]

والله ما بكت يوم دفن أخي الأونباشي محمود قدر نحيبها عليك كل يوم، ولو قلت لك أتمنى أسافر معك لبنها العسل لأجل أشوف فرحتها برجوعك.

ـ الله يكرمك يا عم معروف، يعطيك الله صحتك ويطول في عمرك يا عم فيض الله ويرجع تقاوي على خير إن شاء الله ويفرح بأولاد أولاد منيفة.

ـ من آول الصباح ترجع يا جلال.

ـ حاضر يا عم فيض الله والله لا أنسى جميلكم أبدًا.

***

من العديد الذي تردده السيدات على المتوفى.

(19)

تنقضي الأيام وفيض الله ينتظر النزع الأخير للنهار ليترصد الليل فيستعطف النوم، فصارت الليالي مدرارة بقلق مقيت فإذا انفتق نور الصبح يدعو ربه أن يرجع تقاوي فينقضي النهار ويخمش القلق صدره، هذه المرة حزم أمره على الرحيل إلى أسيوط لكن منيفة، قلبه لا يطاوعه تركها هنا بمفردها حتى لو باتت معها مريم وأمها وحرسها معروف بمدفع على الباب، ولا يستطيع مطاوعة رأيها على السفر معه؛ الرحلة شاقة وربما تكون بوابور البحر والأقسى لو حدث مكروه لتقاوي وتنشرخ روحها هناك.

ـ لا، لا، عبيد وهو معنا على قهوة حسين قال أنه أرسل تلغرافا لخالته روحية وينتظر الرد، الرد يأتي به عبيد اليوم.

أصوات عالية استحالت إلى زعاق وصراخ، انتعل مركوبه وخرج بسرعة، رجلان قدام بيت فنجري وأم فانوس تزق ابنها وفي يدها مقشة من سباطة النخل تشهرها في وجوههم..

ـ والمسيح ما تخطي العتبة، غرضك أبيع البيت يا منصف.

ـ وبعد زواج عشم ومريم نعيش كلنا في بيتي.

ـ بيت فنجري مفتوح ولا يسكنه غريب أبداً، امش يا ملعون.

ـ اهدئي يا أم فانوس.

ـ الجبان فانوس وخاله الحرامي وابنه الحشّاش غرضهم أبيع البيت، وأتلطم في بيوت الناس.

ـ بيتي هو بيتك يا دميانة.

ـ لا يحصل أبدًا، لا أبيع بيتي ولما أموت أندفن هنا.

الفتاتان واقفتان بمنتصف المجاز ومريم تدفن وجهها في كتف منيفة وتهتز من فرط البكاء، أشار فيض الله لمنصف وابنه بالجلوس على المصطبة وأتى معروف بدكة قصيرة، جلست عليها والعرق يتفصّد على جبينها وكل آيات التحدي مشحونة بسحنتها الغاضبة، في حين افترش معروف عتبة بيته لكن دميانة نادت عليه: ـ تعال يا عم معروف واشهد على ولدي الـ...

تحامل وخطا نحو قعدتهم لكنه لزم الصمت لئلا السفيه فانوس يوجعه بإهانات أخرى، أدار فيض الله الموقف وفضّل الترفق في الحوار؛ حتى لا يدفع الشاب الغاضب أو خاله منصف لرفض رأيه وتدخله في مشكلتهم العائلية..

ـ أتكلم يا فانوس ولا أخرس كيف ما قلت لعمك معروف؟

ـ تكلم يا عم فيض الله، أنت عندي أغلى من السفيه القاعد جنبك.

ـ أرجوك يا دميانة، أعطيني فرصة، أمك يا فانوس لا يرضيها تعيش في بيت خالك، لها معارفها وزبائن الخياطة غير جيرتنا وأنت عارفها.

ـ كلامك صح يا عم فيض الله، ومن خرج من داره قلّ مقداره.

ـ قلت اسكتي يا دميانة، رأيك يا فانوس؟

ـ محتاج فلوس.
ـ الفلوس موجودة، عمك تقاوي لما يرجع بالسلامة أعطيك ما تطلب لكن البيت لا يباع.
ـ وزواج أختي من عشم.
ـ كل شيء بالخناق إلا الزواج بالاتفاق وأقولها لك صراحة قدام خالك وابن خالك، أختك غبر راغبة في الزواج بعشم، تحب يا منصف تسمعها منها؟

عند هذا الحد نهض منصف وابنه الساكت طوال الوقت وأيقن من هذه الجلسة أن أخته لن تزوج بنتها لابنه إلا على جثتها، أشار لفانوس بمغادرة المطرح وكسر له عينه في غمزة متفق عليها، جوارهم سار فيض الله ومعروف، تقدم منصف وابنه خارجين، في منتصف الطريق أوقف معروف جاره المتهور..

ـ حرام عليك يا فانوس تبيع بيتك وتبهدل أمك، الواحد لا يستريح إلا في داره.
ـ اسمع يا فانوس، أقولها لك صراحة، لو لزم الأمر أنا أشتري البيت وأمك تقعد فيه، يا ولدي الجار قبل الدار.
ـ أنت، من فلوس أبعدية والدك ولا من فلوس مد يدك للناس؟!

ألقى فانوس بكلماته الساخنة على مسامع العجوزين ولحق بخاله وابن خاله، هزّ فيض الله رأسه ومطّ شفتيه أسفًا على قلة حياء ابن جارته الشهمة التي لم ير منها طوال عشرتهم إلا كل خير.. والله يا فانوس ما تستحق أن تكون دميانة أمك ولا مريم الوديعة أختك ولولا سيرة المقدس فنجري الكريم لكسرت زجاجك.

ـ والله ما يستحق البني آدم التافه أمه وأخته وجيرانه الطيبين.
ـ نطقت بلساني يا معروف.
ـ جد فيض الله!

علا الصوت المألوف بعد استدارتهما، أقبل عبيد لاهثا فاستقبله فيض الله بلهفة، فلم يبخل عبيد بالخبر الهام الذي جاء به: ـ وصل تلغراف من خالتي روحية بأسيوط.

ـ والأخبار؟
ـ قالت أن السكة معطلة وأسيوط مقلوبة بعد إعلان الإنجليز عن محاكمتهم للمتظاهرين وقتلة جند الإنجليز في ديروط...
ـ وتقاوي؟
ـ أرسل زوج خالتي واحدًا من معارفه بالري إلى موشا فسأل واستقصى وعرف أن عم تقاوي في بيت واحد اسمه همّام ومع عطية خال منيفة.
ـ الحمد لله أنه بخير.

قالها معروف وهو يرفع كفيه إلى السماء، أطرق فيض الله رأسه وأيقن أن عطية استبقى تقاوي لحين عودة قطارات السكة الحديد وبعدها يرجع، استأذن من عبيد، صفق فيض الله بيده قبل دخوله بيت فنجري..

ـ يا رب يا ساتر.

خطا للداخل ولا يزال جو البيت مكفهرًا لما تسبب فيه فانوس وخاله وابنه من تعكير، قادته دميانة إلى فسحة البيت الداخلية وأجلسته، طلب مريم فأقبلت جوارها منيفة، شهر فيض الله

سبابته أمامهن في تحد: ـ اسمعي يا دميانة، أقولها لك آنت ومريم وقلتها لفانوس، لو لزم الأمر أشتري البيت وأصونك فيه، وأنت يا مريم ما في إنسان على وجه الأرض يقدر يغصبك على الزواج.

نهض فيض الله ودميانة تمسح دموعًا حبستها أثناء تحديها لأخيها وابنها، أما مريم فساكتة واتخذت من صلابة أمها سورًا يمنع عنها أي أذى، قبض فيض الله على كف حفيدته وصحبته للخارج، ما إن أطلت على عبيد الجالس مقابل معروف حتى أشرق وجهها، فنهض من فوره ومد يده مسلمًا، فيض الله بابتسامته يبارك تلاقي أصابعهما، همت بدخول البيت فاستوقفها جدها: ـ الأستاذ عبيد جاءنا بأخبار عن تقاوي.

ـ أبي، بخير؟

ـ خالك عطية قال لمن أرسله الباشمهندس زوج الست روحية أن تقاوي بخير ويركب الوابور لما السكة الحديد تشتغل.

ـ الحمد لله، شكرًا على تعبك يا عبيد.

نطقتها منيفة بجرأة عفوية دون أن تسبقها بأستاذ ولما أدركت خطأها البريء تورد خدها خجلا ودخلت البيت في سرعة، كركبة عربة خميرة مقبلة عليهم، رفع أمامهم قرعه واعدًا فيض الله ومعروف بما في الزير، أشار فيض الله لجاره أن يتولى أمر خميرة وأمسك بذراع عبيد وقاده إلى غرفته في آخر البيت، غمغم في خفوت: لك عندي هدية يا عبيد مقابل هدية الأخبار المطمئنة.

ـ تقول حاجة يا جد فيض الله.

ـ اقعد يا عبيد، اليوم يومك وكل ما تسأل عنه أجيبك عليه.

ـ لكن لي سؤال، المعلم جلال موجود؟

ـ رجع لأهله في بنها.

ـ آه، بنها، قرأت أن عباس حلمي ابن طوسون قتل في قصر له هناك.

ـ صحيح، المعلم جلال غادر هو وبقية أصحابه بلاد الفرنساوية في سفينة تجارية رست في تونس وبقي أياما وركب البحر إلى الإسكندرية ومن هناك رجع للربع.

ـ كان يهمني التفاصيل لكن المهم أنه رجع لأولاده بالسلامة.

ـ فيك من يكتم السر؟

ـ ثق بي يا جد فيض الله.

ـ واثق يا عبيد.

من جوف الصندوق أمسكت أنامل فيض الله المرتعشة على طرف الطربوش، رفعه أمام عيني عبيد، تأمله وهز رأسه علامة عدم فهمه لما يفعل العجوز، قرّبه فيض الله من أنفه واستنشق نفسًا جهد ليجعله عميقًا، حنى وجهه وقبّل الطربوش العتيق، تارة أخرى لم يجد عبيد في طربوش بهت لونه وملطخ ببقع بنية غامقة ما يدل على قداسة يبديها فيض الله، فمثله مصيره القمامة، أو...

ـ مصيره نار الفرن يا جد فيض الله.

ـ لا يا عبيد، لا تحرق سيرة أبناء البلد المخلصين.

ـ لكنه طربوش قديم كالح، أنت نفسك تخجل أن تلبسه برأسك.
ـ شرف لي يكون على رأسي.
ضاق عبيد بمناورات فيض الله التي رأى أنها لا لزوم لها، إنما حضر بحجة إخباره أمر تلغرافات أسيوط ويرى منيفة ويحكي له فيض الله ومعروف عن سيرتهم ورفاقهم بالجيش القديم..
ـ طربوش عبيد.
ـ عبيد؟
ـ بكباشي محمد عبيد.
صمت عبيد لإفصاح فيض الله عن صاحب الطربوش، وعاد يتأمل وجه العجوز وصدره الضامر وما يحويه من أسرار، وجد له العذر في الاحتفاظ بأثر من أيام خدمته في الجيش، لكن كيف وصل طربوش واحد من كبار قواد الجيش أيام عرابي إلى فيض الله المشعلجي بل واحتفظ به طول السنوات المنقضية، سكت منتظرًا أن يتجاوز فيض الله فترة تعريفه بصاحب الطربوش، حقيقة رأى التأثر باديًا على وجه فيض الله للسر الذي ربما لم يبح به لأحد غيره، كسر حدة الموقف خطواتٌ مقبلة نحو الغرفة فأزالت منيفة جو غموض جدها حول عبيد، ركنت الشاي بينهما.
ـ عبيد يتغدى معنا اليوم يا منيفة.
لم يخفيا انشراحهما؛ عبيد ضمن بقاءه فترة طويلة وسيأكل من يد منيفة وبدورها ستجتهد أقصى ما تكون لتطهو بيديها أشهى غداء، خرجت وحل محلها دخول معروف، ولأن فيض الله بفراسته أدرك أن عبيد منظم الأفكار وعرف أن وقعة التل الكبير كانت المعركة الأخيرة بعدها دخل الإنجليز القاهرة، فأراد أن يروي له معروف أولًا كيف ضربت مدافع الإنجليز الإسكندرية، التفت فيض الله إلى جاره الأثير..
ـ أنت كنت بفرقة الطوبجية.
ـ صحيح وانتقلت إلى الإسكندرية بعد تجمع فرق الجيش في عابدين.
ـ الأستاذ عبيد يريد أن تروي عن دورك العظيم كـ.. قائمقام وجنرال كبير وأنت واقف جوار القربة أقصد المدفع بقلعة الإسكندرية.
ـ هاها، تضحك عليّ يا فيض الله، مقبولة منك على قدر سنك.
سرّ عبيد من تندر العجوزين على نفسيهما، وربت على كتف معروف آخذًا بخاطره، لم يطل انتظاره فانتصبت قامة معروف وضم أصابعه ورفع قبضته لأعلى..
ـ الأجانب لهم طريقة وسياسة، كان لازم يكون فيه سبب لوصول مراكب الإنجليز والفرنسيين للإسكندرية، اكتشف عرابي باشا...
ـ عرابي أصبح باشا؟
ـ عرابي كان ناظرًا للجهادية واكتشف مؤامرة من ضباط الشركس وعلى رأسهم عثمان رفقي المعزول ضد عرابي وأصحابه، فتم القبض عليهم وقدموهم للمحاكمة التي قضت عليهم بالنفي إلى السودان وتجريدهم من رتبهم العسكرية ورفع الأمر إلى ولي النعم ليصدق على الحكم، لكن بنصيحة من الحنشين الملتفين حول رقبة الخديو سير إدوراد

مالت والمسيو التابع لفرنسا عدل الحكم وخففه، ولم يرض عرابي والبارودي عن إرادة الخديو السنية بتخفيف الحكم وحصل خلاف كبير بين الوزارة والخديو وخاف الإنجليز على رعاياهم من نتيجة الخلاف بأن تقع فتن في البلاد يضيع فيها رعاياهم فأرسل الإنجليز سفنهم بقيادة قائد اسمه سيمور ولحقتهم سفن فرنسية بقيادة الأميرال كونراد وتبعتهم سفينة بعد سفينة.

شرب معروف الشاي ودهش عبيد من الراوي العجوز الذي أفصح عن موقف لم يسمع به من قبل فقد حسب أنه سيروي له قصة المكاري الإسكندراني مع الرجل المالطي الشائعة بين الناس لكنه حكى له جذور جذور التخطيط الإنجليزي لإرسال بوارجهم الحربية إلى مصر، هوّم برأسه ليكمل: ـ ومن هنا يا محترم كانت بداية التهديد.

ـ تهديد؟

ـ عيني عينك، أرسل قنصل الإنجليز وقنصل الفرنساوية مذكرة طويلة عريضة طالبوا فيها استقالة البارودي باشا ويطلع أحمد عرابي من مصر مع حفظ رتبه ونياشينه وأصحابه عبد العال حلمي وعلي فهمي تحديد الإقامة في الأرياف وردت الوزارة بعدم قبول طلب الدول الأجنبية والطامة الكبرى في الخديو توفيق.

ـ قصدك تقول أنه...

ـ أعلن قبول مطالب الدولتين، غرضه ينتقم من عرابي لما أذله وأهانه عند سراي عابدين فاستقالت وزارة البارودي.

ـ لكن عرابي بقي ناظرا للجهادية.

ـ وأنا من رأيي يا فيض الله، كان قبل عرابي قرار الخديو وطلع من مصر، وكان جنب البلد دخول الإنجليز.

ـ يا رجل حسّ على دمك، لو أنك تبني زيارًا عاليًا على سطح بيتك، تقبل أنت فتوة يهددك ويطلب منك تهد الزيار وتمشي من بيتك، دميانة وأهي ست وقفت في وجه ابنها من لحمها ودمها لما صمم يبيع البيت.

ـ أمشي لأجل أحافظ على بيتي من الهد.

ـ البيت ما له قيمة من غير صاحبه، وسواء نفذت كلامه ومشيت أو قعدت أنت مهدد يبقى الواحد يموت بكرامته أحسن.

تارة أخرى افترت عن عبيد ابتسامة لحوار العجوزين وتشبيه فيض الله الإنجليز بفتوة ويطلب مغادرة واحد من أهل الحارة لبيته، حتى لا يطول الجدال استدرك وسأل في اهتمام:

ـ وبعد؟

ـ اجتمع عرابي بالقواد والأعيان وقرّر عزل الخديو نفسه لكن النواب رفضوا خلعه وتهديد عرابي بمحاصرة سراي الإسماعيلية وقبلوا أن يتوسط بعضهم عنده ليبقى عرابي ناظرًا للجهادية أفتكر منهم حسين باشا الشريعي وسليمان باشا أباظة وعرضوا على الخديو بقاء عرابي ناظرًا للجهادية وبعد إصرار قبل تنازل حضرة أفندينا وقبل طلباتهم.

ـ ولو سمعوا كلام عرابي وخلعوا الخديو ما كان الحال غير الحال.

ـ كانت تشتعل الفتن وتقوم حرب بين الناس.

ـ وقولك لما آمر عرابي بترميمات واستحكامات عسكرية لتحصين الإسكندرية ويطلب قائد الأسطول الإنجليز بالتوقف عنها لأنها تهديد للسفن، تخيل نتوقف عن حماية بلادنا لأن في بناء الحصون تهديدا لسفن الإنجليز الراسية قبالة الشاطئ، معقول يا ناس؟!

عبيد واع جدًا ومتفهم لحماس فيض الله، الذي يرى أن لا حق لدولة التدخل في شأن دولة أخرى تحمي نفسها، لم يشعر بالسأم من حكاية بداية التدخل الإنجليزي لكنه كان متلهفًا لمعرفة أخبار مذبحة الإسكندرية والتي وعد معروف بروايتها بعد الغداء الذي أعلنت منيفة عن تجهيزه.

***

(20)

يصبر حتى يبترد الشاي ويحتسيه في بطء، تربع على مصطبة المجاز في حين بقي فيض الله بحجرته المفتوح بابها فيكشف قعدة منيفة جوار عبيد أما معروف فاشتاق إلى حجر شيشة من قهوة المعلم حسين، لم يجرؤ عبيد على الكلام، منيفة الجالسة جواره عاتبة على جدها ولؤمه بتركها في مواجهة الاعتراف حتى يتأكد من إنهاء موقف محاولات القرب الصامتة، قدّمت له طبقًا به القليل من الرُطب، عبيد لا يعترف بأنصاف العلاقات، أو بمنطقة رمادية يمرح فيها، وقبل مجيئه اعترف لجدته بحبه لمنيفة وأنها الأصلح له كشريكة حياته، رغم معزتها لفيض الله لجميله القديم وحبها لمنيفة توقع منها الاعتراض على نسب واحدة من مساتير الناس، لكن الجدة ذات الخلق المتواضع خيبت ظن حفيدها ورحبت برغبة عبيد فخشي اعتراض أبيه الأكيد فطمأنته بأن يترك أباه عليها ثم جاء رحيل أبيه من بورسعيد إلى الأستانة لعمل جديد مجز دبره والد زوجته هناك مواتيًا لإتمام مثل هذا الارتباط وإذا أضيف شعور عبيد القوي أن أباه مستريحٌ لحياة عبيد البعيدة عنه وتحمل جدته مسئولية الإقامة معها فإن ذلك أضفى عليه طمأنينة إتمام مشروع حياته مع من اختارها قلبه، أخذ عبيد بزمام المبادأة فقضمت أسنانه المصفوفة نصف التمرة ولم يعط لمنيفة فرصة أن تتناول بقيتها بأصابعها فمد هو يده وبرفق دسّ بين شفتيها النصفَ الآخر بالنواة فأغمضت عينيها، تلاحقت أنفاسها وصدرها يعلو ويهبط، سرت قشعريرة لا تعرف كنهها وكأن عبيد أطبق بشفتيه على شفتيها وهي التي لم تجرّب سوى تقبيل يد جدها ورأسه، حملتها ساقاها ونهضت متقهقرة إلى غرفتها وقبل أن تغلق الباب أهدته نظرات القبول، سعل فيض الله فالتفت إليه عبيد وحان وقت جدية تنفيذ النية، على الأرض قعد قبالته والعجوز ينتظر..

ـ جد فيض الله، أطلب يد منيفة.

الطلب سهل والموافقة أسهل فيكفي إيماءة رأسه تنهي الموقف، لكن ترتيب الارتباط يحتاج إلى تأنٍ وتخطيط يلزم على فيض الله أن يبسطه لعبيد قبل أي شيء فهز رأسه بشكل ملغز لا يعني المُوافقة أو ضدها..

ـ أبوها غائب، يرجع بالسلامة واطلبها منه.

ـ وعم تقاوي يرفضني؟

ـ كلا وحاشا يا ابن الأصول، والله لا أجد أنا أو ابني أصلح لك لمنيفة، صحيح أننا فقراء لكن...

ـ لا أسمعها منك يا جد فيض الله، جدتي حليمة أمها من الحسين وكسّر جدي عزيز من أجلها أي حاجز سخيف وقف قدامه.

ـ على خيرة الله يا بني لكن كما قلت، تقاوي أولا وأخيرًا أبوها والفاتحة تقرأها ويدك في يده، و...

ـ أعرف، أبي عصمت بك الشركسي، سافر الأستانة عند أهل زوجته.

ـ ولما يرجع...

ـ انس رجوعه، آرسل لي مائة جنيه دفعة واحدة وسافر لشغله الجديد، زوجته غرضها تضمن مستقبل أولادها بعدما عاشت قلق المظاهرات هنا في مصر.

الخوف من عصمت الشركسي هو ما كان يقلق فيض الله، فانمحى أثره، اتسعت ابتسامة الرضا فكست تجاعيد وجهه نضارة، باعد بين ذراعيه فألقى عبيد نفسه حاضنًا العجوز، برفق تباعدا والدموع تبلل رموش فيض الله، من ضمان مستقبل منيفة الوحيدة في الحياة لا أخ ولا أخت ولا عم وأخوالها في الصعيد فلا سند لها ولا معين بعد أن يقضي الله أمره بالموت ويخشى أن يتزوجها واحد غريب يظهر عطفه أول الأمر ثم يقسو عليها أو يذيقها صنوفًا من معاملة السوء، أما عبيد فقد اختبر مروءته وخلقه المتسم بالوداعة، غير تعليمه العالي فربما يكون قاضيًا أو محاميًا كبيرًا فهو الأنسب لمنيفة وإن كان على حالهم فسيكون أفضل مما هم عليه حين يعود تقاوي بنصيب أم منيفة من ميراثها وسيجهزها كأغنى بنت.

عند هذا الخاطر استراحت نفسه لكن بقية من قلق على تقاوي رغم طمأنة عبيد له، معروف الصاخب يقبل ممسكًا بعمود الجوزة يشفط من ماسورة الغاب فتتوهج الجميرات أعلى الحجر، يدخل عليهما ويتربع، يلوي وجهه بعيدًا عن عبيد وتكركر المياه بداخل الجوزة، ينفث الدخان من فتحتي أنفه الضيقتين..

ـ أنا جاهز.

تخالطت ضحكات عبيد وفيض الله على منظر معروف بجسمه النحيل العائم داخل جلباب عديم اللون، وتفاحة آدم تصعد وتهبط مع كل رشفة شاي أو زفرة نفس، هز فيض الله رأسه وسأل عبيد:

ـ حادثة الإسكندرية.

ـ كان لازم تحصل وإن كانت مصادفة يبقى الإنجليز استغلوها لصالحهم، أنا كنت أخدم في طابية قايتباي في حرّ يونيو سنة واحد وثمانين، وصدرت أوامر القومندان إسماعيل باشا كامل للقائمقام سليمان سامي بوجوب تفريق الناس وعرفت وأنا هناك بأمر الحادثة، واحد مكاري صاحب حمار اسمه السيد العجان ركب مع ما لطي طاف به من شارع لشارع ومن قهوة لقهوة وعند خمارة قريبة من قهوة القزاز جنب مخفر اللبان طالبه العجان بأجرته فرمى له قرش صاغ واحد، طالبه المكاري بأجرته كاملة فالقرش أقل من مشاوير المالطي فاستكبر عليه وغرز السكين في المكاري الغلبان، طعنة في صدره ومصارينه فخر مصروعًا وفرّ المالطي من مطاردة أهل شارع السبع بنات إلى بيت واحد من اليونانيين والدليل أن الحادث مدبّر، انفتحت الشبابيك والمشربيات والأبواب وأطلق المالطيون واليونانيون النار على الناس..

ـ وأهل الإسكندرية تراجعوا؟

ـ هاج الناس وضربوا كل أجنبي بالعصي والهراوات وخربوا دكاكين شارع السبع بنات والشارع الإبراهيمي والهماميل والمحمودية وجهة الجمرك وحضرنا في الساعة الخامسة قبل المغرب وفرقنا الناس وانتهت الفتنة بعد المغرب ولزم الناس بيوتهم بعد أن سقط قتلى من أهل البلد والأكثر من الأجانب.

ـ وعرابي؟

ـ كان يومها في القاهرة، وغضب جدًا للحادثة وتشاءم من وقوعها لأنها تهديد له كناظر للحربية بأنه عاجز عن حماية أمن البلد.
ـ يعني حادثة ممكن تحصل في أي بلد انقلبت لمذبحة؟
ـ مدبرة يا أستاذ عبيد؛ لأجل يعلن قدام العالم أن رعايا الدول في مصر حياتهم مهددة بالموت ولا أمان لهم فيها والحياة فوضى، وسمعنا هناك بين الأجانب أنفسهم أنه احتمال تحصل حرب وشاهدت الأجانب من يونانيين وإنجليز وفرنسيين نزحوا بالآلاف وركبوا السفن والمراكب ورحلوا إلى اليونان وإيطاليا وقبرص؛ لأنهم وصلتهم أوامر بهجر الإسكندرية بسرعة.
ـ آه، هجر الأجانب الإسكندرية لأنهم عرفوا مسبقا بالهجوم عليها.
ـ حصل يا أستاذ، ومن يومها انشغلت أنا وزملائي في أعمال ترميم وتركيب بطاريات وادعى الأميرال الإنجليزي سيمور أن ناظر الجهادية المصري أحمد عرابي عازم على سد بوغاز الإسكندرية لمحاصرة بوارج الإنجليز الراسية في الميناء، ودليل عاشر أن الحكاية مدبرة، ما رأيته بعيني من تجار جريج ومصريين تحميل عربات خضراوات ولحوم وخبز غير الأسماك من الصيادين إلى سفن الإنجليز، وفي الأسبوع الأول من يوليو أرسل سيمور إلى حضرة القومندان طلبة عصمت بأن يتوقف عن أعمال التحسينات على ساحل الإسكندرية في طابية قايتباي وطوابي صالح والسلسلة وطابية العجمي القوية وقلعة المكس وأن ينزل المدافع المنصوبة هناك أمام سفن الإنجليز فرد عليه طلبة باشا أنه لا توجد أي مدافع موجهة للسفن الإنجليزية الراسية في البوغاز وبعدها بأيام أرسل له بطلب صريح تسليم البطاريات المنصوبة في طابية الفنار وطابية الاسبتالية بجزيرة رأس التين وفي داخل المدينة طابية كوم الدكة وكوم الناضورة..
ـ قلت يا عم معروف أن المدافع كانت منصوبة على الطوابي؟
ـ صحيح، فاكر يا فيض الله نوع المدافع؟
ـ منها مدافع قديمة من أيام محمد علي نفسه، مدافع قصيرة المدى أما الخديو إسماعيل فنصب مدافع ضخمة من نوع أرمسترونج وكان عددها تسعة وأربعين، لكن أكمل يا معروف أنت كنت هناك في الأيام المشئومة.
ـ فوجئنا في أول نهار الثلاثاء ببارجة اسمها الكسندرا ضربت أول طلقة على طابية الاسبتالية وردت عليها مدافعنا لكنها كما قال فيض الله قصيرة المدى وسقط معظمها في البحر وما زاد الطين بلة أن سفن الإنجليز تتحرك في البحر وتصوب بدقة فتهدم الطابية وتخرس مدافعها وتسقطها في البحر والدخان حجب سفن الإنجليز عن رؤية المدفعجية واستمر الضرب لبعد الظهر وتوقف الضرب وأكملوا لقرب المغرب وهدموا حصون الفنار ورأس التين والاسبتالية وخربوا قلعة قايتباي وضربوا قلعة المكس وهرب جنودها فأرسل الإنجليز بحارتهم وأتلفوا بقية المدافع هناك، هدمت الطوابي غير مساكن الأهالي حتى جناح الحريم بسراي رأس التين سمعنا أن النار شبت فيه، الكل عرف أن الإنجليز في طريقهم لاحتلال الإسكندرية وللأسف أصدر قائد الآلاي سليمان سامي داود أمره المتهور بإشعال النار في الإسكندرية ليمنع نزول الإنجليز إلى شوارع المدينة

والغريبة أن الآر وام والمالط يين الباقيي ن في الإس كند رية آحرقوا بيوتهم ودكاكين هم للمطالبة بالتعويض فيما بعد.
ويعلم الله أن أهل الإسكندرية طلعوا على سطوح بيوتهم وأطلق كل من معه بندقية الرصاص على سفن الإنجليز المقتربة من الشاطئ وصياد إسكندراني قدر يصيب عسكري إنجليزي من مسافة قصيرة...
ـ وعرابي يا عمنا؟
ـ أصدر أمره بالانسحاب فرجعت مع فرقتي إلى كفر الدوار وعرابي نفسه استقر في قرية كنج عثمان لقيادة الجيش ولما تأكد المجرم سيمور من انسحاب الجنود أنزل كتيبة واحتلت سراي رأس التين، وفي يوم سبعة عشر منه[31] أذاع سيمور أول منشور علق في شوارع المدينة أعلن فيه بتكليف الخديو للإنجليز بالمحافظة على الأمن والنظام في الإسكندرية وأن عرابي مخالف الأوامر، وفي نفس اليوم عرفنا في كفر الدوار أن الخديو أرسل تلغرافا إلى أحمد عرابي يأمره فيه بالكف عن الاستعدادات الحربية وحمّله مسئولية ضرب الإسكندرية وأمره بالحضور إلى سراي رأس التين ليسمع منه تعليماته واعتذر عرابي عن عدم الحضور.
جمار الجوزة انطفأت تماما مما دفع معروف لأن ينهض من قعدته فاردًا ذراعيه، وأعلن عن عزمه العودة إلى القهوة لتغيير الحجر ويأتي بحجر إضافي، ووعده فيض الله بالشاي الثقيل الذي يحبه.
ـ لا تقدّر يا جد فيض الله انبساطي بكل ما سمعته من عم معروف.
ـ انبساطك؟
ـ وبالتأكيد أسفي على ما جرى وكنت أتمنّى أكون معكم وأواجه مدافع الإنجليز.
ـ الغريب يا عبيد أن البلاد الأجنبية سكتت على ضرب الإنجليز للإسكندرية والأهم هو انسحاب سفن الفرنسيين وتركهم الفرصة كاملة للبوارج الإنجليزية.
ـ يا سلام يا جد فيض الله، والله حكاية عم معروف أفضل من أي خوجة قعدت قدامهم.
ـ يا ولدي أنت تسمع من ناس عاشت الأهوال وأنا ومعروف وجارنا محمود البنهاوي رحمة الله عليه اشتركنا بأرواحنا في المعارك.
ـ متشوق لسماع أخبار كفر الدوار.
ـ يحضر عمك معروف ويحكي.
ـ ذاكرته ما شاء الله.
ـ وذكي، يعرف يعمل كل حاجة تتخيلها ونذر نفسه لخدمة الناس من أول إشعال الأعمدة إلى أن انتهى به الحال لحمل القربة على ظهره.
ـ ومستغرب أن الدول الأجنبية سكتت عن ضرب الإسكندرية، لازم تسكت، لأجل فرنسا تحكم الجزائر وتفترس تونس وبريطانيا العظمى تنفرد بالعراق ولا أحد ينازعها في الهند.
ـ جميل أنك بدأت تفهم يا عبيد.
ـ فطيرة وقسموها على بعض، ولولا خيرات البلاد المحتلة لكانت فرنسا تعيش في فقر وإنجلترا تشحذ لقمة عيشها.

***

سبعة عشر منه: 17 يوليو 1882م.

(21)

... اجتماع كبير لم أر مثله في حياتي ضم أربعمائة مصري عرض عليهم عرابي ما حصل وكان في الإسكندرية، فأجمعوا رأيهم على وجوب مداومة الاستعدادات لمواجهة الإنجليز بعد تدميرهم لطوابي الإسكندرية ورميها بالقنابل وقتلهم مئات من الأهالي، واطلع الخديو على قرار الجمعية العمومية فأصدر قراره بعزل عرابي وعين عمر باشا لطفي مكانه وحجته أن عرابي خالف أوامره في الاستمرار في الاستعدادات الحربية، والشيء المخزي في الموضوع أن الخديو حفيد محمد علي باشا دافع عن احتلال الإنجليز للإسكندرية وأن نزولهم للبلد للمحافظة على أمنها وحماية الجاليات الأجنبية.

ووصل عرابي قرار الخديو فاجتمعت الجمعية العمومية وعددها زاد فحضر خمسمائة أو يزيد منهم أعيان وعُمد وقضاة مشايخ البلاد وشيخ الأزهر وكبير الأقباط الأرثوذكس وحاخام اليهود ونقيب الأشراف وتكلموا في الموقف واتفقوا على عدم قبول عزل عرابي من نظارة الجهادية ومروق الخديو لا نحيازه إلى جيش محارب للبلاد، فعاد عرابي إلى كفر الدوار وبدأت طلائع الجيش تناوش الإنجليز في ضواحي الإسكندرية لكن إمدادات الإنجليز زادت وأصدرت ملكتهم فيكتوريا أمرًا بتولي الجنرال جارنت ولسلي قائدًا عامًا للجيش المحارب في مصر، وعين عرابي محمود باشا فهمي رئيسًا للجيش فحدد خمسة مواقع للدفاع عن البلد في كفر الدوار ورشيد وقرب بحيرة البرلس ودمياط وفي التل الكبير، وأشار الباشا بوجوب سد قناة السويس لمنع الإنجليز من وصولهم إلى الإسماعيلية لكن عرابي النزيه حسب الإنجليز يحترمون حياد القناة وبعدها عن النزاع...

ـ غلطة عمره يا معروف.

ـ صحيح يا فيض الله ففي وقت الحرب مع العدو، عدوك الأكبر هو الخطأ وسوء تقدير الموقف، ونتيجته أن قواد الإنجليز زحفوا بسفنهم فاحتلوا بورتوفيق والسويس وبورسعيد غير سياستهم المخادعة فاستمر جنرالهم اليزون في مناوشة العرابيين حول الإسكندرية ليوهمهم أن الإنجليز في الإسكندرية ويشغلهم عن احتلال مدن القناة ولكن جنودنا صدوهم عند عزبة خورشيد فقاتلت أورطة بكباشي محروس أفندي ومحمد أفندي فودة واستمرت المعركة أربع ساعات قُتل فيها من الإنجليز خلق كبير وانسحبوا منهزمين من قدام الجيش المصري...

عبيد المنبهر بما يرويه معروف وفيض الله ظل صامتًا تدور نظراته بين الكتابين المفتوحة صفحاتهما وكل منهما يدلي بكلماته بصدق شاهد العيان لا أناس رويت لهم كل هذه الوقعات، وكل ما أفرغته ذاكرتهما هو محاولات الجيش المستميتة في الدفاع عن البلد ولكن دار في نفسه سؤال عن الناس، الأهالي من فلاحين وحرفيين وغيرهم، ما دورهم؟ وكأن فيض الله قرأ ما يضطرب في نفس الشاب المتلهف لسماع ما لم يروه أحد له من قبل أجاب:

ـ يا سلام على الناس الأصيلة المحبة لبلدها، تخيل يا عبيد لما القنصل الجبان النذل كلفن نقل كل ما في الخزانة من أموال لسفينة من سفنهم، وبعد ضرب الإسكندرية تطوع الناس في الخدمة وجند عمدة اسمه محمد إمام الحوت عمدة الصالحية شرقية أربعين مقاتلا بسلاحهم، والعمدة عبد الله بهادر عمدة جهينة جرجاوية قام بتحميس الناس وجمع الرجال والسلاح لدعم الدفاع عن البلاد وقدم العمدة ستمائة مقاتل من رجال جهينة المعروفين بحميتهم وشجاعتهم وخيول وبنادق غير كميات كبيرة من الغلال وقدم سليمان زكي حكيم من أعيان مركز طوخ وأحمد حسني مأمور مركز ميت غمر خيول وبنادق.

ـ وبعد حضور ولسلي بأربعة أيام تحرك عسكر الإنجليز بالقطارات المسلحة من القباري والرمل والسيوف فأطلق اليوزباشي أحمد أفندي فضلي مدفعًا وكنت أنا بنفسي مع الأورطة وضربنا الإنجليز وشاهدت بنفسي القائد طلبة عصمت وقائمقام أحمد عبد الغفار وأحمد بك عفت وغيرهم يشجعون جنود جيشنا على القتال، فتراجع الإنجليز إلى الإسكندرية ورجعوا للهجوم في كفر الدوار وصدناهم هناك وارتدوا منكسرين إلى الإسكندرية وبعدها شاع أن الإنجليز هاجموا بورسعيد فانتقلت فرقنا إلى هناك.

صمت معروف وسعل في شدة، نحّى الجوزة جانبا بل وأفرغ ما في جوفها من ماء عكر اصفرّ من اختلاطه بالدخان ليؤكد لنفسه عدم عودته للتدخين مرة أخرى على الأقل هذه اليوم فقد تفتحت ذاكرته العاكسة للأحداث القديمة وكأنه عاد سنوات وسنوات أيام خدمته بالجيش؛ فقد بقي أيامًا لم يذق فيها طعم النوم من فرط تحركاته السريعة مع فرقته لصد الإنجليز في كفر الدوار والانتقال إلى قرب التل الكبير، ولأنه يعرف أن فيض الله يحب قائده محمد عبيد وسيرته التي لا يمل تكرارها كلما واتته المناسبة، ومن سكوته أدرك فيض الله أن رفيقه القديم يريد منه رواية وقعات كفر الدوار..

ـ للأسف احتل الإنجليز شلوفة ونفيشة وهاجم ولسلي المجفر واحتلها واستولى على المسخوطة والحق يقال أن راشد باشا حسني كان يقاتل الإنجليز بكل جهده وبعدها استولوا على المحسمة و...

صمت فيض الله وطال وقت إطراق وجهه فقبض عبيد على كفه واقترح عليه إن تعب فلا يكمل فهز فيض الله رأسه وسرحت نظراته إلى بعيد..

ـ وقع محمود باشا فهمي في يد الإنجليز...

تارة أخرى صمت فيض الله وكأن حوادث تلك الأيام متعسرة على الرواية فأشار معروف إلى الشاب بأنه سيكمل له:

ـ ركب عرابي القطار من كفر الدوار إلى التل الكبير ومعه الحرس والضباط وصاحبه عبد الله النديم ولما وصل قطارهم الزقازيق نزل عرابي بالمحطة وجلس بكشك هناك فالتفّ حوله الناس وعلت أصواتهم وصيحاتهم ترج جنبات المحطة: الله ينصرك يا عرابي.. يا مولانا يا عزيز أهلك عسكر الإنجليز.. يا سيمور يا وش القملة من قال لك تعمل دي العملة..

رنّت ضحكة منيفة الواقفة أمام باب غرفة جدها لمنظر معروف وهو يهتف ويصفق أثناء ترديد كلمات الجملة الأخيرة، جاء الشاي في وقته؛ ليطرد بقايا خمول تسرّب إلى نفوسهم التي نشطت لاستدعاء ذكريات متوارية خلف ركام سنين حياة العجوزين، وزّعت الأكواب وجلست جوار جدها فحرك رأسه بحركة خاطفة وأفسح معروف شبرين فتزحزحت لتجاور عبيد فشعر أن قعدتها جواره هو تمام الرضاء من الجد فيض الله المتحفز لرواية ما جرى في التل الكبير:

ـ كنت بأورطة بكباشي محمد عبيد وأمرونا بحفر خنادق عرضها من مترين لثلاثة وعمقها في الأرض متر وتزيد ولما حضر قومندان مريوط علي باشا الروبي كلفه عرابي بقيادة الجيش ونصب الطوبجية سبعين مدفعًا لكن حقيقة شعرت بقلة عسكرنا؛ فرق من الجيش كانت في كفر الدوار مع طلبة عصمت وغيرهم في دمياط بقيادة عبد العال باشا حلمي، ونهش القلق صدري وتمنيت حقيقة أن يستدعي علي الروبي جميع العساكر في التل الكبير، ليلتها طار النوم من عيني واكتشفت أن طلائع وعيون الجيش يتواجدون في مواقعهم في الساعة الخامسة صباحًا وكارثة لو هاجم ولسلي بجيشه في الليل ولا يخبرنا أحد عن تحركه، حاولت أقابل علي باشا الروبي أو عرابي نفسه فعجزت ولكني أصررت على مقابلة بكباشي محمد عبيد.

ـ وقابلته؟

ـ وصرّحت له بقلقي وعرضت عليه أركب فرسا وأطلع به قدام المعسكر عند السكة الحديد وأبلغهم لو رأيت تحرك الإنجليز ورضي محمد عبيد عن رأيي ولا أنسى طبطبته على كتفي في قوة وقال لي بالحرف الواحد «لو عندنا عشرة جنود في مثل حذرك لانتصرنا في القصاصين» ووعدني أنه سيعرض الأمر في الصباح على عرابي والروبي وطلب مني أكون من ضمن حرسهم، خرجت من عنده وفوجئ العسكر برفعي للبندقية أعلى رأسي ورقصت فرحًا فابتهج بعضهم وصفقوا، أطلّ البكباشي علينا فجمد كل منهم مكانه وتوقعنا عقابًا رادعًا على الهذار أثناء الخدمة لكنه أهدانا ابتسامته الرائقة ودخل.

بكباشي محمد عبيد رجل بمعنى الكلمة، رأيه حاسم ولا يتراجع عن موقف اقتنع به، عرفته عن قرب عندما أمرنا بالتوجه من القشلاق إلى سجن سراي عابدين لتحرير عرابي بعد القبض عليه، ينفذ الأوامر ولو على رقبته.

ابتلع فيض الله ريقه وسارعت منيفة بإعطائه القلة، بدا على تقاسيم وجهه التأثر، رفع الزجاجة وتدفق السائل نفاذ الرائحة بفمه وأزبد بين شدقيه فمسحه بكم جلبابه، لا يدري سببا لرغبة عارمة للإقلاع عن البيرة أو حتى قرع بوظة خميرة، رغم أنها لا تسكره يعيش معها حالة انتشاء، ألقى الزجاجة جانبًا وحدّق في وجه عبيد، عبيد تفجرت بصدره منابع السعادة لمرافقة منيفة جواره، وطوال الوقت ملتزم الصمت ليستمع بانتباه لروايات العجوزين وهما من شهود العيان القلائل على وقعات احتلال الإنجليز للبلاد والتي يقاسون ويلاته إلى هذه الساعة وسعد زغلول ورفاقه لا يزالون في أوربا للدافع عن استقلال مصر والإنجليز هنا تمرح رصاصاتهم في صدور المعترضين أو من يتجرأ ويذكر اسم سعد زغلول، في قرارة نفسه سخر

من عسكري إنجليزي شاهده يقف أسفل عمود إنارة، أوقف فلاحة على رأسها قفة، رفع الغطاء وقلب أرغفة العيش واختار أكبرها وأخذ ينهشه ككلب جائع.

ـ زغلول وعرابي ولسلي واللنبي، حكاية تتكرّر ويمكن بعد موتنا يكون فيه عظيم مصري وخسيس محتل وفي النهاية لا يصح إلا الصحيح يرحل الخسيس ويبقى الأصيل.

قالها فيض الله ونظراته تطوف بين وجوه معروف ومنيفة وعبيد، أمال ظهره إلى الوراء وقرر ألا يسرقه الوقت فينقضي دون أن يروي لعبيد ما يريد وما تحب منيفة سماعه في أوقات صفاء ذهنه..

ـ الجنرال ولسلي داهية من الدواهي، كل همّه تقليل القتل بين جنوده، دبر وخطط ورشا ناسًا من العربان فعرّفوه دروبًا وطرقًا يصل بها وسط عساكره من مشاة وفرسان ومدافع لأقرب نقطة قرب التل الكبير فهجم من الناحية الشمالية للتل بعيدًا عن الأرض الزراعية والترع والأقنية، والكارثة الكبيرة أنه زحف في نفس الليلة التي نصحت فيها بكباشي عبيد بوجوب تواجد كشافة وطلائع على مسافة بعيدة ليخبروا عرابي والروبي وكل القادة بأي تحرّك من ناحية الإنجليز وقد تحرك عسكرهم بعد أن أطفأوا المصابيح وأي شعلة تكشف زحفهم وقرب الخامسة صباحًا قامت القيامة، داس عسكر الإنجليز استحكامات الجيش الأمامية وهب جنودنا من نومتهم وسقطوا بين قتيل وجريح حتى قبل أن يصلوا إلى الخنادق، الهجمة كانت شديدة مفزعة وشرع السودانيون من الجند في رمي الإنجليز المهاجمين بالرصاص ودون أن أخبر القائد محمد عبيد استعد وأنا جواره فاتخذ موقعًا في المواجهة وتكاتف حوله جنده السودانيون لا يتعبون من إطلاق الرصاص على أي إنجليزي ولا تتوقف بندقية الواحد منهم إلا بعد أن يخر مصروعًا ومحمد عبيد ظلت بندقيته تذيق الإنجليز الموت حتى فرغت ومددت له بندقية فشهرها وظلّ يطلق إلى أن نفدت ذخيرتها ويتلقى رصاص الإنجليز وهو واقف على قدميه، شهر الطبنجة وأطلق رصاصاتها المتبقية فأصاب واحدا من قواد مدفعيتهم مما أغاظ زميله فوجه المدفع نحو وقفتنا، صرخت: ارجع حضرة القائد، ولا إجابة له غير الثبات وإطلاق النار، واحد من شجعان الجند السودانيين وقف أمام محمد عبيد، تلقى الرصاص وخرّ تحت أرجلنا وآخر كان يحمي ظهره تحمّل عشرات الرصاصات قبل أن يسقط، أصابتنا طلقة مدفع فشبت النيران من حول التبة.

ألسنة النار تطول ملابس محمد عبيد فأطلق ما تبقى من رصاصات بطبنجته وبقيت يده مرفوعة لا يريد إنزالها إلى أن قبضت على بذلته المغبرة أزيحه محاولا إنقاذه، الطلقة التالية ألقت جسمينا فتدحرجت بعيدًا عنه، دوار ودوشة انصبّا على رأسي، لوهلة شعرت بعجزي التام عن مجرد تحريك يدي، انقشع الغبار فرفعت رأسي وأنا غير مصدّق توقف مدافع الإنجليز ورأيت من بعيد اليوزباشي حسن رضوان وحوله الطوبجية يردون على مدافع أرمسترونج بطلقات مدافعهم فتراجعوا فترة جعلتني أجثو على ركبتيّ وأبحث وسط الدخان والغبار عن قائدي محمد عبيد، الطبنجة ملقاة وعلى بُعد أشبار طربوشه، زحفت على بطني وقبضت على الطبنجة والتقطت يدي الطربوش، وقفت أتلفت وحين استكمل الإنجليز رش رصاصهم جريت، رمحت على غير هدف إلى أن وجدت نفسي وسط ما

تبقى من آلاي أحمد بك فرج وبنادق رفاقي القتلى مرمية، ثبت إحداها على كتفي وأطلقت النار رضيت حين رأيت الرصاصة تفجر الدم من جبين أحدهم، دوار واحتباس أنفاسي، دخان وغبار وطلقات تزن حولي، ركعت على الأرض وآخر ما رأيته أقدام الإنجليز وحوافر خيولهم تدوس على الجثث، ألقيت نفسي بالخندق ولم أشعر إلا بأشعة الشمس والذباب يحوم على دماء من حولي.

كزّ فيض الله أسنانه وبدت على تجاعيد وجهه كل أمارات الانكسار، أغمض عينيه وهو يشم طربوش محمد عبيد ويهز الطبنجة المفرّغة من ذخيرتها، ألجم لسانه فعجز عن مواصلة الحكي، عبيد يريد أن يعرف نهاية المصيبة، كيف دخل الإنجليز قاهرتنا الكبيرة، وهل ترك عرابي عاصمة العالم تستسلم للغازي الأوربي، فقد قرأ في كتب بمكتبة جده عزيز المصري بأن الصالح نجم الدين رغم مرضه قاد جيشه وبعد موته صد جيش المماليك لويس التاسع ملك فرنسا، وقطز خرج بجيشه وفني المغول في فلسطين ولم تدس قدم جائر أرض المحروسة فكيف؟!

أيقن معروف ما يقاسيه رفيق سلاحه القديم من معاناة حين يتذكر ما جرى من مصائب كادت تنهي حياته، فقرر أن يكمل هو لعبيد ما جرى بعد التل الكبير وما عاشه بقية الجند من انكسارات التسليم هو وفيض الله، رآه يعبث بكيس قماشي فيخرج منه قرطاسًا ملفوفًا بإحكام، مد يده لمنيفة..

ـ قهوة، محتاجين قهوة يا منيفة.

نهضت الفتاة لتجهيز القهوة، تنكة صغيرة ثبتتها على سيخي الكانون، جدها يحب القهوة سادة، ومعروف يعشقها سكر زيادة وعبيد.. لا تعرف إن كان يحب القهوة أم لا، وإن كان يحبها فستكون مضبوطة، لا حلوة ولا مرة، استحسنت الفكرة وانتظرت، انتفض كتفها للأصابع المفرودة، التفتت فجأة لمريم فنهضت من فورها وحضنتها في قوة..

ـ طمئنيني؟

ـ خطبني وجدي ينتظر عودة أبي.

ـ يرجع بالسلامة ونكتب الكتاب ونعلي الجواب.

ـ الدور عليك أنت ويوسف يا مريم.

ـ في ليلة إكليلي بالكنيسة يعقد المأذون.

ـ لأ يا عبيطة، أنا يوم الجمعة لتكوني معي وأنت يوم الأحد لأكون معك.

ـ يسمع منك ربنا يا منيفة، وربنا يبعد عنا شر خالي وابنه ويهدي فانوس.

أطرقت مريم وفتحت عينيها فجأة لفوران القهوة، اختلطت ضحكاتهما وخلال حديثهما الهامس صنعت منيفة قهوة أخرى، انتظرتها مريم لحين تقديم القهوة والعودة لتكمل معها وقعات معركتها مع عبيد.

***

(22)

... ظهر الأربعاء نفس يوم وقعة التل الكبير وصل عرابي القاهرة هو وعلي الروبي وعقد مجلسًا في قصر النيل واستشار الحاضرين فيما يمكن فعله، المقاومة أم التسليم، فاختلفت آراء الحاضرين وقام الأمير إبراهيم أحمد ابن عم الخديو وشجّع على المقاومة وقال «الواجب علينا الدفاع ما دام فينا بقية» وانتهى اجتماعهم إلى إنشاء خط دفاعي في ضواحي القاهرة، رافق عرابي كل من باشمهندس محمد مرعشلي وقائد الفرسان محمد رضا وحسن باشا مظهر لاختيار مواقع الدفاع عن القاهرة وطلب من المرعشلي وضع خط دفاعي من أمام المطرية شرق عين شمس إلى الجبل ويمتد إلى فم ريّاح ترعة الإسماعيلية واستعرض عرابي عساكره فلم يجد غير خفراء البلاد بغير ضباط وعدة أنفار من السواري وأيقن أن لا فائدة من المقاومة، فقتال الإنجليز وبقية فرق الجيش لا تزال موزعة في نواح متفرقة بعيدًا عن العاصمة معناه الموت المحقق وإن كان على الحياة تهون ولكن الإنجليز ومدافعهم تدمر أبنية القاهرة ولا ذنب للناس في موتهم.

رجع عرابي من مواقع الدفاع إلى مجلسهم بقصر النيل، أطال التفكير في البلد وما ينتظر الناس من إسالة دمهم فأعلن عن التسليم وكتابة عريضة إلى الخديو وعليها توقيع عرابي واختاروا وفدًا لتقديمها: بطرس غالي باشا وكيل الحقانية وعلي الروبي باشا ويعقوب سامي باشا ومحمد رءوف باشا حكمدار السودان السابق ومحمد رءوف هو نفسه من رأس المحكمة العسكرية لمحاكمة عرابي وحكمت عليه بالإعدام.

ـ الإعدام؟

ألقى عبيد كلمته وزفر نفسًا ساخنًا ولحظ فيض الله انقلاب سحنته الطيبة إلى أخرى ترتسم عليها آيات الامتعاض، فعبيد كل ما يعلمه أن عرابي ورفاقه نفوا إلى جزر تابعة للإنجليز لكنه اندهش من الحكم المخزي على عرابي، التفت إلى معروف وسأله: ـ والقاهرة؟

ـ تقصد وصول الإنجليز إلى القاهرة؟

ـ نعم.

ـ أمر ولسلي فرقة من الفرسان بقيادة جنرال اسمه دروري بالتقدم إلى القاهرة لاحتلالها، وأمر قائدا آخر هو مكفرسون باحتلال الزقازيق بفرقته الهندية، ووصل دروري بفرسانه إلى ثكنة العباسية، وأرسل إلى قائد جند العباسية محمد رضا باشا تجريد عسكره من أسلحتهم، لكن محمد رضا لم ينفذ وأرسل إلى عرابي بالأمر فأمره عرابي بالتسليم ليحفظ حياة ودماء أفراد فرقته، لاحظ يا عبيد أن كل ما رويناه عرفنا تفاصيله بعد المعارك بأيام وأسابيع لكن وقت المعمعة كنا حريصين على تنفيذ أوامر قادة الجيش مهما كانت.

ـ وعرابي كان في قصر النيل؟

ـ لا، عرابي كان مع أصحابه طلبة عصمت والبارودي في دار علي باشا فهمي الملازم بيته بعد إصابته في معركة القصاصين، خرجوا من عنده إلى بيوتهم وارتدى عرابي رداءه

العسكري وسيفه وركب عربة ومعه طلبة عصمت وآمر السائق بالتوجه إلى ثكنات الجيش بالعباسية وهناك سلم عرابي وطلبة السيوف للقائد دروري فأمر بحبسهما.
ـ الموت عندي كان أهون من التسليم للعدو.
ـ يا فيض الله، عرابي سلم نفسه خوفًا على البلد.
ـ ودخول الإنجليز القاهرة؟
ـ توجهت كتيبة من فرسان الإنجليز إلى القلعة وسلمها الأميرالاي علي يوسف خنفس.
ـ خنفس يا عبيد خائن، تواصل مع الإنجليز وعرّفهم خنادق الجيش في التل الكبير وقدم لهم نصيحته بالهجوم ليلا لعدم وجود طلائع تخبر عرابي عن أي تحركات للإنجليز والأنكى أنه في ليلة هجمة الإنجليز عاين واحدٌ من زملائنا فوانيس منورة من بعيد ونقل الخبر لنا لكن يوزباشي قال أنه ربما تكون أنوارًا لكشف تحركات الإنجليز.
ـ وفيه حاجة اسمها ربما تكون كذا وكذا، كان لازم يتحقق اليوزباشي وغيره من الخبر.
ـ وعرفنا بعدها أنها مصابيح أمر يوسف خنفس بتنويرها ليعرف الإنجليز ثكنة عرابي وجنده حتى اليوزباشي نفسه كان واحدًا من أعوانه.
ـ المهم، احتل الإنجليز قشلاق عابدين وقصر النيل ومعظم الجنود ألقوا بنادقهم وخلعوا زيهم العسكري ولبسوا جلاليب ورجعوا لبلادهم ولما رجعت إلى هنا كان فيض الله في بيته لا يقابل أحدًا ولا يتكلم مع أحد يرفض الطعام وحاولت أنا وأم تقاوي معه أيامًا إلى أن انفك حزنه..
ـ وعشتم بالقاهرة؟
ـ في ليلة دقّ الباب واحدٌ من رفاقنا في الجيش وأفشى لنا أن الإنجليز أقاموا محاكمة كبيرة لكل من شارك في حربهم، صراحة خفتُ وركبتُ وابور الصعيد ولا أعرف أي بلد يرمينا، نزلنا أسيوط واشتغلتُ في سوق الجمال هناك وتعرّفت على واحد يعمل في فابريكة السكر في قنا، سافرنا معه واشتغلنا هناك، كانت أيامنا مستقرة إلى أن مرضت أم تقاوي واحترنا في مرضها وقررنا الرجوع إلى القاهرة فهنا الحكيمباشية الشطار، لكن قضاء الله نافذ.
ـ الله يرحم الجميع، وأنت يا عم معروف؟
ـ أنا بقيت أخدم في الجيش لأجل لقمة العيش، لكن القهر بعينه قاسيته أنا ورفاقي حين كلف الخديو توفيق السير إفلين وود الإنجليزي سردارًا وقائدًا عامًا للجيش المصري والسير بيكر قومندانًا عامًا للبوليس.
ـ سمعتك يا عم معروف تقول أنك اشتركت في حرب المهدي.
ـ جمعوا البقية الباقية من أفراد الجيش القديم في أورطة واحدة، تحت قيادة علاء الدين باشا وسليمان باشا والقائد العام كان الجنرال الإنجليزي هيكس باشا، رحلنا إلى كردفان، لكن كل أهل بلد أدرى بموقعها، في الأسبوع الأول من نوفمبر تحركنا نحو جيش المهدي لكن قائده محمد عثمان أبو قرجة أمر بترحيل القبائل الواقعة في الطريق وردم الآبار وشحت الموارد وانهارت مقاومة الجيش المصري الإنجليزي وكانت هذه مقدمة الهزيمة، استدرج جند المهدي القوات البريطانية إلي غابة شيكان وعند وصولنا إلى الغابة

كانت القوات المهدية لابدة في خنادق وفوق الأشجار ووسط الحشائش في شكل فخ، انهال علينا الرصاص والسهام والحراب، وأشد ما أفرحني أنني لم أطلق رصاصة على واحد من إخوتنا السودانيين المدافعين عن بلدهم وما أسرّني هو مقتل هيكس نفسه، جرحت وجريت وغبت عن الوعي من الجوع والعطش وقلة النوم، ساعة عصرية تنبهت فوجدت نفسي في خيمة قافلة مسافرة إلى الشمال وتعرفت على زملاء من الأورطة، رافقتهم حتى أسيوط ومنها ركبت الوابور إلى هنا.

ـ وبقية الجيش المصري؟

ـ هلك معظمه ولم ينج منهم غير ثلاثمائة وعدة ضباط رجعوا متفرقين وحالتهم كرب في كرب، كانت هزيمة الجيش في شيكان نهاية النهاية لبقية الجيش القديم وبعدها تم تسريح الجند، توسّط لي واحد من معارفنا واشتغلت مع المشعلجية، ننور أعمدة مصابيح الشوارع لما العتمة تسحب على الدنيا ونطفئ نارها مع خيوط النور والعيال تزفنا: عفريت الليل بسبع رجلين.

ـ نرجع للبلد بعد دخول الإنجليز!

ـ مصيبة وحطت يا عبيد.

ـ والأغرب أن أهالي وفتوات باب الشعرية والحسينية والغورية وحارات ما لها عدد خرجوا بالهراوات والسيوف والسكاكين بقصد محاربة الإنجليز لكن قدر إبراهيم بك فوزي محافظ القاهرة على ردهم وأقنعهم أنه مجرد وجودهم يدفع الإنجليز لضربهم بالرصاص وأقنعوا الناس أن الهراوات والنبابيت تعجز عن مواجهة جيش هزم عسكر عرابي ببنادقهم ومدافعهم، وسلمت كل مواقع العساكر حتى حصن بناه عرابي في عزبة أصيلة احتله الإنجليز واستولوا على ما فيه من سلاح وذخيرة ونسفوا الحصن، وسلمت بقية المواقع رغم أن البارودي طلب من عرابي قبل تسليمه إغراق مديرية القليوبية ومديرية الشرقية لتعطيل زحف جيش الإنجليز وإخلاء القاهرة من الجند والانسحاب إلى الصعيد لاستمرار الدفاع عن البلد إلا أن اليأس دبّ في النفوس ورفض عرابي طلب البارودي وسلموا أنفسهم، والغريبة أنه لو رفض أي قائد التسليم يرسل إليه الخديو بأنه يجب أن يسلم ليدخل في الطاعة الخديوية.

ـ والوزارة؟

ـ أمر الخديو بتأليف وزارة موالية له وكلف شريف باشا برئاستها وعمر لطفي للحربية وعلي حيدر للمالية وحسين فخري للحقانية وعلي مبارك للأشغال وغيرهم ممن كانوا كارهين لعرابي وموالين للخديو، ومن يومها وأي وزير لازم يكون موالياً للخديو وسلطة الإنجليز المطاردين للعرابيين وانتشرت التهم والتلفيقات ووشايات ما لها عدد عن ناس بتهمة خروجهم عن طاعة الخديو لدرجة بلغ عدد المقبوض عليهم بالآلاف وعلى رأسهم كبار رجال عرابي ما عدا عبد الله النديم، اختفى عن الأنظار وهرب من بين أيديهم وتمت محاكمتهم بتهمة عصيان الجناب الخديوية وصدر مرسوم الحكم بتخفيفه من الإعدام إلى النفي ومصادرة أملاكهم وحرمانهم من رتبهم العسكرية وبعد أيام نقلهم القطار إلى السويس فركبوا باخرة إنجليزية نقلتهم إلى سيلان.

غيمة من وجوم أظلت ثلاثتهم؛ فيض الله ومعروف وبينهما عبيد وعجز كل منهم عن الكلام وكأنهم وصلوا لمحطة يلزم فيها الصمت ليستوعب كل منهم ما رواه وما سمعه من وقعات وحوادث ما كان للعجوزين اجترار ذكرياتهما لولا إصرار عبيد على حرث ذاكرتهما ونبشها يستنطق مكنونها، وعبيد نفسه لم يتخيّل أنه مهما قرأ من كتب أو موضوعات كتبت بالجرائد والصحف لا يمكن أن يروي له أحد ما جرى أيام هوجة عرابي مثل شهود عيانها فيض الله ومعروف، ووقر في نفسه أن الشجاعة شجاعة والخيانة خيانة، دار في باله ما كتبه ابن إياس في بدائع زهوره أن طومانباي فعل أقصى ما يقدر عليه وخاير بك الخائن والس عليه ومن قبله على الغوري فحدثت واحدة من أبشع كبائر الزمن من احتلال العثمانيين للقاهرة وما جرى فيها من تخريب ونهب وإرسال كنوزها إلى استنبول وشنق طومانباي على باب زويلة ولكنه ظلّ معلقًا في قلوب الناس وعاش خاير بك بقلعة المحروسة معزولا بأسوار من كراهية فالمقتول أقوى من القاتل..

ـ لكن قل لي يا أستاذ، سيادتك مهتم بالسيرة العرابية ولا أجدع شاعر يحب السيرة الهلالية؟

ـ لأني أحب معرفة ما جرى والحقيقة لي صديق محام كبير اسمه الأستاذ عبد الرحمن مهتم جدًا بكتابة التاريخ، في يوم أعرّفكما عليه لأن مكتبه في المنصورة ويعيش هناك.

صمت عبيد واستقر رأيه حين عودته إلى البيت الانعزال وقتا ليكتب كل ما سمعه من فيض الله ومعروف وإن نسي شيئا فسيسألهما والأهم هو إخبار جدته حليمة بموافقة فيض الله على خطبته لمنيفة ويبقى انتظار وصول أبيها لإتمام ما سيتفقون عليه وتعيش منيفة معه ومع جدته في بيتهم الكبير ويتنفس معها شذا زهور اللالا التي يحب زراعتها في كل شبر بالبيت.

سلم على منيفة وهذه المرة أطبق على كفها بكلتا أصابعه وتواعدت نظراتهما على مستقبل الارتباط، أمنية واحدة تلاقت بنفسيهما هي عودة تقاوي، تنحنح فيض الله الواقف خارج البيت فاستقام عبيد في مشيته، ما إن وصل إلى منتصف ممر الربع الضيق حتى ولجه مشهور والقرد على كتفه، صلصلت صاجات الرق وقفز ميمون على الأرض وأخذ يتشقلب وعبيد يضحك على حركاته، شد مشهور السلسلة وسالت دمعة من عينه..

ـ هدّوا العشة بحجة توسيع الطريق وعرفت أنه كامب للإنجليز، والليلة نمت أنا وميمون على عتبة الحسين.

تلاقت نظرات معروف وفيض الله على مصير الرجل المسكين الساكن هو وغيره من مساكين البلد في عشش على أطراف النواحي فأمسى الآن بلا مأوى، لم يثقل فيض الله على معروف بأن يؤويه مثل خميرة بائع البوظة، فسرّح بصره إلى بيت محمود البنهاوي المغلق.

ـ مبيتك عندي يا مشهور، ابق هنا.

فرح مشهور ورقصت قامته القصيرة والنحيلة وقلده ميمون، بمداومة المهنة مد الرق فرنت القروش التي ألقاها عبيد وسط جلد الرق، فاتسعت عينا مشهور..

ـ الله عليك يا أستاذ يا محترم، خمسين قرشًا حتة واحدة، تكفيني أنا وميمون أيامًا، سلم على الأستاذ يا ميمون.

سلم عليه عبيد وسحب كفه بسرعة، لخشونة شعره الكثيف، فرد منديله ليمسح يده فاختطفه القرد بحركة مباغتة، مما أثار ضحكهم..

ـ ربنا يجبر بخاطرك يا أفندي كيف ما جبرت بخاطر ميمون.

ـ هاصت معك يا مشهور أنت وابنك.

ـ نوم العازب يا ميمون.

ـ وإن شاء الله يكون نوم المتزوج.

تارة أخرى تبادلوا الضحكات وودع فيض الله عبيد وحمّله سلامًا لجدته حليمة، عاد برفقة معروف..

ـ شاب محترم يا فيض الله.

ـ وراغب في منيفة وطلب يدها.

كالماء البارد نزل الخبر على معروف فانفرجت شفتاه بابتسامة عريضة وشعر بنشوة انتشار الفرحة بين جنبات قلبه، حضن رفيق عمره في قوة وربت على كتفه، فأكمل فيض الله بقية الخبر: ـ وطلبت منه ينتظر عودة تقاوي، لكن خائف يا معروف.

ـ من حليمة هانم؟

ـ أبوه عصمت الشركسي، قال أنه استقر عند أهل زوجته الجديدة في أسطنبول لكن لو رجع أخاف يهين منيفة.

ـ والله لو فعلها لأبقر بطنه وأقطع مناخيره المرفوع، نعل بنتنا أكرم منه ولو على تجهيزها أبوها يرجع ومعه الستر كله.

ـ نطقت بما في بالي يا معروف.

ـ اطمئن والحال يبقى عال العال أربعة وعشرين قيراطًا.

لم يكد معروف يتم كلمته حتى جلجلت عربة خميرة وليس عليها زير البوظة والقرع المقلوب على بعضه فحسب بل رص عليها مواعين وزكيبة وصررًا مربوطة، أمامهما التقط أنفاسه.

ـ حكايتك يا خميرة؟ البلدية هدت عشتك؟

ـ لا، فتوة الحارة حط يده عليها وعلى غيرها وغرضه يبني قهوة.

ـ لا حول الله.

ـ ولا يهمك يا خميرة، تعال.

قاده فيض الله ومشوا تجاه بيت البنهاوي المغلق، فتحه وأول من دخل مشهور والقرد على كتفه، بص عليه خميرة..

ـ لكنه مشقق يا عم فيض الله.

ـ ومسنود من حيطان جيرانه، لا تخف.

ـ مشقق مشقق أحسن من النوم في الشارع، أنا وأنت ننام فيه وميمون يتسلطن من قرع البوظة.

لا مفر لخميرة من مأواه الجديد وعلى رأي القرداتي حيطان تستر أفضل من الشارع، أنزل أغراضه الشحيحة وارتاحت نفسه لمجاورة المشعلجية الطيبين والمكان متسع لصناعة جرار

البوظة.

***

(23)

الثلاثاء الخامس من الشهر الكريم، شعر فيض الله بسأم، قرع باب معروف فأجابه صدى الصمت، خطا في هدوء ليقضي وقتاً بقهوة المعلم حسين وهو متأكد أنه سيكون الوحيد الجالس دون مشاريب، رفع حاجبه للرواد من أفندية واستغرب قعودهم مخالفين سمرهم بعد العشاء، وكأن دكته المنزوية تنتظر قعدته فتهالك عليها وهمّ أن يسأل لولا صوت طلقات كبيرة تدوي، فألقى هلال أفندي الجرنال على المنضدة..

ـ بدأ العرض.

ـ وما لنا وعيد ميلاد ملكهم.

اختلط الأمر على فيض الله وتأرجت نظراته بين الأستاذين هلال أفندي وجاره صليب أفندي اللذين عادا لصمتهما وصليب أفندي يعدل نظارته ويهم بالعودة إلى قراءة الأهرام، همّ بالسؤال فأقبل عليه معروف وأفرغ القربة بجردلين، حمل أحدهما صبي القهوة وشرع يملأ القعب ويرش بين المناضد فوشوش له محروس أفندي، بدوره تهالك معروف جوار صاحبه..

ـ أعلام الإنجليز مرفرفة على مبنى المحطة وغيرها من دواوين الوزارات.

ـ وطلقات المدافع؟

ـ اسأل الأفندية.

ـ قلْ يا هلال أفندي، سبب عطلتكم اليوم؟

ـ اليوم الثلاثاء ثلاثة يونيو عيد ميلاد الملك جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى، عطلة رسمية للموظفين وأطلقوا المدافع.

ـ ونفس يوم الثلاثاء من ستة مايو الماضي كان الاحتفال بعيد جلوس الملك جورج الخامس وتعطلت المصالح من الإسكندرية لأسوان ومعها شبت المظاهرات ضد احتفال لا ناقة لنا فيه ولا حتى سخل صغير.

إجابة صليب أفندي الأخرى كنصل ثان أصاب صدر فيض الله وهزّ رأسه في ألم وصوت حاد ينحر قلبه: ما لنا وعيد ميلاد ملك الإنجليز أو جلوسه على العرش، لهم حق في فعل الأفاعيل ما دام السلطان نائما في العسل، التفت معروف لمحروس أفندي الصامت وهو يحرّك ملعقة الشاي بصوت خافت، رفع إصبع البقسماط وأقحمه في الشاي حتى لان وبدأ يأكل، على المنضدة بسكويت من نوع إنجليزي، فضّ ورقه وتناول شقفة..

ـ تحب البسكوت الإنجليزي يا محروس أفندي؟!

ـ طبعا، نظيف ويشبّع.

ـ يا أخي، إذا بليتم فاستتروا.

ـ ومن قال لك أني مبتلى، جعت وأفطر كعادتي.

ـ لكننا في الشهر الكريم؟

ـ وربنا الكريم يتجاوز عن المضطر وأنا مضطر لألم جوعي، أكيد عندي حق على رأي الشيخ عبد الحق.

في لا مبالاة قالها محروس آفندي وارتفعت ضحكته المبتذلة وهو يتصوّر أن القاعدين سيبادلونه الهذار، لكنهم أجابوه بصمت مطبق فاستاء فيض الله من منظر الأفندي وهو يرفع كوب الماء واستخسر فيه حتى العتاب، مشهور يقترب بصخبه المعتاد، يلقي عليهم بالتحية وميمون غير راكز في مكان، ويباغت محروس أفندي بالقفز قريبًا منه، مشمئزًا يلقي إليه بكسرة بقسماط فيتناولها القرد وبدأ يقرقش ويضحك مشهور وهو يغني:

يا فاطر رمضان يا خاسر دينك
كلبتنا السودا تنهش مصارينك.

***

الأسبوع الأخير من يونيو خانق وتشبّع الجو بموجة شديدة الحرارة، والصيام يشق على فيض الله ليس من فرط العطش لكنه يحرمه زجاجة الخواجة لينوس أو الخواجة توما أما جاره الأثير معروف فيقاسي جفاف زوره وتشقق شفتيه فيلحسهما بلسانه، ويمضمض فمه ساعة بعد ساعة، التصاق جلده يشجعه لأن يغطس بدنه في مياه النيل فيجف جلبابه أثناء تطوافه لإفراغ القرب، ومع أول تكبيرة يجرش عدة بلحات ويشرب بلعتين من القلة والتالية يشد نفس الجوزة، ويظل إلى السحور يترع الماء وينفث الدخان، ومنذ أول يوم فرمه العطش ويبس حلقه وحين رنّ أذان المغرب سارع إلى إرواء جفاف لسانه حتى كاد يلحس فخار القلة وقال:

ـ طيط يا رمضان فاضل فيك عشرتين وتسعة.

فضحك عليه فيض الله والقرداتي مشهور وخميرة الذي يعجز عن تحمل العطش فلا يصوم ويعلل عصيانه بكثرة تذوقه للبوظة أثناء تجهيزها، ويفترش هو ومشهور الأرض وينخر خميرة النقر المتوازية فتملأها بكلاب السيجة، وميمون يتناول الطوبة ويلقيها بعيدًا، أيام رمضان لم تجبر الناس على السكينة فكل يوم يحتج الطلبة مع الكثيرين من الأهالي والوطنيين على تعسف الإنجليز وخنوع السلطان فؤاد لإرضائهم، فكل ما يصرّح به وينشره في الوقائع المصرية وجرنال المقطم هو وجوب كف الناس عن أعمال العنف ولا يتناول جرائم الإنجليز اليومية في أحياء القاهرة وغيرها من بلاد.

فيض الله فرض على نفسه التزام البيت نهاره وساعات من ليله وبقية اليوم على قهوة حسين أو بين مهاترة معروف ومشهور وخميرة، أما منيفة فتقضي وقتها في تجهيز الإفطار أو مع مريم ومواستها، كما واسى فيض الله ومعروف جارتهما دميانة في موت أخيها منصف برصاص البوليس أثناء نقله بضاعة من السويس إلى مصر القديمة عبر الصحراء فحزنت أم فانوس على مصير شقيقها وترحّمت على الطيبين أبيها وأمها، واحتجت بالحادثة على ابنها فانوس فلا يهتم ويعمل أذنا من طين وأخرى من عجين، ويزداد إصراره على تزويج أخته بعشم لولا مصرع خاله فتوالت عليهم أيام أسود من الكحل ومرّ عليهم برمودة[32] والعيد الكبير[33] وهم في حزن ولم تنهض أم فانوس لعمل الكعك والفايش والفطير، أما مريم فلم يترك خالها في نفسها عاطفة سوى أنه أخو أمها الآكل حقها من ميراث، وحزينة لحزن أمها فقط لا غير وفانوس زادت عاطفته تجاه عشم ابن خاله وأصر على تزويجه مريم وبيع البيت وانتقال أمه لبيت خاله فزعقت فيه دميانة: ما وافقت وخالك حي، أعيش فيه بعد موته!

بمرور الأيام التزم فيض الله البيت، يمضي ساعات الحر في تحريك يده بقطعة خشب رقيقة وحين يملّ يسندها جانبه ويعود للتفكير في تقاوي وشعور قوي يداخله أن عودته وشيكة، فالعيد قرّب والليلة ليلة السابع والعشرين من رمضان، بعد العشاء قدّم له خميرة قرعة بوظة فنحاها جانبًا وترك قعدتهم على حصير أمام البيت، سأل عن القرداتي فأخبره معروف أنه يسرح في العشر الأواخر أمام الجوامع وتكايا المجاذيب ورآه مرة وسط لمة عيال عند سبيل أم عباس، صعد فيض الله سطح البيت ورفع وجهه إلى السماء، دعا ربه بصدق أن يستر تقاوي ويرجع بالسلامة.

عاد يفكر في منيفة وعبيد وخطبتهما المعلقة منذ أن طلب يدها ومرهونة بعودة تقاوي وكرم حليمة هانم الذي لا يضارع فعزمت عليهم الإفطار عندها ومنتصف رمضان أرسلت عبيد بفخذ ماعز وجرتي عسل وسمن بلدي وصينية كنافة، فأفطر معهم في بيت فيض الله وصلوا العشاء والقيام بباحة مسجد ابن طولون وأمضى سهرته بينهم حتى قرب الفجر مما دفع جدته كعادتها إلى إرسال الحنطور والجناييني يرافقانه العودة إلى البيت.

نسمة هواء حامت حول فيض الله فاستطاب طراوتها، قعد وظهره يسنده الزيار وظلّ مطرقًا رأسه على عب الجلباب حتى هزّته منيفة برفق، نبهته لقرب انتهاء ساعة الإمساك ولم يتسحّر، نزل معها وتناول لقيمات مغموسة بماء الفول، أغفى قليلا لحين أذان الفجر.

انفرجت رموشه على تقاوي وهو يحضنه، يرتدي جلبابًا ثمينًا لم يره عليه من قبل وعلى كتفه زكيبة المال، ألقى حمله وأخبر أباه أنه تزوج بسيدة ويسكن معها في موشا، يلتفت فيض الله للقامة خلفه، نغزه الفضول ليعرف مَن فسحب تقاوي البرقع عن وجهها، آهة مكتومة ندت عن فيض الله لوجه نجية أم منيفة ودار بين شقي الرحى، أتكون زوجة ابنه بكل هذا النور المشع من بين أسنانها البلورية المصفوفة وابتسامتها العذبة وحور عينيها، ولماذا تزوجها وهي في الأصل زوجته؟ لكنها ماتت منذ أعوام طويلة.

لفّ تقاوي ذراعه حول كتفها ودخل الباب وأغلقه خلفه وفيض الله مشلول عاجز عن إبقائه، ولسانه منعقد عن مناداته فضمّ قبضته وقرع الباب أخذ يدق ويدق وصوت النقرات تتعالى رموشه تتباعد وبؤبؤ عينه ساكن وقبضته تضرب الهواء، في تخوم ما بين الحلم واليقظة تصل الدقات إلى أذنيه، الكوة أعلى الجدار ينبئه ضوؤها الصافي بأول النهار، تحامل على نفسه ونهض متكئًا على عكازه، نقم على خميرة فربما يعوزه ماء أو كسرات خبز وحفن شعير يخلطها ليزيد من البوظة، وربما.. يكون تقاوي، نعم هو تقاوي، أخيرًا رجعت يا تقاوي وتعيّد معنا، حافيًا مشى فرأى منيفة سبقته لفتح الباب راجية أن يكون الطارق أباها، ظهرها متخشّب أمام الوجه المألوف ولا تدري أين رأته أو في أي يوم، تنحّت مفسحة المطرح لخطوات جدها المقتربة فجحظت عيناه لوجه عطية الواقف جواره زكيبة وصرة وتقبض أصابعه على طرف الشومة الغليظة فارتعشت شفتا فيض الله:

ـ عطية!

ليس من المألوف أن يتقدّم الضيف على صاحب البيت حتى لو كان من الأقربين، تزحزح فيض الله وتسرّبت نظراته إلى المصطبة لربما يكون تقاوي متعبًا ويستريح عليها وترك عطية يقرع الباب، سقط قلبه لفراغ المفرش وابتلع ريقه وتفجر سؤال يرهب إجابته فوافته دموع

عطية الذارفة، وإحاطة ذراعي الرجل الصعيدي القويتين تحاولان ضمه، لثوانٍ استسلم فيض الله ثم أبعده وصوته المبحوح يشرخ زوره:

ـ تقاوي يا عطية!

تخبط الاسم بعقل منيفة، أبوها سافر لخالها وخالها حضر بمفرده ودموعه تبلل شاربه، وجدها يسأل والصمت مخيف فلا إجابات غير... رجّت صرختها جنبات الربع وانهارت على أرض المجاز، بوجه مخطوف أحاطتها أم فانوس بذراعيها وأقامتها مريم وسحبتها إلى غرفتها ومعروف قطعت هرولته الأمتار القليلة بين البيتين، خميرة ومشهور تسابقا لاستعلام الخبر، أراح معروف جاره على المصطبة وأتي خميرة بالدكة الخشبية أحاطوا فيض الله واستحال وجومه إلى انقباضات كرمشت تجاعيد أكثر ولسانه يهذي:

ـ تقاوي، مت يا ولدي، اندفنت في بلد غريب، حرام عليك يا عطية، أخبرني وأشوفه وأدفنه بنفسي، تقاوي، حلمت بنورك يا ولدي، تقاوي مات يا معروف، وحيدي وسندي وصاحبي.

ـ وحّد الله يا فيض الله، ربنا يعلم يا جماعة إني ما لي ولد وتقاوي كان ولدي.

تواترت كلمات مواساة معروف لجاره الملتصق به يربت على كتفه فدار رأس فيض الله فأماله على كتف صديقه، ولا يزال لسانه يهذي، عطية يعصّب رأسه بشملة ثقيلة والعرق ينز على وجهه، بمنديله يمسح وجهه، قدم له خميرة كوبًا فأشاح معلنا عن صومه رغم سفره الشاق.

حمل مشهور قرده وغادر الربع، شاع الخبر ولم تمض ساعة إلا وحضر المعلم حسين وصبيان القهوة، يعزون فيض الله ولما وجدوه يطرق وجهه فلا يرى ولا يسمع ولا يدري من يحضر ومن يمشي، استأذنهم حسين ووعد معروف بالحضور بعد المغرب، كئيبة تنزلق ساعات النهار وأشعة الشمس تلهب أرض الربع، أم فانوس من حين لآخر تطلق عديدها حزنا على تقاوي ورحيله غريبًا عند أهل زوجته:

ليه يا غريب ما مت في بلدك

شيعتك كبيرة يعززوك أهلك.

بكاء منيفة متقطع ويريد فيض الدخول عليها، أنهضه معروف ورافقه مع عطية ليلوذوا ببيته، عطية الصامت يريد أن يفصح عما جرى لزوج أخته ليبرئ ذمته أمام أبيه وبنت أخته اليتيمة وفي نفس الوقت يحذر أن يحكي في وجوده ببيت غريب ولو كان جاره فليكتم وينتظر خلوته بفيض الله ومنيفة.

منيفة الساهمة، انسحبت نضارة وجهها وحلّ محلها الشحوب، مريم وأمها تطيبان خاطرها، ولم تتركاها إلا حين أتت تريزا وأم يوسف وسيدات من العطفة المجاورة تعزي كل منهن منيفة وتدعو لأبيها، ساعات اليوم تتسرّب ومنيفة تغفو وتتمنّى لو أن خبر رحيل أبيها بعيداً عنهم كابوس ترجو أن تستفيق من ثقله، ولا مت نفسها أشد اللوم أنها لم تلح على جدها ويرحلان إلى موشا وتصحب أباها إلى هنا أو ترعاه إن كان مريضًا، شكا لها مرة بعلة قلبه ومنعها من إخبار جدها فيض الله، وهرس نفسه بين عمله في إنارة مصابيح أبواب بيوت الحارات وقناديل الجوامع وشغله في القهوة ورعاية حديقة حليمة هانم، وهذه وحدها كانت

ستمنعه منها بعد تقدم عبيد لخطبتها؛ عبيد، عرفت بالخبر يا حبيبي؟ انتظرنا آبي كي تقرآ معه الفاتحة لكنه مات.

أجهشت بالبكاء وتريزا تضمها إلى صدرها، أم يوسف تقرب من فمها قلة الماء فتشيح منيفة بوجهها، تطرق أم يوسف وجهها لنسيانها أيام الشهر الكريم، دخلت مريم وأشارت إلى تريزا وأمها أن تعودا إلى البيت، أمالت منيفة رأسها على كتف مريم وتركت نفسها للنوم وفي أنحاء نفسها رجاء أن يكون كل ما مرّ حلمًا آخر وأبوها يستريح على سريره.

***

انحسرت أشعة الشمس مع ميلها إلى المغيب، فترات النوم المتقطع أراحت جسد فيض الله، تأبط ذراع معروف، خطوا جوار عطية نحو المصطبة وزادت أم فانوس دكتين لاستقبال المعزين بعد الإفطار، أمسكت مريم بطرف مفرش كبير فبادر معروف وخميرة بفرده على الأرض المكنوسة، في انتظار الأذان جلسوا متحلقين، القلل وطبق البلح الكبير أمامهم، خطوات تدب وأقبل المعلم حسين خلفه صبي القهوة على رأسه طبق مستدير، برفق ركنه على المفرش ورفع الملاءة الخفيفة وبادر خميرة في رص الصحون، بالإضافة لما وضعته أم فانوس ودخلت مع مريم لتتوليا إفطار منيفة، أذن المغرب فلاكت أسنان فيض الله تمرتين وشرب الماء، أراح ظهره إلى جدار المصطبة فحلف فقدم إليه معروف نصف الرغيف، عاف الأكل فتولى المعلم حسين إطعامه، بأصابعه قرب من شفتيه المضمومتين رغيفًا بقلبه هبرة لحم وحين مال برأسه وتمنع علا صوت حسين..

ـ عليّ الطلاق لتأكل، يرضيك أطلق أم العيال!

بمضض يمضغ فيض الله ومن حين لآخر يرسل نظرة حنق على عطية، عطية رغم صومه وسكة سفره الطويل جبر الزاد بلقيمات قليلة فحلف عليه المعلم حسين ليكمل إفطاره..

ـ فطرة رمضان حاجة وظروفنا حاجة، وإلا الجدع منا يقع من طوله..

معروف يلقم فم فيض الله باللقمة تلو الأخرى حتى رفع يده بالكف وشرب الماء، أراح ظهره ولملم صبي القهوة الصحون وحلة الطبيخ، بقي معهم المعلم حسين يدخن سيجارته، ويحكي عن ناس ربنا افتكرهم في غربتهم لكنه سترهم بأحسن ما يكون، وفيض الله صامت محتسب صبره لحين انفضاض الناس فينفرد بعطية ويعرف ما حدث لولده، بعد العشاء تواتر رواد القهوة والجيران ومعارف فيض الله وكل من وصله خبر وفاة تقاوي المشعلجي عند أهل زوجته بأسيوط إلى الربع يعزونه، ومعروف وخميرة والمعلم حسين وعطية ويوسف حتى مشهور حبس قرده ووقف جواره يتلقى العزاء غاب عنهم فانوس المقيم مع عشم ابن خاله على غير رضا أمه، وسط لفيف من الأفندية أقبل عبدون الشاعر جوار الشيخ عبد الحق، وهيأ لهما معروف كرسيًا في المنتصف، شرع عبدون في تلاوة ربع من القرآن الكريم، يصدّق فيبدأ عبد الحق حتى أنهى عبدون الليلة بقصار السور وختم بالدعاء للميت وموتى المسلمين، فيض الله القاعد يمد يده فيسلم عليه الرجل تلو الآخر ولا يدري من حضر ومن فارق، صبيان المعلم حسين يأتون بصواني الشاي وتدور على المجاملين غير قهوة أم فانوس، وقلل الماء البارد لإرواء عطش الصائمين طوال النهار، بما فيه القسمة ضمّ صليب أفندي يده بكف صاحبه الأستاذ هلال والأخير بدوره أضاف ما جاد به إحسانه من قروش قليلة ومنحها لفيض

الله، أحاطاه بكلمات المواساة والتعزية وانصرفا متجاورين كما آتيا معًا، ساعتان واستآذنهم المعلم حسين ورافقه معروف إلى أول الشارع..

ـ تقاوي مرض ولا حادثة!

ـ والله يا معلم حسين علمي علمك، راح وسره معه.

قالها معروف كي ينهي فضول صاحب القهوة وهو يعلم تمام العلم أن السر مع عطية وفيض الله لن يتركه بغير معرفة ما جرى لولده، يستأذنه عبدون فيدس معروف في يده الفلوس، يشيح الرجل بوجهه مؤنبًا..

ـ والله ما يحصل أبدًا، عيب يا رجل تعطيني أجرة وفيض الله طول عمره ينور لنا شوارعنا، ومصابيح بيوتنا.

ـ تكرم يا عبدون.

ـ والمرحوم تقاوي كان يفرش لي الحصير قبل ما أضرب على الربابة.

ـ ربنا يرحمنا جميعًا، شكرًا يا عبدون ونجاملك في الأفراح.

ما يهم فيض الله أن يخبره عطية بما جرى لتقاوي والليلة قبل الغد، يحكي له أولا ثم يخبر منيفة بطريقته، قرع باب أم فانوس فأطلت جارته، وسوس لها فدخلت البيت وخرجت وبينها وبين مريم تجرجر منيفة ساقيها، ما إن رأت جدها حتى ارتمت في حضنه ونشيجها لا ينقطع، تركتها صاحبتها تفرغ حزنها وفيض الله يلف ذراعيه ويضمها بقوة إلى أن شدتها مريم برفق إلى بيتها..

ـ نتكلم هنا أو...

ـ لا يا معروف، ندخل البيت.

تقدمهما فيض الله بمسرجة وقادهما إلى داخل حجرته، الغرفة ضيقة حارة فشعر عطية بالاختناق وضاق معروف بها..

ـ ممكن نطلع السطح ونبقى لوحدنا.

استسلم فيض الله للفكرة وحقيقة محتاج المكان المفتوح فجدران حجرته كادت تطبق على ضلوعه، صعدوا السلالم ووسط السطح تكور فيض الله على نفسه وقبالته تربع معروف جوار عطية، كل منهم ينتظر بداية سؤال فأنهى معروف تردد المبادأة:

ـ يا حاج عطية، حليمة هانم معرفة فيض الله، لها بنت متزوجة في أسيوط، أرسلت لزوجها تسأل عن تقاوي.

ـ حصل يا شيخ معروف، وصلت كرتا[34] لموشا وفيها مستوظف بالري سأل عن تقاوي فقابلته وعرفت مرسله...

ـ ووصلنا تلغراف فهمنا منه أن تقاوي بخير.

هنا أطبق عطية شفتيه وأطال النظر في وجه فيض الله الصامت طوال الوقت وأناب جاره ليتكلم بما عجز، عطية طول ساعات سفره الطويلة لا يدري كيف يخبرهم بما جرى لهم بعد خروجهم من وكالة الخواجة متشولح، صمّم على ألا يفصح عما وجده من كنز الدفينة بحوش البيت ولكنه في قرارة نفسه لا يمكن حرمان ابنة أخته من ميراث أمها من ذهب اللقية بل زاد عليه من نصيبه ليعوضها موت أبيها وفيض الله الذكي رغم طعنة رحيل ابنه سيسأل عن مصدر

المال الكثير فلا القراريط ولا زرعها ولا حتى البهائم تأتي بكل هذه الجنيهات المصرورة داخل الزكيبة، فالأفضل أن يصارحه بكل ما جرى ولكن هل يضمن جارهم معروف؟

قد يثرثر بين أهل الشارع أو الحي بما أتي به لفيض الله والرجل عجوز ضعيف وربما يستفرد به واحد من أهل المطامع والشرور أو فتوة فيهشم رأسه بالنبوت ويسلبه ثروته التي ضحّى تقاوي من أجلها وهاجر إلى موشا في بداية شجار طلبة المدارس والأهالي مع الإنجليز.

حوادث تلجئ أي إنسان إلى القعود ببيته، وأوصاه قبل موته بتوصيلها لأبيه ومنيفة، وربما يطمع معروف نفسه في مال جاره، تضايق من فيض الله وتمنّى لو انفرد به أو على أقصى تقدير يكون معهما منيفة، فلن يغامر بإفشاء السر أمام غريب..

ـ قل يا عطية، معروف أخي.

أخيرًا نطق وحسم ما قلق منه عطية فانحسرت موجة شكوكه، تفرّس وجه معروف فلمس فيه شبهًا بفيض الله لولا أن الأخير بشرته دكناء، وورثها لمنيفة بملامح جميلة، همّ أن يطلبها فلاحقه فيض الله..

ـ لو على منيفة فأقول لها بطريقتي.

لم يجد عطية مفرًا من الكلام فاستغفر وحوقل وقرأ الفاتحة والصمدية وبدأ يحكي منذ أن استقبل تقاوي ببيته وتعريفه بالدفينة ونزولهم المقبرة وقرار العودة بعد مشوار الخواجة متشولح، ارتعش صوته وهو يصف إنقاذ تقاوي للسيدة من اعتداء العسكري الإنجليزي وإصابته النافذة بصدره ومحاولة إسعاف أهل دُرُنكة، صمت قليلا وانكسرت عيناه وهو يستأنف:

ـ تقاوي رحمه الله شديد، تحمل الحنطور إلى أن مدّدته على السرير، محفوظ ابن عمي حكيم جرايحي بالصحة كشف عليه ووضع على الجرح مطهرًا وضمده، تعافى وأكل المسلوق والمطبوخ، طيبت خاطره من تأجيل العودة لكنه كان يقول كل تأخير وفيه الخير، يمكن لو ركبت الوابور كان فتشنا الإنجليز ونهبوا ميراث منيفة.

يومان ووقف على رجليه، طلب أصحبه إلى الحوش ووقف قدام المنامة وقرأ الفاتحة على روح نجية، وكلمها كأنها قاعدة على المصطبة، تراخى وكاد يقع لولا أن سندته أنا وماهر وعاد معنا لسريره، نام فعدت إلى الغيط أحرث الأرض وفي آخر النهار جاءني سيد يجري وأخبرني أن تقاوي متعب ويريدني، جريت على البيت، ركعت قدام السرير، وجهه منقبض وعرقه يغرق جلبابه، فردت كفي على رأسه فانتفضت من سخونته، طوال الليل أنا ومحفوظ وماهر حتى أم العيال نغطس الفوطة ونفردها على جسمه ونسقيه الماء وعصير الليمون إلى أن ابترد قليلا ونام، على الحصير نمت جواره، تغمض عيني وأصحو على صوت اختلاط كلامه، يكلم منيفة وأمها، يطلب منك أن تسامحه لو قصّر معك، ويختفي صوته وترتعش شفته ويدخل في دوامة هذيان ثم تنتظم أنفاسه وينام وكنت على أمل أن يتحسّن في الصبح، قرب الفجر انتبهت على صوته يناديني، طلب يشرب فسقيته، همّ بالنهوض فوضعت المسند خلف ظهره، فرحت لذهاب مرضه حتى قبل الصبح، وأوصاني:

ـ أرجوك يا عطية، لو تحب أختك توصل نصيبها لمنيفة وعمك فيض الله.

ـ آنت شفيت يا تقاوي ويوم آو يومان وتقدر تسافر، آنا بنفسي آركبك الوابور وآفضل جنبك إلى أن يتحرّك.
ـ جسمي همدان وشكلها نومة بلا قومة يا عطية.
ـ بعد الشر ترجع ومعك ما تتزوج به.
ـ أتزوج، ربنا يفرحك بأولادك، اسمي تقاوي وعشت طول عمري من غير بذور، الحمد لله، وصيتي الأخيرة تدفني جنب نجية، هي نفسها زارتني في الحلم وأفسحت لي مكانًا جوارها.

كلامي كان آخر حوار معه، صدقني يا عم فيض الله ما قصّرت في شيء، طلب أساعده على الرقاد، فردت عليه الملاءة وعدت أنام جواره، في الصباح صحوت على خبط سيد على الباب وبين يديه الإفطار، ركنه وهززت تقاوي مرة ومرتين، رفعت يده وتركتها، جرى ماهر على محفوظ ولكن كان السر الإلهي طلع، أخفيت أغراضه وصرّة الجنيهات وحضر أولاد أعمامي، وقفت على غسله وتجهيزه وآرحته كما أوصى جوار زوجته أختي نجية.

دفن عطية وجهه بين كفيه وبكى بحرقة وفيض الله واجم وجوم الجبل يرمق عطية بعين متورمة، وارتمت أمامه ومضات حلم لم يخمن تفسيره إلا الليلة، معروف يمصمص شفتيه ويهز رأسه في أسف حقيقي لما أصاب ابن جاره، ووقر في نفسه أن بينه وبين الإنجليز ثأرًا قديمًا أيام هوجة عرابي جدده موت تقاوي، ما دار في خاطر معروف تفجر بين جنبات صدر فيض الله، والأمر الهام الآن هو منيفة وارتباطها بعبيد، يسترها أولا وبعدها يكون ما يكون.

***

برمودة: من الشهور القبطية.
العيد الكبير: عيد القيامة.
كرتا: عربة صغيرة يجرها فرس.

(24)

استمرت قعدتهم على السطح إلى قرب ساعة السحور، أطباق الفول المدمس والجبن والعسل جهزتها منيفة ومريم، بعد سحورهم أراح عطية بدنه بحجرة تقاوي، من حين لآخر يطلّ على الزكيبة والصرّة الكبيرة فيهز رأسه أسفًا إلى أن جثم عليه التعب فنام، وحين صحا جلس على دكة مجاز البيت، فيض الله تحوطه غلالة من حزن مصبوغ بالحسرة ورغم أنصال الهم المغروزة بقلبه توجد أسئلة أخرى تؤلمه كوخز الإبر، مُصدّق حكاية عطية، وتحمله مسئولية الرحيل من بلده موشا إلى هنا وتسليم أمانة تقاوي ومنيفة يَنم عن إنسان أمين نظيف الذمة ومن قبلها أرسل لتقاوي يطلب مجيئه ليعطيه الميراث، لكن...

ـ تسأل عن ردي على موظف باشمهندس الري زوج روحية هانم، أقول لك يا عم فيض الله، بعد دفن المرحوم تقاوي بأيام حضر رجل يسوق حصان الكرتا يسأل عن تقاوي، قلت له أنه بخير لكنه نائم وحمدت ربنا أن المرسال لم يطلب مقابلة تقاوي وحضوره معه لأسيوط في بيت باشمهندس الري أو يكلمه كلمتين، فضلّت أسافر بنفسي وأتحمّل ثقل خبر موت زوج أختي المفجع وأسلم لك ولمنيفة حاجته بدلا أن يصلكم الخبر ولا أحد يقف جنبك يا عم فيض الله.

ـ كلنا هنا أهل يا عطية.

ـ فاهم يا عم معروف، صدقني خفت خوف الجن على عم فيض الله وخطر سفره لأسيوط والبلد حط عليه الموت من السماء بعد أن ضربه الإنجليز بطائرة وفيها قتل وضرب ومحاكمات، قلت أنفذ وصية المرحوم وأقوم بالواجب مع بنت أختي.

ـ فيك الخير يا حاج عطية.

فيض الله الساهم طوال الوقت تقبل قضاء الله وقدره، وحمده أن تقاوي وجد من يواريه التراب معززًا مكرمًا جوار زوجته، فلو أنه أصرّ على السفر وحدث المكروه في الطريق لسُرق وألقي به وسط الزراعات تنهش جثته الكلاب وأقصى ما يناله هو دفنه في مدافن الصدقة، عطية الشهم أخبره بأن عائلته أقامت سرادق عزاء لزوج أخته، وعمدة موشا وشيخ البلد وغيرهم قاموا بالواجب، غير أنه أحسن التصرف في رده على مبعوث السيدة روحية بنت حليمة هانم فلو الخبر وصلهم فماذا كان يمكن أن يفعل هو أو البنت الطيبة أو حتى صديق عمره معروف، ستطبق قلة الحيلة على الجميع ولا يتبقى غير الحزن والشك والحيرة لما حصل وجرى، أشار عطية إلى حجرة تقاوي، تحامل فيض الله وقادهما نحوها، غاص ساعد عطية داخل الزكيبة، رفع كيسًا من الصوف مربوطًا بإحكام، فكّ رباطه ووسّع فتحته أطلّ معروف وفيض الله على الجنيهات الذهبية والأوراق المالية العديدة..

ـ كانوا مائتين وستين وكملت أربعين من عندي.

ثلاثمائة جنيه.. معروف مذهول من هول المبلغ الكبير فلأول مرة تقع عينه على عشرات وعشرات من الجنيهات على بعضها وكفه ما قبضت إلا على المليم والقرش وأنصاف القروش من صدقات الناس وأكثرهم يمنحه الخبز والجبن نظير قرب الماء، فيض الله بقلبه

المكسور يتمنّى لو راحت الجنيهات وعاد ابنه في حضنه، لكن ما ضاع قد ضاع ونصيب منيفة يكفل لها تجهيز زواجها ولا الأميرة فاطمة إسماعيل بجلالة قدرها.

ارتعشت كف عطية وهو يفك ربطة الصرة، ولم يطاوعه قلبه فتركها وهزّ رأسه أسفًا، قام معروف بالمهمة وما إن انفرجت أطرافها عن جلاليب وغيارات وبقية ملابس تقاوي المطبقة حتى تأوه فيض الله في ألم ولامست أنامله الجلباب، قرّبه من وجهه وشم فيه رائحة ابنه الغائب، اهتز رأسه من فرط البكاء، قوّس معروف ذراعه حول رفيقه وضمه إليه، تركه يفرغ دموعه ولم يقطع عليه بكاءه إلى أن هدأ رويدًا فلملم معروف ملابس تقاوي وأعاد حبكتها، ركنها جوار السرير وانتظر ما يفعله فيض الله، تمالك أشتاته روحه ونهض، حمل كيس الجنيهات وذهب إلى حجرته فتح صندوقه ووضعه داخله إلى أن يحين زواج منيفة فيجهزها وما يتبقى وهو الكثير يهبه لها ولعبيد، تردد اسم عبيد، أعرف بخبر تقاوي أم لا؟ وهو الذي ينتظر وصوله لإتمام ارتباطه بمنيفة.

***

يميل عنق الجردل فينساب الماء من ثقوب القرص المستدير، يروي عيدان التوليب ويميل فيستنشق رائحة زهرتها وعبق الأرض الطينية، خلفه البستاني يريد أن يعفيه من سقاية الحوض لكن عبيد يصر على ممارسة هوايته، يعود لجلسة جدته الممسكة بمصحف تقرأ فيه، لم يقاطعها وانشغل في تصفح جريدة الأهرام تركها وتناول عدد مايو من مجلة الهلال، أول صفحة بعد الغلاف صورة لسعد زغلول مكتوب أسفلها «صاحب المعالي سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصري الذي سافر أخيرًا إلى أوربا» وقرأ مقالة «فجر عهد جديد في مصر» وأعجب بمقالة «فهل من مدكر» بقلم الآنسة مي.

طفق يقلب صفحات العدد المثير إلى أن راقه عنوان «أثر تذكاري للنابغين في الفنون والآداب من أهل مصر وسكانها» اقتراح لسليم سركيس وقد واتته الفكرة على أثر وفاة فقيد التمثيل الفنان سلامة حجازي.

قلب عبيد المجلة وذهب تفكيره إلى اقتراح آخر وهو إقامة أثر تذكاري للنابغين الأحياء وأولهم المنفلوطي والشاعر أحمد شوقي بك ويفرح به عند عودته من منفاه في إسبانيا، ولماذا لا يوجد تمثال لسعد باشا زغلول، بل سأكلف أحدهم بنحت تمثال لأحمد عرابي، نعم أحمد عرابي بعد أن علمت سيرته ممن عاشوا معه ورفاقه يستحق أن يُنحت له ولهم تمثال وتماثيل توضع أمام سراي عابدين؛ ليتحدّى كل باشوات وخديوات وسلاطين سلالة محمد علي.

ابتسم لهذا الخاطر وعاد يقلب صفحات المجلة الممتعة إلى أن توقف أمام عنوان «الإخاء والوئام بين أبناء مصر والشام» مقتطفات من قصيدة لخليل مطران شاعر القطرين: يا مصر أنت الأهل والسكن وحمى على الأرواح مؤتمن

لم يكمل القصيدة ولفت نظره عنوان مقالة «العائلة والمنزل».. متى يعود أبوك يا منيفة كي تكون لي عائلة في منزلي الكبير مع جدتي الطيبة الرحيمة، صدّقت حليمة هانم وَبرفق ركنت المصحف، أهدته ابتسامة صافية وكأنها تقوي صبره، بادلها مرح الصباح ومال على يدها

يقبلها وحين رفع وجهه دهش لوقوف معروف مع البستاني يستأذن في الدخول، من فوره نهض عبيد واستقبل ضيفه..

ـ مرحبًا يا جد معروف.

ـ معذرة يا أستاذ عبيد وحضرة حليمة هانم، فيه خبر مؤسف.

ـ عم فيض الله جرت له حاجة؟

ـ لا يا حليمة هانم، فيض الله بخير، حضر من أسيوط الحاج عطية خال منيفة وأخبرنا.. البقية في حياتكم، تقاوي توفي في موشا واندفن هناك.

ألقى معروف بكلماته الساخنة فألجم عبيد ودار تفكيره كأنه لم يستوعب الخبر الصادم، جدته يخشع قلبها وتحاول أن تبدو متماسكة فتعجز، تسيل دموعها وهي تترحم: ـ رحمة الله عليه، ربنا يغفر له ويجعل مثواه الجنة، حادثة؟

ـ لا يا هانم، حمّى أصابته عند أهل زوجته ومات، واستراح جنب أم منيفة.

ـ ربنا يصبرك يا عم فيض الله، قلبي معك يا منيفة.

منيفة، يا هل ترى ماذا تفعل بعد رحيل أبيها وهم ينتظرون عودته كي تعلن الخطبة وبعد انتهاء دراسة الحقوق سيتم الزواج، مصيبة وحلت على أفراد الأسرة البائسة، يموت عائلها غريبًا وفي بلد بعيد، حتى زيارة قبره مستحيلة، رفع عبيد وجهه كي يسأل معروف، التفت فلم يجده وأجابت جدته عن نظراته المستفهمة: ـ معروف مشى، بعد المغرب نعزيهم.

***

ـ والدة روحية هانم زوجة باشمهندس الري بأسيوط والأستاذ عبيد حفيدها.

ـ أهلا وسهلا يا هانم.

قام معروف بمهمة تعارف عبيد وجدته بعطية الموشي قبل أن تخطو داخل البيت لتعزي منيفة وتواسيها، عبيد عاجز عن الكلام، قبّل رأس فيض الله وجلس ساكتًا ساهمًا يفكر فيما يقوله لمنيفة إن اختلى بها، وجدها فيض الله فرصة ليخبر عطية بخطبة بنت أخته: ـ الأستاذ عبيد تقدم لمنيفة يا حاج عطية وكنا منتظرين تقاوي لنقرأ الفاتحة.

بدا على وجه عطية الارتباك، استحال إلى انقباض رسم على سحنته جهامة أكثر مما هو عليها، حسب فيض الله أنه حزينٌ لغياب زوج أخته وتمنّى أن يزوجها بنفسه، أشار عطية إلى فيض الله بأن يختلي به في بيت معروف، في وسط المجاز المعتم اعترف: ـ ووافقت على الأستاذ يا عم فيض الله؟

ـ وافقت بعد رضا بنت أختك، الولد ابن أصول وجدته مغرقة البيت بخيرها، غرضك تقول حاجة؟

ـ يمكن الوقت غير مناسب، كان غرضي أزوج منيفة لماهر ابني.

ـ كل شيء قسمة ونصيب.

ـ عارف يا عم فيض الله، الحمد لله على كل حال لكن...

ـ لا لكن ولا غيره، رأيك أرجع في كلمتي مع الأستاذ وأهله!

ـ العفو يا عم فيض الله، أعرف أنه لا يحق أن يخطب إنسان على خطبة غيره، خائف الولد يطمع في مالها.

ـ الأستاذ عبيد محام، ومتربي وأهله ناس كرماء.
لم يفوه عطية بكلمةٍ، ومع أذان العشاء غادر أرض الربع لقضاء مشاوير لناس في السيدة زينب والحسين والقلعة، وبقي فيض الله ببيت معروف الغائب من بعد الإفطار ولم يرجع، وبقية الجيران كلٌ سارح على رزقه، ولم يلحظ فراغ الدكة، عبيد لا يدري كيف تجرأ وقرع الباب المفتوح فأطلّت منيفة وحسبت جدته معه لكن حليمة هانم بعد عزائها لمنيفة استضافتها جارتهم دميانة، خطا ووقف قبالة منيفة الباكية، بأصابعه مسح خدها فرجعت بظهرها إلى الجدار، رأت فيه السند بعد رحيل أبيها وأكد عبيد هذا الشعور..
ـ منيفة، قلبي معك، اعتبريني الأخ والأب، والـ...
ـ كنت أتمنى يحضر أبي زواجنا، قدر ربنا، نصيبه يستريح مع شريكة حياته.
ـ كل إنسان له شق يندفن فيه «وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت».
ـ ونعم بالله.
ربت على كتفها وتارة أخرى مسح دمعة ذارفة على خدها، ولا يفصل عن وجهيهما سوى زفير الأنفاس الساخنة، لم يحسب لأي عين ممكن أن تكون مراقبة ضمته لها وتقبيله جبينها، رغم مصابها الأليم ردت إليه غمرها بشعوره فمالت على كفه فلم يسمح لها بالانحناء فرفع يده إليها، أعلنت قبلتها رضاءها التام ودون أن تفوه أدرك أن الموضوع أصبح بيد جدها وعليه أن يحسم خطواته.
صوت الهانم في الخارج يدفعه للخروج، فيض الله يقبل عليهم ويشكرهم، رافق السيدة الكريمة للعربة وعزم عليه معروف الجالس على دكة قهوة حسين ألا يرجع البيت فجلس صامتاً، نصف ساعة وفوجئ بالحنطور يقف وعبيد ينزل منه، يلقي السلام ويجلس، وعى فيض الله هدف عودة عبيد فقال مطرقًا رأسه: ـ لو الوقت غير مناسب نؤجل الكلام.
ـ الحمد لله على كل حال يا ولدي، أي وقت فيه اتفاق على خير مناسب.
ـ على عيد الأضحى نكتب الكتاب ونتمم الموضوع ومنيفة موافقة.
في اضطراب تبعثرت الكلمة بين شفتي عبيد، وأدرك من بصات العجوز الثعلبية أنه لمحه يقف مع حفيدته أمام باب حجرتها، أي تفاصيل ستكون مع جدته ولن يشق عليه بأي حال من الأحوال بل على العكس سيعرض عليه إن أراد العيش معهم في البيت الكبير يجهز له مأواه المريح، الكلام سابق لأوانه فليؤجل عرضه بعد إتمام الزواج، اعتبر عبيد يومه من الأيام الهامة، قدّم واجب العزاء ووشمت منيفة قلبه بحبها، أنهى مغامرته السريعة بوعد فيض الله. عطية بعمامته المحبوكة حول رأسه وجلبابه الأزرق الغامق يتمشّى نحوهم بخطى متزنة، استراح وطلب له معروف الشاي وبين جوانحه أصرّ ألا يُعاد الكلام عن تقاوي وما جرى له فألقى على عطية سؤالا دفع عبيد لأن يستمع بعد أن كان على وشك العودة للبيت: ـ سمعنا عن قنابل رماها الإنجليز في أسيوط.
ـ حصل يا معلم معروف، ضربوا وسط البلد وزراعات الوليدية وشباب ما لهم عدد ماتوا بالرصاص، وتجننوا لما واحد طخ كولونيل كبيرا عندهم اسمه هيزل بالرصاص وقتله.
ـ ومأمور البندر محمد عبيد؟
ـ محمد عبيد؟!

ـ آقصد بكباشي محمد كامل؟
ـ رحمه الله.
ـ قتل؟
ـ لا، قبضوا عليه مع غيره وتمت محاكمته.
ـ بتهمة مساعدة أهل بلده؟
ـ والإنجليز عندهم حاجة اسمها مساعدة أهل بلده، اتهموه بعصيان الأوامر والتفريط في السلاح الميري وتحريض الأهالي على التمرد، سمعت وأنا في موشا أنهم أعدموه بالرصاص بعد عشرة رمضان.(35)

مطّ فيض الله شفتيه، وطارت ذكرياته على أجنحة الأيام وحطت قرب وقائع التل الكبير والصرخات من حوله تتبخر وسط دخان أعاصير نيران الإنجليز وصوته بُحّ وهو يجاهد لإنقاذ قائده بكباشي محمد عبيد والرجل ثابت على الأرض لا يتحرّك والنار من حوله أحرقت بذلته ويده مرفوعة بسلاحه، رفع وجهه إلى عطية فأجابه عن سؤال لم ينطق به..

ـ وتمت دفنته في مقابر عائلة معروفة في أسيوط عائلة خشبة.
ـ رحمه الله، ما قصّر في أداء واجبه، وقتلة الإنجليز في القطار عند ديروط؟
ـ حاكموا أربعمائة إنسان بإعدام وسجن ومن أهل ديروط أفتكر منهم أبو المجد أفندي معاون بوليس ديروط وزين أفندي قرشي وغيرهما.
ـ عائلة قرشي معروفة وعريقة في الصعيد.

بوقوف فيض الله انتهت جلسة الليل، استأذنهم عبيد المنصت طوال الوقت، ودار في دوامة من حنق وحزن وحسرة على مصير أولئك الوطنيين وتمنّى حقيقة إنهاء دراسة مدرسة الحقوق؛ ليتفرغ ويلاحق الإنجليز القتلة على كل جريمة اقترفت في حق أي مصري، سلم عليهم على وعد بالزيارة، عاد فيض الله مع معروف وعطية، أمام بيت البنهاوي لا يكف خميرة ومشهور عن المناكفة بسبب إدمان ميمون للبوظة وحبه لرفع القرعة على فمه وشربها ويلقيها فتتكسّر وحين يطالب خميرة بثمنها لا يرد عليه مشهور بغير: تُفرج، ولا يصمتان إلا حين يتواجد فيض الله لئلا يطردهما من البيت، فيض الله يغلق على نفسه باب غرفته، يرفع أمام عينيه الطبنجة، يغمغم في خفوت: الله يرحم صاحبك.

أخذ يحشو خزنتها بطلقات الرصاص ويخيط قطعة جلد على المقاس لتكون غمد الطبنجة التي جرّب تثبيت حزامها حول صدره.

***

نفذ حكم الإعدام على بكباشي محمد كامل مأمور أسيوط الثلاثاء 10 يونيو 1919م الموافق 12 رمضان 1337هـ.

(25)

ما قسمت القسمة ومتنا بعيد
اتفكرونا في نهار العيد

بشفة مرتعشة يردد فيض الله كلمات من عديد يتذكر بعضها ثم يعود فيستغفر ربه وسيطلب من أم فانوس الكف عن تكرارها وخاصة قدام منيفة فتقلب عليها وجع موت أبيها بعيدا عنهم، أيام مرّت على العيد، فجثمت أثقال الحزن على نفس فيض الله وإحساسٌ عارم بالذنب لتفريطه في تقاوي، التصق بجدار حجرة ابنه يتأمل جلاليبه، تارة أخرى يشم رائحته العالقة فتتزود نفسه بمزيد من ألم الثكل، موافقته على رحيل تقاوي شبحٌ أسود يتلبّسه وراحت أباليس لو... ولو... تضربه بمقارع اللوم، تنغز فلذات كبده وتحرق قلبه فيلوذ بمسبحة الأمير ذي النفس الراضية المطمئنة وما إن تنفلت حباتها بين أنامله حتى يبترد فؤاده وتظلله سحابة من سكون، منيفة التي بدت متماسكة بكت في حرقة بعد أن علمت بتفاصيل دفن أبيها جوار أمها وقرّرت السفر مع خالها عطية لزيارتهما، وما أرجعها عن عزمها وألان إصرارها رأيُ عبيد الحازم بألا تغامر بالرحيل ولتقرأ على روحه ورح أمها الفاتحة وترجو من الله أن يسكنهما فسيح جناته.

ساعة عصرية رافق فيض الله عطية إلى واحد من معارفه يسكن الدرب الأحمر، على دكة المجاز تربعت، تتأمل صورة لأبيها التقطها أحد المصورين الأجانب وهو يرتدي صدارًا بلا أكمام وسروالًا قصيرًا، يلف حول رأسه شالًا أبيض ويميل المشعل على كتفه كجندي يحارب في ساحة الحياة من أجل لقمة العيش، أمالت رأسها إلى الوراء والتفتت في ملل لدقات هادئة على الباب، حسبته معروف جاءهم بقربة آخر النهار فرفعت غطاء الزير، فتحت الباب إلى آخره.

تخشّبت أمام قامة عبيد الماثلة أمامها، لا تدري تدعوه للدخول ولا أحد بالبيت أم تطلب منه الانتظار على المصطبة، لا، تستدعي مريم لتحضر المقابلة التي لم تكن على البال أو الخاطر، عبيد يمنعه أدبه من الدخول فظلّ ينتظر رأي سيدة الموقف ولم تضيّع منيفة الوقت في التردد فأفسحت له الطريق، ولج بخطوات رزينة وجلس، راقه نسيان برقعها وخفق قلبه لملبس البيت البسيط ولم تدرك منيفة أنها لم تستر رأسها إلا حين لمحت عيونه المطوافة حولها ففردت ذراعها لتداري الأخرى لكن جلباب البيت نصف كم، خطت من فورها لباب حجرتها، في سرعة ارتدت العباءة السوداء وطرحة خفيفة تداري شعرها الفاحم.

صبّت النعناع البارد وعادت، ارتبكت الصينية فركنتها على المنضدة، وقف قبالتها يفصل بينهما مسافة إصبع مفرود، تتلاقى أنفاسهما، أن تتراجع خطوة هو حسْمُها للموقف لكنها لم تفعل، ضمها في هدوء فأعاد لها أمان رجل ثكلته مرتين، مرة حين سافر وانتظرت عودته والتالية حين دفن بعيدًا، مالت برأسها فالتصق خدها بطراوة خده المحلوق، افترقت رموشها وجحظت فالباب لا يزال مفتوحًا، والخطأ الأكبر لو رآها معروف أو أي طارئ لأرض الربع، الرغبة جمحت بعبيد ليبث الطمأنينة بشفتيها، لكن نفسه العصية أبت أن ينتهك قدسيتها قبل

الآوان، احترم غياب الجد وآخذ هو بزمام التقهقر فجلس بينهما شبر لا يدري ما يقول، ولما رأى في عينيها عتابًا فرد كفه أمامها..

ـ أشهد أني ما جرّبت الاقتراب من أي حرمة.

ـ ولا في بورسعيد، ولا عند الأتراك، بناتهم حلوة.

ـ ولا صاحبت إنسانًا اعتاد الذهاب إلى بيت الـ...

ـ أصدقك يا عبيد، جدي رأيه في محله، يقول أنك محترم.

ـ وأحترمك يا منيفة، وأحب أدبك وقلة كلامك، نتزوج وأنا أعوضك عن...

ـ ونحضر مسرح كشكش بيه.

ـ ونسمع الشيخ سيد درويش.

ـ عندك حاكي؟(36)

ـ عندنا جرامافون جديد وأسطوانة ليوسف المنيلاوي فيها أغنية «حامل الهوى تعب» وحضرت رواية ولو(37) للريحاني وسمعت أغنية السقايين ولو على أسطوانة أشتريها.

ـ ورأيك لو طلعت مع بنات مدرسة السنية؟

ـ اطلعي وعيني تحرسك بعد ربنا.

ـ سمعت عن شفيقة محمد؟(38)

ـ أكيد، الله يرحمها، الوحيدة من بين مظاهرة الستات دخلت على ملن شيتهام قائم بأعمال اللنبي وفي يدها العلم وفي يسراها ورقة احتجاج وبعد كلامها معه أكدت أنها تشارك في كل مظاهرة وبعد خروجها ضربها الإنجليز برصاص بنادقهم.

ـ عندهم مس كافل شهيدة وعندنا شفيقة محمد وحميدة خليل* مخربة.

ـ وعرفت مس كافل؟

ـ حكى لَي جدي حكايتها وقرأت بنفسي عنها.

ـ الله عليك يا منيفة والله لو أكملت تعليمك لتتفوقي على الأولاد أنفسهم.

ـ أكمله معك إن شاء الله يا عبيد.

دبدبة وخطوات خافتة، أطلا معًا ورجع عبيد للخلف، ميمون ينط ومشهور تركه يمرح أمامه، رفع القرداتي يده تحية لمنيفة وخطيبها، نهض عبيد ونظراته تعدها بكلام كثير مع وداعه انتابها شعور بزوال وحشتها، أطلت مريم بقامتها المائلة إلى القصر فابتسمت لها منيفة..

ـ تعالي يا مريم.

نادت على صاحبتها فقعدتا في وسط المجاز متقابلتين وكل منهما لها حكاية.

***

برفقة معروف اصطحب فيض الله عطية إلى بيت حليمة هانم الكبير، استقبلتهم في حفاوة لدرجة أنها نزلت بنفسها درجات السلم ورحّبت بالرجال وقدمت لهم الخادمة الشاي، سأل عن عبيد فأخبرته أنه غير موجود.

ـ أنت قلت أن الحاج عطية يبقى خال منيفة.

ـ صحيح يا حليمة هانم.

ـ حاجة غريبة أن يطمئنا زوج روحية بنتي على المرحوم تقاوي و...
ـ تقاوي كان في أحسن حال لكن الحمّى، الحمى الملعونة وقضاء ربنا في الأول والآخر.
ـ ونعم بالله.
ـ وله نصيب يندفن جنب نجية، وكل تربة تنادي صاحبها يا ست هانم.
قالها عطية ونظراته تطوف بأرجاء البيت الكبير وغرفه العديدة، وتأكد أن العجوز فيض الله هو وجاره ما أتى به إلى هنا إلا ليطمئنه على بيت منيفة ولا مقارنة بين رواق جهزه لابنه ماهر أو حتى بيته كله وبين حجرة فخمة من حجرات البيت، فابتسم في وجه السيدة الكريمة.
ـ عم فيض الله قال لي عن رغبة الأستاذ عبيد في منيفة.
ـ وأنا أصررت عليها، إنسانة مهذبة وجميلة ومتنورة وكفاية أنها تربية فيض الله.
ـ ربنا يتمم على خير.
ـ ولو غرض يا هانم نقرأ الفاتحة هنا.
ـ بعد الأربعين يا عم معروف، وعبيد يقدّم لها شبكتها في بيتهم ووسط أهلهم ومعارفهم.
نظرة رضا أطلت من عين فيض الله لحليمة هانم التي لم ترد إحراج ضيفيها فهي تعرف أن الأصول أصول، وقراءة الفاتحة والخطبة وحتى العقد يكون في بيت العروس أو في مسجد، نظرة غاضبة معاتبة صوبها فيض الله لمعروف ولا يدري كيف أفلتت منه غلطة لسانه بهذا الطلب، ومن باب يا بخت من زار وخفف نهض فيض الله مستأذنا، ودعتهم السيدة الوقور، وفي أثناء سيرهم في الشارع..
ـ ما كنت أقصد بـ...
ـ لا تعتذر يا معروف، أحيانا الحماسة تدفع البني آدم لكلام غير موزون.
ـ كنت أقصد أننا نقرأ الفاتحة قبل سفر الحاج عطية.
ـ يبقى في بيتنا يا معروف، منيفة وكرامتها عندي أغلى من كنوز الدنيا وخاطرها فوق أي اعتبار.
سكوت فيض الله ألجم لسان معروف، وحرص أن يقود عطية بعيدًا عن دوريات عسكر الإنجليز وخيامهم المنصوبة على نواصي الحارات والشوارع تطل منها بنادقهم المصوّبة في وجوه المارة، فضلّ معروف ضبط مزاجه بحجر شيشية وتمشى فيض الله جوار عطية نحو دكان خردوات، قبضت أصابعه الغليظة على واحد من العكاكيز وأعجب به، بعد مداولة في السعر نقد التاجر ثمنه ورفعه أمامه، جمدت رقبته للقامة الواقفة أمام دكان منغرز آخر الشارع، خطت أقدامه وتبعه فيض الله وعطية يشك في وجه تتضح ملامحه كلما اقترب حتى وقف قبالته..
ـ حاج عطية الأسيوطي، تفضل.
ـ أنت هنا يا خواجة متشولح.
ـ أسيوط ما عاد فيها أمان، آخر عملية كانت معك وبعدها بعت الوكالة للخواجة إدوارد وشريكه المعلم عبد السلام.
ـ وتتاجر هنا؟
ـ لا يا حبيبي، أخي يعقوب راح يصفي دكانه ونرحل أنا وهو، البلد ما عاد فيه أمان.

الرجل بقامته الشبيهة بسمكة مجففة وطاقية تخفي صلعته وعلى عينيه نظارة سميكة واضح أنه أكبر سنًا من متشولح، الرفوف فاضية والبضاعة شحيحة والدكان شبه فارغ، هوّم عطية برأسه واستدار يتبعه فيض الله الصامت طوال الوقت، جلسا مقابل معروف فالتفت عطية لهما..

ـ غريب أمر متشولح.

ـ والأغرب رحيل الخواجة يعقوب وعمره تخطى الثمانين، تجار يهود في كل مطرح صفّوا تجارتهم ومشوا.

جحظت عينا عطية، وشعر بطعنة مغرز في جنبه، وطفرت نظرات تقاوي الممتعضة حين كانوا عند متشولح بالوكالة، وراوده اقتراح تقاوي وهو محموم بأن كان من الأفضل ينقل ذهب المقبرة ويبيعه لدكان الحاج عبد القوي المصري بدل الخواجة، عضّ شفته في أسى حقيقي ورغبة عارمة باستعادة عروسة الذهب بدل تهريبها خارج البلد، لكن بأي منطق يواجه الخواجة وقد وزّع الميراث، زفر أنفاسًا ساخنة ونهض ليكمل مشاويره، وصلوا لدكان قريب من مسجد السلطان حسن وأخرج من السيالة أمانة لصاحب الدكان أرسلها له أحد تجار أسيوط، عزم عليهم التاجر بالشاي لكنهم اعتذروا، وقف عطية قدام مسجد السلطان حسن والتفت إلى جامع قاني باي الرماح الكبير واستعصى عليه معرفة المسجد الكبير بينهما فالتفت إلى فيض الله فأجاب عن عينيه السائلتين: ـ مسجد الرفاعي.

ـ فيه سلطان أو أمير اسمه الرفاعي؟!

ـ لا، مدفون في زاويته الشيخ علي أبي شباك والشيخ يحيى الأنصاري.

ـ ومن بناه؟

ـ خوشيار هانم أم الخديو إسماعيل ولما ماتت توقف البناء فوق العشرين سنة وأكمله الخديو عباس وأتمه من سبع سنين.

أذن المغرب فرغب عطية في أداء الفرض بمسجد الرفاعي الجديد عليه، دخلوا مباشرة على الميضأة وما إن أتمّ الإمام صلاته حتى أضاء عمال المسجد المشاكي والقناديل الموزّعة في كل ركن بالمسجد الواسع، الأبواب عديدة منها المفتوح وأكثرها مغلق.

ـ أضرحة يا عطية.

ـ قبور أولياء؟

ـ لا، قبر خوشيار هانم، والسلطان حسين كامل والأمير علي جمال الدين وتوحيدة وزينب وكلهم أولاد إسماعيل وهناك ضريح إسماعيل نفسه.

ـ لكن أعرف أنه مات عند الأتراك؟

ـ ونقلوا جثته من أسطنبول واندفن هنا.

ـ الله يرحم الجميع، لا فرق بين الأمير والفقير والخديو توفيق مدفون هنا؟

ـ لا، المحروق توفيق مدفون في مكان بعيد، مرميّ في قبة أفندينا قرب مدافن المجاورين.

خطا فيض الله نحو قبر إسماعيل، دون أن يشعر قرأ الفاتحة على روح الأموات، على عتبة القبر انطرحت أيام خدمته تحت إمرة القومندان شوكت الشركسي وأمره وزملاءه بتأمين موكب رحيل الخديو إسماعيل من سراي عابدين إلى المحطة فركب العربة وجلس الأمير توفيق باشا

عن يساره، وركب بعدهما الأمراء والكبراء، وسار الموكب حتى بلغ محطة العاصمة وكان الجند مصطفين على الجانبين تحية للخديو السابق، ولما بلغوا المحطة ترجل إسماعيل ووقف ابنه يودعه وعيناه مغرورقتان بالدموع وكان إسماعيل شديد التأثر لرحيله عن قاهرته الحبيبة لقلبه ومسرح مجده وبذخه وسلطانه السنين الطوال وانتهت بفرمان السلطان عبد الحميد القاضي بعزله وتولية الأمير محمد توفيق.

ـ فيض الله، سرحت؟

ـ في حال الدنيا، لما ودعنا أفندينا عند المحطة وسافر الإسكندرية.

ـ وأنا كنت أخدم في الإسكندرية وكنا في انتظاره في محطة القباري واستقبله المحافظ وكبارات البلد، وركب مركبًا وصلت به إلى سفينته المحروسة ورفعت البوارج الحربية الأعلام وأطلقت مدافعها الطلقات وتحركت المحروسة على إيطاليا.

ابتسم عطية لسماعه سيرة خديو مصر، خطواته زادت همتهم في العودة، على ناصية الشارع لم يهتم الجندي الإنجليزي بالعجوزين فيض الله أو معروف فأوقف عطية متأملًا جلبابه البلدي المهندم وعمامته المدورة على رأسه بإحكام، أشار بعصاته.

ـ هوير آر يو ويكنك؟

من لكنة سؤاله عن طريق عودتهم أدرك معروف أن العسكري جديد ولا يجيد الحوار بأي كلمة عربية غير صرامة قسماته كأن قائده أوصاه بالشدة خصوصًا بعد صدامات المتظاهرين والثوار والمناصرين لسعد زغلول، خطا نحوه وابتسامة صفراء على وجهه..

ـ راجعين البيت يا خواجة، تو ماي استريت آند هوم.

ـ مَاني.

قبل أن يجادله معروف، دسّ عطية يده داخل جلبابه فسحب العسكري مسدسه في حركة مباغتة ووجهه إلى صدر عطية وفيض الله ركبه تخبط في بعضها خوفًا على حياة ضيفه فالإنجليز لديهم أوامر بقتل كل من يشتبهون فيه أو يهددهم، في سرعة أخرج عطية الجوزلان الجلدي الكبير، قلبه وفتحه بالكامل ليوحي للجندي أنه فارغ من أي فلوس، نتشه الإنجليزي ولما تأكد أن المحفظة فارغة فعلا قلبها بين يديه ورفع حاجبه إعجابًا بها..

ـ بيوتوفول، خلوة بصخيخ.. هدية منك لي أنا ديك، القائد ديك.

دسها بجيبه وهزّ سلاحه، دون جدال أو اعتراض من أي نوع، زقّ فيض الله عطية مبتعدين عن الشارع زافرًا أنفاس الخلاص، اغتاظ معروف من سوء تقديره فالقائد الإنجليزي يعرف العربية وحمد ربه أنه لم يشتمه، كرّر اسمه: ديك.. ديك.. الله يلعن بيضة الفروجة أمك.

عطية قلبه مفطور على الجوزلان الجديد، لكنه راض عن تصرفه، ابتعدوا قليلا ووقف أمام عطفة منزوية وعلى ضوء فانوس صغير معلق أعلى باب رفع يده وسحب من بين لفة عمامته كيسًا نططه بكفه فتوجس فيض الله القلق من تعجل عطية، همّ بنصحه العودة بسرعة لولا مباغتة القائد ديك شاهرًا مسدسه في قوة ويفرد كفه..

ـ فلاخ لئيم لكن أنا أذكى منك.

أدرك فيض الله تخمين الإنجليزي الذي أثبت باتباعهم أنه في محله، فلو وجد في محفظة عطية عدة قروش أو حتى جنيهات لنهبها وتركهم نهائيًا لكن المحفظة الفاضية بجلدها الثمين

آغرته بتتبعهم وسلب ما يخفونه، لاعب القائد ديك آصابعه آمارة آن يلقي إليه عطية كيس الجنيهات ومعروف واجم وفيض الله قليل الحيلة، عطية وجهه جامد وغلت الدماء في عروقه، خطا ووضع الكيس في كف القائد فقبض عليه وأغرته العملات بخفض عينيه وهذا ما كان ينتظره الأسيوطي ذو الطبع الحامي فأول ما اقتنص يد القائد اليسرى الممسكة بالمسدس ورفعها لأعلى مائلًا عن مرماهم، هزّها بقوة فانتتر السلاح بعيدًا، بقبضته المضمومة لكم وجهه، زنقه بالجدار وطبقت أصابعه على زوره فجحظت عيناه الزرقاوان وانتفخت عروق وجهه الأحمر رفع عطية ذراعه وهوى بلكمة قبضته المضمومة فأصابت عنق ديك، شهق ورفع رأسه لأعلى كأنه ينازع لاستحلاب الهواء.

هوى وذراعاه تضربان الأرض، أدرك فيض الله أن القائد كُسرت قصبة رقبته وأنه يختنق وإن لم يسعفه أحد فسيموت، من بين طيات ملابسه استلّ عطية سكينًا وهمّ أن يمررها على رقبة الإنجليزي المرمي على الأرض فحال فيض الله دون فعلته، لم يحاوره وزقه لكن عطية فتش في جيب القميص واستعاد الجوزلان الثمين والتقطت أصابعه كيس نقوده، معروف تدور عيناه تستطلع جنبات العطفة المهجورة، سار في المقدمة يؤمّن انسحابهم، ظلوا سائرين إلى أن عادوا إلى الربع، ألقى فيض الله نفسه على المصطبة ومعروف ترع ماء القلة المركونة..

ـ منعتني قتل الإنجليز وواحد منهم طعن تقاوي.

ككرة من نار صدمت كلمات عطية نفس فيض الله المهمومة، لفحت وجهه فتوهج الحقد داخله، غاب عن الوعي إلى أبعد من إصابة سونكي بندقية صدر ابنه فكانت سببا أودى بحياته إلى دائرة النار وقائده بكباشي محمد عبيد وسطها يقاتل إلى أن ذاب بدنه تمالك فيض الله والتفت إلى عطية..

ـ تقتل رجلا ينازع!

ـ وقع على الأرض وكنت على وشك أسيح دمه فلو فاق لعرفنا.

ـ الإنجليزي ميت ميت ولو أفاق ما يعرفنا، سكنا بعيد وما تبعنا واحد من عسكره، وأنت مسافر في قطار الصبح.

هدأت نفس عطية وأطفأ الماء جذوة غضبه، خطا فيض الله نحو عربة خميرة والزير غاطس بمنتصفها، رفع الغطاء ففجت رائحة نفاذة، أقحم يده بالقعب فاحتكّ بقعر الزير الفارغ من البوظة، نوبة من غيظ وأسف اجتاحت روحه النزقة لبلعتين كونياك أو بيرة والأبخس منهما بوظة خميرة، حتى هذه لم ينلها فتمنّى أن تكون زجاجة الخواجة لينوس معه الآن لتعيد له ثباته.

***

الحاكي: اسم أطلق على جهاز الأسطوانات الفونوغراف أو الجرامافون.
ولو: مسرحية من تأليف بديع خيري وتمثيل نجيب الريحاني وفرقته على مسرح الإيجبسيانا.
شفيقة محمد: استشهدت 10 إبريل 1919م / حميدة خليل: استشهدت 16 مارس 1919م.

(26)

عطية يضم منيفة إلى صدره، يشمّ منها ذكرى أخته الراحلة، بدورها تربت على كتفي خالها وتميل فتقبل يده لعلها وهي مفرودة بالدعاء تصل قبلتها لأبيها المدفون بجوف البيت، على جبينها طبع قبلة حانية وأوصاها بجدها وهنأها على خطبتها لشاب تتمناه أفضل العائلات، وأكد أن الأستاذ لو لفّ بر المحروسة ما يلاقي أعز ولا أكرم منها، فانبسطت نفسها لإطراء خالها وإعلائه لقدرها، عجز عن منع فيض الله من مرافقته إلى محطة القطار، أول الربع أطلق مشهور قرده فجرى نحو الضيف الراحل، ابتسم عطية وتصدّق عليه بعدة قروش، أشار معروف لأول حنطور وبحركة لا إرادية سحب غطاءه، من حين لآخر يتلفت فيض الله وندم أنه لم يوجه العربجي للسير بهم من طريق أخرى مبتعدين عن الشارع المؤدي إلى العطفة، لمّة كبيرة والأهالي من كبير لصغير ملتصقة ظهورهم بجدران البيوت والإنجليز يصوّبون بنادقهم..

ـ الدنيا مقلوبة على القائد الإنجليزي المقتول.

فاجأهم العربجي بكلماته فلم يشأ فيض الله تبادل أي حوار معه وغمز لعطية أن يسكت وطلب من العربجي أن يسرع إلى المحطة حتى لا يفوتهم القطار الوحيد المقبل على الصعيد، مال بالحنطور إلى الناحية المقابلة وألهب فخذ البغل فرمح بهم متخطين تمركز عسكر الإنجليز في صفين، دنا بوجهه ومن طرف عينه لمح نقالة مفرود عليها ملاءة فتراجع بظهره وتارة أخرى يعلو صوت العربجي..

ـ لقوا في جيبه إصبع حشيش وسمعنا أنه كان مهيص وراجع من بيت إياه.

في نفسه ضحك عطية ودسّ يده ممسكًا مقبض سكينته التي لم يروها بدم القائد ديك، ولو تركه فيض الله لذبحه بقلب بارد فما فعلوه بالناس في أسيوط وغيرها أبشع ما رأى في حياته، ففتش الإنجليز البيوت فهرب الأهالي بنسوانهم وعيالهم إلى جبل أسيوط الغربي والزراعات البعيدة بعد نيل الوليدية ومنهم من عبر للبر الشرقي ولجأ لمساكن عربان الأطاولة والعوامر متجنبين الاعتداء على حريمهم، تارة أخرى يهاتف العربجي زبائنهم الساكتين: ـ من سنين واحد منهم مات بضربة شمس في دنشواي فشنقوا وجلدوا وسجنوا الفلاحين الغلبانين، الله يرحمك يا مصطفى باشا كامل خربها عليهم لحد ما انقشع كرومر.

هذه المرة يئس العربجي من تبادل ركابه الحديث معه، فلزم الصمت إلى أن بانت محطة القطار بزحام الداخلين والمغادرين ومقدمي الأطعمة والباعة الجائلين، عاونه معروف في حمل الزكيبتين وما اشتراه من الحسين والموسكي والعتبة من ملابس وأغراض أخرى، قطار واحد في الأسبوع يغادر إلى الصعيد، يربض على الرصيف المقابل، من الشباك رفع يده بالتحية وظلّ فيض الله ساهمًا محدقًا في العربة الأخيرة للقطار كأنه يحمّله سلامًا لروح تقاوي الغالية.

***

لمّة من الرجال كل منهم يتعارك مع الآخر بعصي ونبابيت وتلمع السكاكين تحت أشعة شمس الظهيرة، أفراد البوليس يتبعثرون حول المتشاجرين محاولين تفريق تزاحمهم وأصوات

الصافرات تبتلعها الزعقات الصاخبة، نأى فيض الله بنفسه عن معركة الفتوات وسحب ذراع معروف الواقف يتفرّج، قبل أن يستدير أشار إلى هناك، الناحية المتطرفة من الشارع، علا صوته ليسمعه فيض الله: ـ أظنه فانوس يا فيض الله، هو فانوس.

ولد يشبط في جلبابه وعسكري البوليس يحاول تخليصهم، ما دفع فيض الله لتسارع خطواته نحو اللمّة أحد عسكر الإنجليز يزق فتاة عرف من برقعها أنها مريم تدافع عن أخيها المتعارك مع شاب أطول منه.

ـ فلوسي وحقي يا عشم.

صرخ بها فانوس فعاجله ابن خاله بضربة من عصاه الغليظة نزلت على يافوخه ترنّح وهوى على الأرض ومريم تصرخ وهي جاثية عليه، في سرعة يقحم عشم يده بجلباب فانوس، يسحب لفة عريضة، يزيح الناس مفسحًا لنفسه طريقًا للفرار وأحد أفراد البوليس يطارده، العسكري الإنجليزي يرفع عصاه ويضرب ساق فانوس المرمي على الأرض وحين رفعت مريم يدها لتمنعه سحب طرحتها وهمّ بضربها، فأُطلقت رصاصة أصابت قلب الإنجليزي خرّ على إثرها يفرفر، دون اتفاق تولى معروف إنهاض جاره ولف ذراعه حول كتفه ورفع فيض الله مريم من ذراعها، المشاجرة في ذروتها وطلقات الرصاص ترف فوق الرءوس، المتعاركون كل منهم منشغل في تخليص نفسه، انسحب معروف وفانوس يجرجر قدميه، وفيض الله ومريم يسندانه من الخلف، ظلوا سائرين ومعروف يتلفت حواليه وفيض الله يشجعه حتى كادت سيقانهم تشل.

زير يُلقى على الأرض وصاحب العربة يشير لأن يحملوه عليها، رفعه معروف وتكاتفت معه يدا خميرة، زقّ العربة وفانوس يتأوه ومريم مذهولة مما جرى لأخيها من بهدلة، وصلوا أرض الربع وزقت مريم الباب، هرولت أمها تندب ولدها المحمول بين أذرع فيض الله وخميرة ومعروف، أناموه على الكنبة ومريم لا تتوقف عن البكاء، منيفة مفزوعة وهي مقبلة على صديقتها، دارت عينا فانوس وبكلتا يديه يمسك رأسه، التفت إلى أمه فحضنته.

ـ سامحيني.. عشم الكلب سرق فلوسي وبضاعتي.

ارتعشت أجفان فانوس وانتترت من بين شفتيه كلمات عبثية أسلم بعدها الروح فشقت صرخة أمه السماء، صفارة بوليسية تتقطع فخرج معروف وفيض الله من البيت..

ـ فيه هارب لازم نقبض عليه.

ـ مات يا حضرة الأونباشي.

وكأنه لم يسمع كلمات فيض الله فاقتحم مدخل البيت، مريم شقت صدر جلبابها وتلطم ومنيفة جوارها تبكي، دميانة احتبس صوتها وانحشرت صرخاتها، رفع عسكري البوليس يد فانوس وتركها فسقطت جواره عادت أمه تصوت فغادر الأونباشي ووافاه اثنان من رفاقه وقفوا خلفه..

ـ أقبض عليكم، كنتم في عركة القهوة.

ـ أنا وفيض الله كنا راجعين وفوجئنا بابن جارنا مرمي على الأرض وعسكري الإنجليز يجرجر أخته.

ـ أنت قتلت عسكري الإنجليز، اقبضوا عليه.

ـ تقبض على واحد في سن جدك، آنا كنت مجندًا في جيش عرابي يا ولد.
بكل ما أوتي من قوة ألقى فيض الله بكلماته في وجه الأونباشي الثابت في وقفته، دارت عيناه في وجوه فيض الله ومعروف وخميرة، استدار مغادرًا الربع، دخل فيض الله بيت جارته، فرد ملاءة على فانوس وأمه لا تزال تضرب الأرض بيديها وشعرها مهوّش، واحمر خدها من اللطم، مرت ساعة وأقبل على البيت القس إبرام، كشف عن وجه فانوس المائل للزرقة، مسح الدماء المتلزجة من حول أذنه وفتحتي أنفه، قدم عزاءه لدميانة ومريم، هزّ رأسه وأشار لمساعديه..
ـ بمشيئة الرب نعمل اللازم.
قادت أم يوسف والأخريات دميانة إلى بيت فيض الله، لفيف من الرجال قعدوا على الأرض منتظرين تجهيز الميت، فتح معروف باب بيته فدخل فيض الله وهمّ بالجلوس على المصطبة فانفلت الحزام ووقع المسدس على الأرض بادر بالتقاطه مخبئا إياه داخل ملابسه، افترت شفتا معروف النحيلتان عن ابتسامة هزيلة فصديق عمره الماكر لم يقبل أن يعتدي عسكري إنجليزي على مريم واستغل صخب العركة ورصاصات الإنجليز وأفراد البوليس وانطلقت رصاصة مسدسه تخترق قلب الإنجليزي الأرعن فخطا خطوتين وخرّ خلف عربة كارو وهذه هي فرصتهم الكاملة للابتعاد والهرب، واستغرب تباطؤ فرد بوليس مصري عن اللحاق بهم وتعطيله لزميله؛ حتى يتيح لهم الفرصة كاملة للابتعاد، بقي شيء سيسأل عنه فيض الله بعد انتهاء مراسم دفن فانوس فلم يجعله جاره ينتظر..
ـ تسأل عما هرب به عشم؟
ـ فلوس؟
ـ وحشيش، عشم، سلب ابن عمته، الفلوس وبضاعتهم المتاجرين فيها مع حسنين.
ـ المجرم، يبيع ابن عمته والمفترض أنه أخو من يعشم في زواجها.
ـ ويبيع عظم آسرته كلها، وعلى يدك دميانة حذرته.
ـ عندك حق، ومن عقّ أمه ندم.
تكاتفت الأيدي في حمل الجثمان الملفوف وإراحته داخل التابوت، على أكتافهم حمله الرجال وأمه متشبثة بحافة الصندوق ومريم تحاول اللحاق بهم تمنعها منيفة وتريزا، سار المشيعون يتقدمهم القس إبرام إلى الكنيسة، ومن بعيد يميل مشيعون آخرون بحسنية مغطاة بملاءة خضراء، تقترب الجنازتان فيستوقف فيض الله رجلا ويسأل فيخبره أنها لشاب كان يقف في شرفة بيته يشاهد عركة قهوة فأصيب برصاصة في قلبه مات على فورها، ينقبض قلب فيض الله وتجفل قدماه فيسنده معروف، وتكاثف بصدره دخان الخوف على البلد وشبابها يموتون جراء فوضى الشجار مع تجار الممنوع ورصاص الإنجليز، الإنجليز هم داؤنا فلن يشفى البلد وينصلح حاله بغير رحيلهم.

***

عشرة أيام مضت لم ينقطع يوسف عن الوقوف بجانب أم فانوس ومريم بل سمح لأمه وأخته تريزا بالمبيت معهما أولى ليالي رحيل فانوس المفجع، رغم موقف مريم الكاره لأفاعيل أخيها شعرت بفقد السند، فوجدت قليله في يوسف الشهم الهادئ وتنتظر أكثره حين

يتم زفافهما بعد انقشاع غمتهما، دميانة قلبها يأكلها ونهشتها مخالب الندم على دعائها على ابنها وليلة لطمت خديها وهدأها فيض الله وواجهها بحقيقة موت ابنها ورعونة ابن أخيها بسرقته والتخلي عنه حين هجمت عساكر البوليس ولم يفكر عشم في تخليص مريم من أيدي عسكري الإنجليز وهو ينتهك حرمتها وفرّ لولا أنقذتها شهامة فيض الله فزادت نقمتها على ابن أخيها مضلل ابنها وجعله ينحرف إلى طريق غير شريف، وأغواه في مشي الحرام، فلو وقع عشم بين يديها لمزقته بأسنانها، أكثر من مرة تكرر أمنيتها الحاقدة وفيض الله يبث بقلبها الصبر.

ـ يا من يبرد ناري.

ـ أنا أبرد نارك يا دميانة، سألت وعرفت من واحد بالقهوة ما جرى، أهو معروف حضر ومعه شاهد كان بقهوة مرزوق.

أتى معروف جواره عبدون شاعر الربابة، فلم يضيع فيض الله الوقت ووجه سؤالا لعبدون: ـ أم فانوس غرضها تعرف ما جرى في يوم عركة قهوة مرزوق.

ـ كيف ما جرى ويجري يا حبيبي، الدنيا حلوة وأنا كنت أغني: يا عزيز عيني وأنا بدي أروح بلدي.. قاطعني خواجة أو عسكري إنجليزي وملابسه عادية وبطربوش يظهر أنه من أيام عرابي لأنه يتكلم عربي زين الزين وقال: روح بيتك أحسن، قاعدين فيها نحكمك ونحكمها...

ـ اختصر يا عبدون.

ـ المهم، واحد من التلامذة ضربه وقامت عركة كبيرة والناس ضربت بعضها.

ـ شكرًا يا عبدون، اشرب الشاي.

ـ عندي سهرة.

نهض الشاعر وأخفاه التواء درب الربع.

ـ يعني المسألة قديمة، فتنة وضرب وعركة وفوضى تبرر قتل الأجانب والمصريين وأن كل ما قاله سعد باشا في باريس ولندن لا لزوم له والبلد لا يستقر إلا بوجود الإنجليز.

ـ معك حق يا معروف، واستغلّ عشم وحسانين العركة ونهبوا فانوس ولما حاول يرجع حقه...

ـ حقه؟ والفلوس الحرام تبقى حقه؟

سكتت دميانة وندمت أشد الندم أنها في اليوم المتعوس أرسلت مريم لتنادي أخاها لتخبره أن يوسف هنا في البيت وتعرضت البنت لبهدلة لم تواجهها عمرها كله، همّت بدخول بيتها، أوقفها فيض الله وأدار دفة الحوار..

ـ الأيام مرت يا أم فانوس ويوسف غرضه...

ـ بعد الأربعين يا عم فيض الله، ممكن نكلل نص إكليل.

***

(27)

بعد طلعة الأربعين[39] بأربعين وأم فانوس تسوّف خطوبة مريم، وأم يوسف تارة أخرى توسّط فيض الله لإسراع إتمام الزواج أما يوسف ـ على غير عادة الشباب ـ فيترك لهما وقتًا للتعافي من مصيبتهما، فإنه يرى مقتل فانوس ونهب ماله بعد بيع الدكان كارثة وحلت على أهل خطيبته، فيض الله لا ملاذ ولرفيقه غير قهوة المعلم حسين، والاستماع إلى عبدون أو غيره ومرّ عليه عيد الأضحى بلا طعم رغم أنه ضحّى بتيسين كبيرين وفرّق لحم أحدهما بالكامل صدقة على روح تقاوي، ولم يحرم محتاجًا من مساكين الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة وما كسر حزنه على غياب تقاوي إلا وجود عبيد في حياته وشبابه طوق النجاة لما يتبقى له من أيام وضمان حياة آمنة لمنيفة ومالها الموروث من أهل أمها، فأتاهم يوم العيد بنصيب كل أهل ربع المشعلجية من لحم الأضحية الكبيرة، وأمضى معهم وقت العيد ومنيفة تجهز طعامًا يكفي جيرانهم.

ظهر ثالث أيام العيد عاد جلال البنهاوي بعربة كارو كبيرة، أنزل المكاري جرار السمن وبلاليص العسل والجبن وقفة كبيرة مملوءة بالعيش الشمسي، حضنه فيض الله وسلم على ابنه الكبير زيدان، دهش لأغراض خميرة ومشهور فطمأنه فيض الله بأنهما يقيمان بالبيت مؤقتًا، فلم يهتم جلال وبدأ كلامه بتقديم واجب العزاء في وفاة تقاوي، ثم عرض ما جاء من أجله وهو خطبة منيفة لابنه فأخبره فيض الله بأنها مخطوبة فلم يجادل أو يهتم بمن سبق ابنه لخطبة فتاة الربع الجميلة الواعية، قبل رحيلهما تفتق ذهن فيض الله عن فكرة وبلا تردد عرضها متعشمًا أن يقبل جاره عرضه شراء البيت الضيق بحيطانه المشققة فقبل وكتب معروف ورقة المبايعة من نسختين ونقد فيض الله جاره ثمن البيت، فتعجب معروف من زيادة جنيه كامل من الذهب على قيمة البيت وهمّ أن يعترض على جاره..

بحركة خاطفة أشار فيض الله لهدايا جلال الكثيرة والتي كان هدفها التقرُّب لو حدثت خطبة ابنه لمنيفة وما دام لم يتم ما جاء من أجله فلن يعود بالسمن والعسل والخبز فليدفع فيض الله الثمن.

لا يدري فيض الله كيف تسربت تلك الأيام سريعة بما جرى بها، فأوغلت عليهم أيام الشتاء بغيوم داكنة وأمطار منقطعة فإذا أهدتهم الشمس إشراقها ارتاد مع معروف قهوة حسين والأفندية بنفس قعدتهم تتخبط بين أصابعهم أحجار الطاولة والزهر يترامح بين دفتيها..

ـ سامعين أن ملنر وخواجاته وصلوا بورسعيد.

ـ يظهر أن حكومة صاحبة الجلالة أمرت اللورد يبطط مساعي سعد باشا.

ـ ووزارة يوسف باشا وهبة راضية عن ملنر ومستعد للحوار.

ـ شيء يبسطك يا صليب أفندي.

ـ لا، شيء يسيئني يا محروس أفندي، حاجة تحزني يا ذكي أفندي، كلنا غير راضين عن تصرفات يوسف وهبة الموالي للإنجليز، ومرضيّ عنها من اللنبي والحماية الإنجليزية، اسمع يا محروس، اسمعوا كلكم، كلنا نعيش في بلد واحد وعدوي عدوك، ولأجل ما

تعرف آن آخي جر جس كان مع تصمًا مع القمص باسليوس وغيرهما في الكنيسة المُرقسية، وأعلنوا اعتراضهم على قبول وهبة باشا حماية الإنجليز.

ـ لا تزعل نفسك يا صليب أفندي، قلنا أن يوسف وهبة...

ـ أي شخص يرضى عن عدو بلده خائن، قل لهم حاجة يا هلال أفندي، طول عمرنا أنا وأنت نعمل في مصلحة واحدة ونسكن في بيت واحد.

ـ والله يا جماعة ما شفت أكرم من جيرة صليب، وأحكي حكاية قالتها أمي، زمان ولدت وبعدي شرّف أخي، وصعب على أمي ترضع ولدين، كانت تعطيني لأم صليب أرضع من صدرها، وأبي خوجة الابتدائي قدّم لنا في المدرسة ومن ساعتها ما افترقنا، أنا وهو طاهرونا في يوم واحد.

سحابة من مرح ظللت المتحلقين حول منضدة الأفندية أنستهم مؤقتًا البلاء الأسود الكاتم على أنفاس البلد، وافتقدوا كلمة عنده حق للشيخ عبد الحق لغيابه أيامًا، من حين لآخر يرمقون محروس أفندي وغيره من أفندية بنظرات من سخرية لمواقفهم غير الواضحة وحياتهم في بقعة رمادية من البين بين، التفت إليه معروف وسأله:

ـ وملنر.. أفندي موظف عندهم يا أستاذ محروس؟

ـ وزير يا حضرة مشعلجي الأعمدة سابقًا وشيال القرب لاحقًا، ملنر وزير المستعمرات، حضر ليهدئ الناس ويقضي مصالحهم.

ـ قصدك مصالح بلده ما دام وزير مستعمرات يبقى قدومه ليضمن بقاء الإنجليز يا محروس أفندي.

ـ أنا فعلا محروس، طول ما أنا مع الأقوى أبقى المحروس وأنت المهدد.

ـ والله أنت ما لك غير القرداتي مشهور.

ضحك رواد القهوة وفيض الله يدور بين تلافيف ذاكرته أيام إرسال أوربا لمندوبين أواخر حكم الخديو إسماعيل، نفس اللعبة ولكن زمان قبل الاحتلال لإغراق البلد والتمهيد لقدومهم واليوم لاستمرار وجودهم، فمنذ أكتوبر الماضي والناس تتظاهر احتجاجًا على قدوم اللجنة فتصدت لهم قوة بوليس، ووصلهم أخبار من الإسكندرية حين خرج المصلون من جامع المرسي أبي العباس في مظاهرات كبيرة فتصدّى لهم أفراد البوليس واستعانت بقوات الجيش الإنجليزي، فقتل وجرح أكثر من أربعين، وسمعوا أن سيارة للجيش الإنجليزي اقتحمت جموع الناس، فصدمت من صادفته وثار الناس على الجنود، فأطلقوا النيران على المُتظاهرين، فقتل وجرح العشرات وأول نوفمبر صدر قرار من مجلس الوزراء بمنع التظاهرات ونشرت دار الحماية بلاغًا رسميًا أعلنت قرب قدوم لجنة ملنر وحددت مهمتها باقتراح نظام سياسي يُلائم مصر تحت الحماية البريطانية وأصدر الحزب الوطني ردًا على البيان أعلن فيه سياسة عدم المفاوضات مع المُحتلين، ورجعت المُظاهرات في القاهرة والإسكندرية وطنطا وشبين الكوم، وحكى له عبيد أنه شارك في مظاهرات كبيرة في ميدان عابدين تهتف بالاستقلال وتدعو لمقاطعة لجنة ملنر وهجم الناس على قسم بوليس عابدين والموسكي وتم حصارهم واستدعت الحكومة كتيبة من الجيش الإنجليزي، فوقع صدام بين

الأهالي وعسكر الإنجليز وقتل وجرح فيه العديد من الشباب، وآخذ عبيد غرزة فوق حاجبه، لكن الله سلم ورجع لجدته.

مصائب سوداء وقعت على البلد منذ الإعلان عن قرب وصول ملنر ورفاقه، والله زمان يا إسكندرية أخيرًا يقاوم أهلها الإنجليز بعد دمار طوابيها أيام الهوجة، غيبوبة طويلة من ذكريات قديمة وجديدة استفاق فيض الله من دوامتها على صوت ميمون ومشهور يضرب ظهره بعصا خيزران رفيعة..

ـ خف يدك يا مشهور حرام عليك.

ـ تحسب إني أضرب صاحبي، لا أنا متوعّد ملنر وكل من يرحب بملنر ابن الملنر، عامل نفسه مهم ويسافر في قطار بورسعيد لهنا بحراسة وطيارات.

ـ طيارات.. طيارات؟!

ترددت الكلمة على ألسنة القاعدين واندهشوا لمعرفة القرداتي مشهور لتلك المعلومة التي لم تصلهم بعد، انتفخت أوداج محروس أفندي واعتلت ساقه على أختها في تباهٍ أن رأيه في قوة الإنجليز واحترام رجالهم صائب ومن حوله يجهلون مصلحة البلد معتمدين على ضيق أفقهم وقلة درايتهم بالأمور، أغمض فيض الله عينيه وحتى لا يدع للذكريات القديمة أن تطفو فيضيق بها صدره، نهض عائدًا إلى الربع.

***

ـ الأسود لا لك ولا لها.

قالتها تريزا الجالسة أمام مريم ومنيفة في محاولة منها للتخفيف عن صديقتيها، أمسكت بعروسة المولد التي أهداها عبيد لمنيفة منذ أيام قليلة، رفعتها أمامها وقبلتها في مرح الفتاة التي لم تكمل السادسة عشرة من عمرها فبادلتها منيفة بابتسامة ذابلة.

ـ والنعمة خطيبك إنسان كريم يا منيفة، أحضر أكياس حلاوة المولد لأهل الربع، حتى صاحباتك أنا ومريم.

ـ وفيه حد له نفس يحلي حنكه يا تريزا.

ـ أنا ظروفي ما اختلفت عنكم، أنت يا مريم عمي فنجري تنيح وأنت صغيرة ومنيفة أمها ماتت وعندها أقل من سنتين وأنا كنت في اللفة لما عسكري إنجليزي تحرش بأمي فطعنه أبي ولكن رصاص الإنجليز خرّم بدنه، الله يرحم الميتين ويبارك لنا حياتنا.

ـ ربنا يبارك لك في يوسف، سندك في الدنيا لكن أنا سندي راح.

ـ يوسف سندي وسندك يا مريومة يا ست الكل، وعبيد أبوكِ وأخوكِ وأمك يا منفنف يا ست الكل.

ـ عيب يا تريزا، ست الكل تبقى بمبة كشر، يرضيك نكون...

ـ والله ست جدعة، كفاية أنها تركب الحنطور المزين وقدامها قمشجية وترقص وعلى ناصيتها صينية بأكواب ذهب وفضة.

من فورها نهضت تريزا وثبتت على رأسها صينية عليها أكواب زجاج بها بقية من الشاي، بيدها تمسك بالحافة وترقص وتغني بصوتها المتضخم غير المتناسب مع نحافة قوامها:

يا عشاق النبي صلوا على جماله

دي عروسة البيه تعالوا بنا نسندها له
يا قمر منور سبحان من صور...[40]

تقطع صوتها وأخذتها الجلالة فتركت أصابعها الصينية فانزلقت من على رأسها وبلل الشاي المدلوق الأثواب، ضجت الغرفة بضحك الفتيات وحقيقة فرحت تريزا أنها قدرت على إزالة الحزن من صاحبتيها وحضنت كل منهن الأخرى وتواعدن على يوم الخميس للتجول في الموسكي والعتبة والأزهر للتسوق وشراء ما يلزم بعد أن هدأت زحمة موسم المولد النبوي منذ الخميس الماضي.

***

فيض الله يغلق باب حجرته مختليًا بنفسه، هزال يدب بأطرافه ويشعر به يسري بكيانه، قراره بأن يستر منيفة لا رجعة فيه، وخير البر عاجله كما يردد معروف، وعبيد أسابيع وتنتهي دراسته بمدرسة الحقوق حتى لو تزوج وهو طالب فإنه لا يشكو من قلة، وجدته تحوز أرضها الموروثة من أبيها عزيز بك المصري ومنيفة نفسها لديها ثروتها التي جاء بها خالها عطية والبيت وبيت البنهاوي ملكها فيتبقّى إتمام موضوعها وبعدها لا يهمني أعيش أو يسترني الموت.

بديمومة العادة رفع وجهه نحو الباب متوقعًا أن يدخل عليه تقاوي ويعاتبه في لطف أنه يكلم نفسه، دمعة ساخنة تعرجت بين شقوق أخاديد خده، بكفه مسحها، فجأة داس بكفه على جنبه وسقط قلبه لعدم وجود الطبنجة، اعتصر مخه فتذكر أنه أخفاها بعد حادثة مقتل فانوس و رصاصة ا لمسدس أ نقذت م ريم م ن ع دوان ا لإنجليزي ا لفاجر، أ فرغ م قتنيات الصندوق، قلب المرتبة الزنخة، خلع باب الطاقة الخشبي وفتش بجوف الجدار، بقي أن يحفر في الأرض لئلا يكون قد دفنها ولا يدري، نهض ملتقطًا أنفاسه، استند بكفه على الحائط، تلحلح القا لب فاستراحت نفسه المهزومة من فرط نسيا ن لا يمحى بغير كونياك الخواجة لينوس، برفق سحب القالب فرآها دافئة داخل الكيس الصوفي، رفعها أمامه واطمأن على عدد الرصاصات، أعادها لمكمنها وشعور جارف يجتاح نفسه أنه سيستعملها قريبًا، قريبًا جدًا وهي كل ما بالصندوق ميراثه لمنيفة.

***

طلعة الأربعين: زيارة المتوفى بعد أربعين يومًا من وفاة.
أغنية من تأليف أمين صدقي، ألحان وغناء سيد درويش.

(28)

جوار جدار أوقفت منيفة تريزا ومريم واقترحت أن يرجعن إلى الربع لحين هدوء الشوارع من عسكر الإنجليز الطائحين في أي تجمع من متظاهرين يهتفون ضدهم ويحرقون علم بلادهم وأكثرهم يرفع صورة سعد زغلول، لم تقتنعا وتسوقن في عجالة بعض الخردوات من دكاكين الموسكي، تجولن قليلا بالعتبة وحددت تريزا ما تريد شراءه، أما مريم فاكتفت بكيسين كبيرين، انتقلن إلى ميدان الأزهر يتفرجن على أقمشة أحد الدكاكين، التفتت منيفة إلى الشباب الهاتفين معهم طلاب يرتدون العمائم والقفاطين متجهين نحو الجامع الأزهر، اصطكت ركب مريم وتحولت جرأة تريزا إلى رغبة حقيقية في العودة والنجاة من هول صخب المظاهرات والهتافات بعد دخول عسكر الإنجليز الشارع الكبير والضرب المستمر بهراواتهم رءوس المتظاهرين، ومع أول إطلاق للرصاص تفرّق الشباب في الأزقة والحواري ومنهم من لجأ إلى تكية محمد بك أبو الدهب القريبة ورأت منيفة الملتصقة بصديقتيها عسكر الإنجليز يجرون خلف طلاب الأزهر اللائذين بالمسجد ويلاحقونهم داخله وفرقعات الرصاص تصخب، اشتد التحام الصائحين بعسكر الإنجليز وعلت الهتافات: عاشت مصر حرة مستقلة، الاستقلال التام أو الموت الزؤام، ارحل يا ملنر، سعد سعد يحيا سعد...

تلاحمت الأجساد والصدام في ذروته حتى أن الفتيات لم تجرؤ إحداهن على رفع رأسها فالرصاص يرف حولهن ويحرق أي جسم يصيبه، صرخت تريزا لارتماء سيدة على الأرض ورأسها أمام قدم مريم، فانحنت عليها وعاونتها على النهوض لكن السيدة مصابة برصاصة في وركها، قلة حيلة الفتيات ألجأتهن إلى ضمها إلى الجدار دون السير خطوة واحدة، رجل ينزرق من بين الأجساد المحشورة ويصل إليهن فلا يهتم إلا بالمصابة فأحاط خصرها بذراعه وتراجع ومن باب النجاة تبعتهما مريم وتريزا أمسكت ذراع منيفة تجرها، تمنت ألا يكون تلاميذ مدرسة الحقوق بالمظاهرة، الرجل يجر امرأته وسكة ضيقة مفتوحة للتحرك وتتعثر خطوات البنات إلى أن ظهرت انفراجة تؤدي إلى حارة جانبية تضمن الأمان، في استدارة منيفة لمحت بطرف عينها جنديًا إنجليزيًا يهوي بعصاة على ظهر.. عبيد...

في وجل صرخت بها وتخبطت قدماها، توالت صرختها الضائعة وسط الغبار واصطخاب المتعاركين مع البوليس والإنجليز، لم تستجب ليد تريزا الساحبة لها، فالجندي الآخر يشهر السونكي ويطعن أي جسد أمامه وعبيد يوليه ظهره والسكين تنغزه ولا مفر، شاب يحاول سحب عبيد بعيدًا، العسكري الإنجليزي يهم بطعن ظهره، رصاصتان انطلقتا فخرّ عسكري الإنجليز بين الأحذية، أمسك عبيد كتفه ومال جسده فتلقاه فيض الله ومعروف يفتح السكة لتهيئة طريق للتقهقر، وأفندي آخر حاميًا عبيد فيتلقى ضربات العصي، معروف يدفع أي بدن من أمامهم، وجه منيفة المنقبض وصرختها نبهت جدها لوجودها، أشارت لاتباعها نحو فتحة زقاق ضيقة، ومريم وتريزا استقبلتا العجوزين وعبيد المصاب ووجهه يتصبب عرقًا، لا مفر من النجاة بغير مواصلة سيرهم فقادهم معروف الخبير بالشوارع والعطفات والأزقة نحو درب جانبي يعرف أنه يؤدي إلى شارع آخر.

ظلوا سائرين وعبيد يتأوه وأدرك فيض الله أن إصابته بطلق ناري أسفل كتفه الأيسر، ابتعدوا تمامًا عن موطن الخطر وأصوات الطلقات تلعلع والفارون يغلقون على أنفسهم أبواب البيوت ولا ملجأ لفيض الله ومن معه بغير حنطور لنقل عبيد أما البنات فيصحبهن معروف إلى الربع بالسيدة زينب عبر طرق يعرفها.

لا حناطير مارّة في تلك الساعة من القتال الدائر بحي الأزهر، عربة سوارس مركونة والفرس يميل رأسه ويقتات من جوال التبن، الأمر لا يحتمل التردد لف فيض الله ذراع عبيد حول كتفيه وقوس ذراعه حول وسطه والشاب مستسلم لقيادته إلى أن عاونه معروف ومنيفة على ارتقاء العربة، وتمدد بين الكنبتين المتقابلتين وقعد فيض الله مكان السائق، سحب القمشة وهوى فرفع الفرس رأسه إثر لسعة القمشة القوية وأطلق صهيل الاعتراض على بتر غدائه التفت فيض الله إلى معروف..

ـ ارجع بالبنات يا معروف.

عجز فيض الله عن قول أي كلمة زائدة، قاد العربة بقوة والفرس يركض منصاعًا للقمشة الملهبة لفخذيه، والعربة تهتز وتتعثر بالقوالب والأحجار الملقاة وسط الطريق، التجار أغلقوا أبواب الدكاكين والناس يهرولون مختبئين ببيوتهم والحناطير رابضة دون البهائم، السوارس متجهة مباشرة إلى شارع قصر العيني وفيض الله غير عابئ بمن يشير إليه أن يتوقف حتى لاحقه فرد من قوات البوليس إلى أن أوقف العربة أمام بيت حليمة هانم، نزل لاهث الأنفاس فرفع فرد البوليس الهراوة في وجهه، لم يبال فيض الله وجرّ ساقي عبيد المغمى عليه فأدرك الأونباشي أن من بالعربة شابًا مصابًا لا متظاهرين بسلاح كما ظن، قويت عزيمة فيض الله وأتم إخراج عبيد من جوف العربة، ألقاه على كتفه، حاول فتح الباب المغلق فدفعه عسكري البوليس المصري وجرى البستاني نحوه وشهق حين لمح عبيد محمولًا على كتف العجوز، بادر باكتمال انفراج الباب واجتاز الحديقة وأمام السلالم ارتعشت ساقاه فعاونه البستاني في إنزال عبيد والصعود به وهو بين أيديهما، لوى فيض الله رأسه للأونباشي المصري الواقف أمام باب البيت رافعًا يده بالتحية ولم يلبث أن اختفى.

واصل فيض الله صعوده وقوة البستاني منير ساعدته في الوصول للباب الكبير دفعه البستاني فانفتحت درفته، وقفت الخادمة وهي تفرد أصابعها على فمها وانطلقت منها صرخة مكتومة منادية على سيدتها فأقبلت حليمة هانم وجحظت عيناها لعبيد المائل بجسده على الكنبة، لم يتردد فيض الله وجرّد عبيد من جاكت البذلة وفك أزرار الصدار وعقدة الكرافت، بقعة دم بيضاوية ألهبت حليمة هانم وزعقت في البستاني بأن يستدعي جارهم الطبيب، خلعت الخادمة فردتي الحذاء وتارة أخرى وجد فيض الله من يعاونه على حمل عبيد إلى غرفته، تمدد عبيد على السرير وفتح عينيه وأغلقهما وانتابته نوبة فقدان الوعي فكشف فيض الله عن الجرح وكما توقع الرصاصة مخترقة ما بين أسفل الكتف وأعلى القلب، عبيد ينتفض فسحبت جدته البطانية الثقيلة، فيض الله ينهار على أقرب كرسي ولم يلبث أن أقبل الدكتور قنديل يتبعه ممرضه.

من أول فحص للإصابة حدّد ما يجب فعله، بدربة ومهارة خلع الممرض عن عبيد قميصه وحليمة واقفة لا تدري ما تقول، تضم أصابعها وتدعو ربها أن ينجي حفيدها، بالماء نظف

الممرض الجرح وتلاه بالمطهر ذي الرائحة النفاذة، تأكد من تعقيم آلاته، أقحم بوز المقص المعكوف ودار به ناحية الشمال وناحية اليمين انفرجت أصابعه قليلا ثم ضمها وسحب فخرج المقص وبين شفرتيه الرصاصة والممرض يمسح الدماء الراعفة من حول الجرح، تأوه عبيد وفتح عينيه، نطق باسم منيفة فأخبره فيض الله أنها بخير ورجعت مع معروف البيت، قرر الدكتور البقاء لملاحظة عبيد وممرضه مسح الدماء من ندوب جبينه الناز فة وطهرها وأحاطها بالقطن والشاش، وبقي يحوطه بالعناية التامة، طلب من حليمة هانم والعجوز الخروج من الغرفة، شرب فيض الله الماء وهمّ بالوقوف، ناولته حليمة هانم عكازًا ثمينًا من خشب الأبانوس الأسود، أراد إعادته فامتنعت السيدة الكريمة..

ـ والله ما يغلى عليك يا عم فيض الله، احك ما جرى.

ـ استأذنت منيفة بالخروج لشراء ما تعوزه من الموسكي والعتبة والأزهر.

ـ لوحدها؟

ـ مع بنات الجيران مريم وتريزا ولما وصلني وأنا قرب جامع السيدة تظاهر الناس بالأزهر صحبني معروف لأرجع البنات، الناس كالرمل وعسكر الإنجليز والبوليس في مواجهتهم، اشتد الضرب ولمحت عبيد يتعارك فخلصته من بين الإنجليز وطلبت من معروف الرجوع بالبنات للربع.

لم تعلق حليمة هانم، نهضت من قعدتها وانحنت على رأس فيض الله تقبل جبينه، وتبعثرت كلمات الشكر والامتنان: ـ العفو يا ستنا، ما عملت غير الواجب، عبيد ابني.

ـ وخطيب الغالية منيفة.

ـ والله يا ستنا لو عينك وقعت على منيفة وهي تجاهد لإنقاذ عبيد...

ـ أصيلة وبنت أصل، صدقني يا عم فيض الله اتفقت مع عبيد نتمم الزواج بعد امتحاناته لكنه متحمس للمظاهرات.

ـ لأنه إنسان كريم ومصري أصيل.

ـ صح يا عم فيض الله ، رغم أن عصمت شركسي لكن عبيد نبتة مني.

ـ أستأذنك، غرضي أطمئن على البنات.

ـ أنتظرك عن قريب.

لم ينطق وألقى نظرة من بعيد على عبيد المسجّى على سريره الوثير وغادر عائدًا إلى الربع.

***

ـ والسوارس تصرفت فيها؟

سأل معروف صديقه الجالس على المصطبة ساكتًا ساهمًا، مشاهد متقطعة من أحداث النهار تومض وتختفي، منذ علمه بخروج منيفة مع رفيقتيها واندلاع المصادمات بين المتظاهرين وعسكر الإنجليز وقراره بمشاركة معروف في البحث عن البنات وإرجاعهن الربع وقبل ذهابه تمنطق بالحزام الجلدي لجراب الطبنجة، ورؤيته لعبيد يتخبط بدوامة من الناس وعسكر الإنجليز وكاد يفقد روحه حين ناوشته سونكيات بنادقهم، ومع إطلاق رصاص بندقية أقربهم إليه أطلق عليه رصاصة من الطبنجة المخفية في كم جلبابه الطويل ومن تلك اللحظ بدأت مغامرة إنقاذ عبيد، لا، لا، إنقاذ مستقبل منيفة الأمن...

ـ رجعت تكلم نفسك.
ـ ما لك يا معروف؟
ـ السوارس؟
ـ زمانها رجعت لصاحبها، قابلت عربجي قرب مقام السيدة وتعرّف عليها وطلبت منه إرجاعها لصاحبها.
ـ أفضل من أن ينادى عليها في الشوارع والأسواق: سوارس تائهة يا أولاد الحلال.
ـ انتهينا يا معروف والحمد لله البنات بخير، تعال على القهوة.
ـ فيه قهوة فاتحة بعد هوجة النهار؟
كأن فيض الله لم يستمع لكلمات صاحبه فتوكأ على مقبض العكاز الثمين وتوالت خطواته ومعروف يتبعه، صدقت مقولة السقاء العجوز فالقهوة مغلقة والدكك الكراسي والمناضد ملمومة في ركنها..
ـ نرجع وإن كان على الجوزة، معي المعسل ونشعل كوزين ذرة ناشفين و... أبو تقاوي، بص هناك.
التفت فيض الله إلى حيث يشير معروف، في زاوية بين الحيطان، مشهور مسندٌ ظهره وقرده ميمون حاضنه والدماء تلطخ جاكت البذلة المرقعة، بحذر يقترب فيض الله ويضرب كفًا بكف.
ـ يا الله، حكمتك يا رب، مشهور مات وقرده حاضنه وما رضي يفارقه.
ـ الله يرحمك يا غلبان، نجهزه يا فيض الله، ونبلغ إمام الجامع وندفنه في مدافن الصدقة وإن كان على القرد أربطه في بيت البنهاوي وأطعمه من أكلنا.
بحرقة علا نحيب فتراجع فيض الله إلى الوراء، غير مصدّق أنه من الجثة الهامدة وبكل تأكيد ليس صوت ميمون، اعتدل مشهور وبرفق أبعد ميمون من على صدره بكى معروف ونغزه ألم لمنظر الرصاصة المخترقة صدر الحيوان المسكين وبؤبؤ عينه ساكن، دمعة ذرفت من عين فيض الله، اقترب من القرداتي وربت على كتفه، حاول أن ينهضه فتراخت قدماه ولا يزال يضم صاحبه ورأسه مائل للخلف، وقف بين فيض الله المتأثر ومعروف..
ـ قردك مات يا مشهور، ارمه فوق كوم الزبالة.
ـ امش يا ملعون، إلهي تلقى في جهنم يا بعيد.
ثانية واحدة ما بين تندر محروس أفندي المار أمام القهوة المغلقة وبين رد معروف الصارم مما جعله يتركهم في خطوات متلاحقة ولم يبال بما وقع من كيسه، اختفى عند انحناءة الحارة، مال معروف على اللفة القصيرة وفرد الورق، زجاجة كونياك معتقة عليها علامة تجارية إنجليزية، التقطتها وأعطاها لفيض الله..
ـ يا سلام، فيك حاجة لله يا فيض الله، كونياكهم غنيمة لنا.
وكز فيض الله كتف معروف، فانتبه لمشهور الحامل على كتفيه جبالًا من الحسرة والحزن، ومعروف يتوقع أن يرمي القرد الميت بأي خرابة لكنه ظل يحضنه وعاد به إلى الربع، افترش أسفل جدار بيت البنهاوي، فيض الله يربت على كتفه ويأمره: ـ ادفنه يا مشهور، لفه بالقماش وادفنه هناك في حوش بيت جلال البنهاوي.

تعاون معروف مع خميرة في تجوين النقرة وبصعوبة انتزع فيض الله جثة القرد من بين يدي مشهور المتشبثتين، لفه بقماشة عريضة وأراحه وسط النقرة وأهال عليه خميرة ومعروف التراب..

ـ والله لو أمكن أغسله.

ـ لا، يندفن من غير غسل، وله أجر الشهيد.

ـ لا تشطح يا مشهور.

ـ أنا عاقل يا عم فيض الله، بالقرب من الأزهر، كنت أضرب عسكري إنجليزي بالعصا وأزعق فيه: ارحل ارحل يا ملعون.. ومن غيظه ضربني بعصاه فصاح ميمون وغرز أنيابه بذراع الإنجليزي فصرخ ورفع مسدسه وقتل المسكين.

أطرق مشهور ودموعه بللت خده، مسحها بكم جلبابه وتبعثرت كلمات الترحم على رفيقه وتوعد محروس أفندي بعلقة...

ـ قردك أشرف منهم يا مشهور..

غادرهم فيض الله إلى بيته، أغلق باب حجرته، من جوف الصندوق التقط الطربوش القديم، دسّه بكيس من الكتان، أشار لمعروف أن يتبعه فترك مشهور الباكي على قرده وخميرة يواسيه ويميل على فمه قرعة بوظة، ترافق العجوزان إلى الجمالية وانحرف فيض الله في شارع جانبي، تسارعت خطواته حين رأى الصبي يسحب درفة باب الدكان، ألقى السلام على الحاج أحمد الطرابيشي فنهض الرجل مرحبًا، وأمر صبيه بكرسيين وأكواب من الحلبة..

ـ مرحبًا يا عم فيض الله، عم كل مشعلجية بر المحروسة، الله يرحمها أيام كانت كلها خيرًا وبركة..

ـ الله يكرمك يا حاج أحمد.

ـ وأخبار تقاوي؟

ـ العمر الطويل لك يا حاج.

رجع الحاج أحمد بظهره إلى الوراء وارتسمت على تقاسيم وجهه آيات الاندهاش، مال عليه معروف وأوضح في كلمات قليلة ظروف رحيل تقاوي فنهض الحاج أحمد وحضن فيض الله كأنه يعتذر عن جهله بالخبر..

ـ البركة فيك يا عم فيض الله، صحيح يا جدعان، الدنيا تلهي المخ.

ـ فيه خدمة يا حاج، طربوش غرضي أنظفه وأرجعه جديد.

تناوله الطرابيشي وقلب فيه، فحصه جيدًا، هزّ رأسه لصنعته المتقنة، قلبه ولامست أنامله قعر الطربوش، استغرب البقع الداكنة على قماشته العتيقة، رفعه قليلا وهو يتوقع أن تزكمه أنفه رائحة زهمة لكن رائحة طيبة طافت لا يدري من أين، التفت إلى فيض الله..

ـ طربوش من جوخ أسطنبولي أصيل يا شيخ فيض الله، اشتريته من دكان أنتيكات ولا لقيته في بيت قديم؟

ـ لا يا معلم، ملك إنسان عزيز عليّ.

ـ تمام، يومين ويجهز.

ـ ولو أمكن الليلة.

ـ صعب، الصبيان شطبوا غير آن الطربوش نفسه محتاج شغل، ننقعه ونليّنه ونركبّه على ا لاسطمبة وقالب ا لنحاس والمكبس غير بطا نة ا لحرير وخياطة الزر الأسود وبعدها المكواة ونبخره ويكون جاهز إن شاء المولى.
ـ وحسابه؟
ـ عيب يا معلم فيض الله، حسابه وصل، أنا وورشة الطرابيش تحت أمر إنسان نبيل قاتل مع عرابي باشا الإنجليز، آه، الإنجليز سبب وكستنا، الناس بطلت لبس طرابيش وبقت تحط على نواصيها برانيط إفرنجي.
ـ الدنيا بخير والله، فيه ناس فاكرة.
ـ أكيد يا عمنا، ربنا يعطيك الصحة ويصبرك يا رب.
نهض فيض الله وأنهى معروف رشفة كوب الحلبة الأخيرة، فرد فيض الله قامته وسار وفي نفسه زهو يلتفت إلى معروف ويبتسم..
ـ يا سلام، على الناس الطيبة.
ـ لأنه وفّر لك أجر نظافة الطربوش؟
ـ طربوش يا رجل يا طربوش، لأنه فاكرنا يا يوزباشي معروف بفرقة الطوبجية.
ـ سعادة أميرالاي لو سمحت.
ضحكات صافية تبادلها الصديقان وكل منهما يلتمس دفء وقعات أيامهما الفائتة في ديوان الجهادية وتطوف بفيض الله أمنية يدرك أن الأجل قد يوافيه قبل تحقيقها، استوقف رفيقه ورفع سبابته في قوة.
ـ أتمناه يا معروف.
ـ تتمنّى من يا فيض الله؟
ـ مصري مثل عرابي يواجه السلطان ويطلع الإنجليز من البلد.
ـ أمنيتك عند علام الغيوب.. وأبقى نم وتغطى و... شد اللحاف على جسمك غيره ما يفيدك..
ـ اسمها شد اللحاف على جسمك يا عم معروف؟!
ـ أغنية جديدة في رواية لكشكش بيه يا ولد يا خميرة.
ـ عارفها، ولحنها الشيخ سيد درويش الإسكندراني، وكل الناس وهي تكرع البوظة تغنيها: شد الحزام على وسطك غيره ما يفيدك

لا بد عن يوم برضه يعدلها سيدك
إن كان شيل الحمول على ضهرك بيكيدك
أهون عليك يا حر من مدة إيدك(41)

اهتز فيض الله من الضحك على صوت خميرة المبحوح وهو يغني ويمثّل كلمات الأغنية فيلف ذراعه حول وسطه ويحني ظهره أكثر مما هو محنيّ، ثم ينهيها بمد يده فيلقي فيض الله عدة قروش يضمها خميره ويحضن جاره العجوز ويشكره على كرمه وحفاوته المبالغ فيهما، يتركه فيض الله ويخطو نحو مشهور، يربت على كتفه مواسيًا فقدانه لصاحبه ومصدر رزقه،

يتصدّق عليه بعدة قروش فيعدها مشهور ويعتدل في وقفته، بدوره يقبل كتف فيض الله، يغادرهم فيتربع فيض الله على المصطبة وبكيانه سعادة يعجز عن وصفها.

لا يدري متى رأى الوجه المقترب منه يرتدي جلبابًا وطاقية تميزه بأنه من فلاحي المنوفية، يلقي السلام فيرد عليه فيض الله ويقف معروف متفرسًا وجه الرجل الأربعيني، انتظر قليلا حتى يسمح له فيض الله بالجلوس ففرد له ذراعه وعصف بذاكرته لكنها أبت أن تفصح عن معرفة للوجه المألوف بشاربه القصير، أدرك الرجل معاناة العجوز فعاجله: ـ لا تفتكرني يا عم فيض الله!

ـ والله يا ابني يمكن أكون وقعت على وجهك قبل سابق.

ـ أنا الأونباشي حافظ عبد الله المليجي.

ـ أنعم وأكرم.

ـ وأنت، أنا عارفك، مشعلجي الناحية وكنت قائدًا أيام هوجة عرابي.

فرد فيض الله ساقيه وتارة أخرى حاول تذكره كي يفتح معه حوارًا وتارة أخرى عاجله الرجل: ـ أنا عسكري البوليس المطارد للولد جارك تاجر الحشيش.

ـ آه، الله يرحمه.

ـ الله يرحم الجميع، كنت في إجازة في مليج ولما رجعت صممت أزوركم وأعزي المقدسة أم الولد.

ـ لا تقلب عليها المواجع يا حضرة الأونباشي.

ـ أنا حكيت لوالدي عنكم وهو يعرفك.

ـ يعرفني؟

ـ والدي عبد الله المليجي كان أسطى في ورشة الدوكمخانة[42] وأسطى معمل الحوض المرصود قبل غلقهم.

ارتعشت شفتا فيض الله وأدرك معروف ما اختلج بنفس صاحبه من ألم ممض لسيرة ورش ومصانع الجيش التي أغلقت بعد أشهر من نكبة الهوجة، تمالك فيض الله نفسه وسأل الأونباشي حافظ: ـ الله يرحمها أيام، يلزم خدمة يا حافظ؟

ـ أبدًا يا عم فيض الله، كان غرضي أعتذر عن مطاردتي لكم بعد عركة القهوة وانتظرت الوقت المناسب.

ـ والوقت المناسب بعد الهنا بسنة!

ـ والله يا شيخ...

ـ عمك معروف وأبي كان عامل في ترسانة السلاح في القلعة.

ـ صدقني يا عم معروف أخاف من الزملاء لو واحد منهم عرف بزيارتي لكم يفتن عليّ عند الميجور وألقى نفسي مفصولًا ومسرّحًا، الإنجليز ما لهم أمان وأنا لا أرض ولا زرع ولا تجارة وقُوتي من...

ـ لا تكمل يا ولدي، الحمد لله، وشكرًا على شهامتك، كان ممكن تقبض عليّ وتتهمني بقتل الإنجليزي وتترقى.

ـ كلا وحاشا يا عمنا.

ـ آنا فعلا قتلت العسكري الإنجليزي وما كنت آقدم على الفعلة إلا لما رأيته يبهدل آخت فانوس.
ـ القتيل؟
ـ هو بعينه.
ـ لولا بذلتي لقتلته أنا الآخر، والله لا ينضرّ إنسان في مروءتك يا عم فيض الله، وكفاية أن أبي قال أنك كنت واحدًا ممن حرّر عرابي من سجن سراي عابدين، وقاتلت معه في التل الكبير.
ـ وأنا حاربت في القصاصين وكفر الدوار وضربت بالمدفع على سفن الإنجليز من طابية قايتباي.

انشرح وجه حافظ المليجي وبدت على ملامحه أمارات الاعتذار الحقيقي دون أن يفصح لسانه عنها، نهض مادًا يديه فسلم على معروف ولا يدري لمَ حضن فيض الله وتراجع خطوة وباغتهما برفع يده تحية للمحاربين العجوزين، استأذنهما وانصرف في سرعة كزيارته وودعته نظرات فيض الله وفي نفسه فخر واعتزاز لأن واحدًا من قدامي معلمي ورش الجيش لا يزال على قيد الحياة ويتذكره، وفي نفس الوقت داخله غم لحال البلد المقلوب وزاد حنقه على الإنجليز وتمنّى أن تعود أيام شبابه المنطوية فيظل يقاتلهم إلى أن يسقط كرفاق فرقته بالتل الكبير.

***

أغنية قدمت بمسرحية (قولوله) من تأليف بديع خيري وألحان سيد درويش، وتمثيل فرقة نجيب الريحاني 1919م.
ورشة الدوكمخانة: لصب الآلات وسبك الحديد.

(29)

ـ بلاغ سلطاني يعلن فيه مجلس الوزراء عن ميلاد الأمير فاروق بقصر عابدين فأطلقوا إحدى وعشرين طلقة مدفع، ومُنح موظفو الحكومة والبنوك إجازة أمس الأربعاء الحادي عشر من فبراير ألف وتسعمائة وعشرين الموافق واحد وعشرين من شهر جمادى الأولى للعام الهجري ألف وثلاثمائة وثمانية وثلاثين، والحمد لله اليوم الخميس خصم لي ناظر المدرسة يومين من ماهيتي المتواضعة؛ لأني سهرت طوال الليل أنظم قصيدة لتهنئتنا نحن المصريين بمولد سمو البرنس وراحت عليّ نومة ولم أحضر..

ـ هاهاهاها.

بهجة تطوف بين رواد قهوة المعلم حسين، من كلمات الشيخ عبد الحق الخوجة، وتبادل الجالسون تهنئات عبثية بألفاظ نابية..

ـ السلطان فؤاد ماشية مع مزاجه، تخلص من شيوه كار هانم من أكثر من عشرين سنة وعاش في أوربا على كيفه.

ـ وتزوج صبية أكبر منها بربع قرن وزيادة، نازلي هانم بنت عبد الرحيم صبري باشا وزير الزراعة.

ـ أصله كاره أهل زوجته شيوه كار، فاكرين لما أخوها الأمير أحمد سيف الدين ضرب عليه نار في نادي محمد علي ومن يومها وسبب له عاهة في صوته.

ـ كانت الرصاصة سببت له عاهة في... وانقطع نسله.

تارة أخرى ضجّت القهوة بالضحك من كلمات الشيخ عبد الحق وهو نادرًا ما يقعد على القهوة وإن فعلها لا يشارك في حوار المستوظفين غير بكلمة عنده حق، المعلم حسين يتلفت يمينًا ويسارًا وحمد ربه على كون قهوته متوارية في زاوية بعيدة فلا رواد لها غير أهل الحواري والأزقة والعطفات المجاورة لمسجد صرغتمش وابن طولون، على نفس الدكة المنزوية معروف يرضع من مبسم الجوزة ويزفر دخانها في التذاذ وفيض الله جواره يرشف الشاي ويتلاقى حاجباه أسفًا على الاحتفال بمولد سمو البرنس الجديد بعد شهور حمل صاحبة الجلالة نازلي هانم، تلك الشهور حملت في أحشائها مشاهد قتل عسكر الإنجليز للمصريين وكاد عبيد نفسه خطيب منيفة يفقد حياته تحت سنابك سواري الإنجليز بعد إصابته بالرصاص يوم مظاهرات حي الأزهر وبعدها ثار المشايخ وكتبوا احتجاجًا وقعوا عليه وأرسلوه إلى السلطان فؤاد وإلى يوسف وهبة رئيس الوزراء وإلى اللورد اللنبي نفسه مما جعل نائب جلالة ملك بريطانيا كما يطلق على نفسه يرسل اعتذارًا لفضيلة الشيخ محمد أبو الفضل شيخ الجامع الأزهر وكما اعتاد في سياسته الثعلبية ألقى مسئولية الهجوم على المتظاهرين بالأزهر إلى اضطرار الجنود الإنجليز للدفاع عن أنفسهم ضد من يهاجمونهم ويلقون عليهم الأحجار.

عاد فيض الله يفكر في وجود ملنر وأفراد لجنته فبقاؤهم بالقاهرة ولّد مواجهات جديدة لم يرض عنها لدرجة أن تلميذًا بمدرسة الطب ألقى قنبلتين على موكب رئيس الوزراء يوسف وهبة لكنه نجا من الموت المحقق، وحقيقة أعجب أيما إعجاب بموقف الأمراء كمال الدين

حسين وعمر طوسون ويوسف كمال من آقارب السلطان وتحركهم المعلن في يناير الماضي ومطالبتهم باستقلال البلاد دون قيد أو شرط وزادت جرأتهم فأرسلوا مذكرة إلى اللورد ملنر بمطالبهم وهم من هم من أفراد أسرة السلطان فؤاد، أفاق على صوت محروس أفندي المميز وهو يصطاد دائمًا في الماء العكر..

ـ الحق يا جماعة أن الأولى بالحكم بعد السلطان فؤاد هو الأمير محمد علي ابن الخديو توفيق.

ـ تقول الحق يا محروس أفندي.

ـ أي نعم، أقول الحق يا عبد الحق.

ـ الحق، ما أسخم من سيدي إلا ستي، الأمير المسمى على اسم جده حاقد ومرمي في حضن دار الحماية، عشمان يكون سلطان مصر في قصر عابدين، ومن قصر الدوبارة لقصر عابدين يا قلبي لا تحزن.

ـ يا جماعة الخير، يا أفنديات، أتوسّل لحضراتكم، كفاية كلام بدل ما تخرب القهوة وينقطع رزقنا، الله يلعنها سيرة يا أخي.

جهر المعلم حسين بكلماته المعترضة على جدال جلساء قهوته، نطر وهو يرفع ذراعيه ونظراته تزوغ بين جنبات القهوة وروادها القلائل لئلا يكون أحد مرشدي البوليس أو الإنجليز مندسًا فيقبض عليه ويحرق محل أكل عيشه.

تارة أخرى يسرح فيض الله بين دروب وقعات أيامه المنقضية فبعد أن تسلم الطربوش من ورشة المعلم أحمد الطرابيشي، تأمله وكأن صاحبه اشتراه لتوه ورحل ولم يضعه على رأسه، لا يدري كيف توافقت أمنيته مع ما طلبته السيدة حليمة فبينما يستريح في جلسته المعتادة جاءه جنايني حليمة هانم يخبره بطلبها رؤيته فذهب معه، واطمأن على عبيد الجالس على كرسيه وحول كتفه الأضمدة، أخبرته بمعرفة عصمت بإصابة ابنه وقراره الحاسم باصطحاب عبيد لأسطنبول لمباشرة علاجه، وأبدى عبيد رغبته في إعلان خطبته مع صعوبة انتقاله إلى بيت فيض الله لاشتداد جرحه.

رفع معروف الحرج عن صاحبه بأن يعرض الأمر على منيفة ويرى رأيها، سكتت وأطرقت رأسها وسالت دمعتها على خدها من قلق التأرجح بين إتمام خطبتها ببيت عبيد على غير العادة وتأجيلها لحين عودته وهو ما يرفضه خطيبها المتمسك بها، خشيت عليه من ثقل الحزن وألم إصابته، صمتها دفع فيض الله لأن يستشير أم فانوس، لا يزال حواره مع دميانة الحكيمة يتردد..

ـ ورحمة فنجري لولا الملامة لزغردت.

ـ يرضي ربنا تكون الخطوبة في بيت العريس!

ـ يا سيدي، تبقى في بيت العريس أو العروسة، المهم يكون فيه فرح، كفاية حزن يا عم فيض الله وفرّح بنت ابنك اليتيمة.

تارة أخرى أرسلت حليمة هانم خادمها لكن فيض الله لم يذهب إليها وبعث لها برسالة على لسان منير الجنايني بأن تكون الخطوبة ظهر يوم الخميس لأن الإنجليز حظروا التجول بالليل، المشكلة الثانية هي خطوبة مريم ويوسف فاتفقوا أن تكون نفس يوم الخميس، الأربعاء

التفوا حول نيران الماجور الهادئة فيض الله ومعروف ومنيفة جوارها مريم وآمها ويوسف وآمه وتريزا واتفقوا تأخير خطوبة منيفة وعبيد إلى العصر على أن يكلل لمريم ويوسف صباحًا وعلى غير المألوف.

جميعهم في ضيافة الكنيسة والأب إبرام يرفع الصليب تارة على رأس مريم وأخرى على رأس يوسف، ويتلو صلواته المباركة ويختتمها بالدعاء بأن يحفظهما الرب من الحسد، ويهبهما محبة متبادلة ويمنحهما حياة كاملة في طاعته ويحرسهما بعنايته ويؤسسهما في الإيمان والفضيلة، ويصونهما من الخلاف والرذائل ويباركهما ببركات رؤساء الآباء والرسل القديسين ويمتعهما في الوقت المناسب بفرح الإكليل والشماسة يرددون: آمين أكسيوس[43].

ما إن انتهت مراسم خطوبة يوسف ومريم حتى كان الحنطوران أمام باب الكنيسة وتوجهوا مباشرة لبيت حليمة هانم، باب الجنينة مفتوح على مصراعيه وفي الصالة الكبيرة هيّأ الخدم أماكن الجلوس وكرسيين في المنتصف، منيفة الفرحانة بخطبة رفيقة طفولتها تكتمل فرحتها اليوم وهي جالسة جوار عبيد وقد خفف الحكيم باشا من لفة الضماد؛ ليتمكن من ارتداء البذلة، وفي ناحية اليمين تجلس مريم جوار يوسف والخادمة وصيفة تطبل، معروف أمسك بعصاه وتحزم رغم اعتراض فيض الله صمّم يرقص على كلمات أغنية ترددها تريزا وشغالات بيت حليمة هانم:

الحلوة دي قامت تعجن ف البدرية
والديك بيـدن كوكو كوكو في الفجـرية
يلا بينا على باب الله يا صـنايعية
يجعل صباحك صباح الخير يا اسطى عطيـة
طلع الصباح فتـاح يا عليـم
والجيـب ما فهشي ولا مليـم
برضه الفقيـر له رب كريم[44]

ضحك على معروف الذي غنى نصف كلمات الأغنية التي يحبها، ألبس عبيد الشبكة كاملة لمنيفة وصدحت زغرودة أم فانوس وسالت دموع الفرح فحضنتها أم يوسف وتريزا بخفة دمها تحزّمت ورقصت أمام مريم ويوسف ومنيفة وعبيد.

دعتهم حليمة هانم لسفرة الغداء التي أعدتها، بعد انتهائهم فضل فيض الله الشاي في الفراندة المطلة على الحديقة فشاركته أم فانوس وأم يوسف ومعروف وحليمة هانم التي لا تعرف كيف تشكر فيض الله لتواضعه وتنازله بإقامة حفل الخطوبة في بيتها.

نزل الضيوف وبقيت منيفة قليلا، من الكيس الكتاني سحب فيض الله الطربوش وثبته على رأس عبيد..

- طربوشك ضاع يوم إصابتك، وطربوش محمد عبيد يستحقه عبيد.
- في الحفظ والصون يا جدنا.
- وفيه هدية أخرى لكن لما يتم الفرح.

تراجع فيض الله خطوات وغمز لمنيفة فخفق قلبها لسماحة جدها بوداع خطيبها، من طرف عينه لمحها تميل عليه وتقبل جبينه.

لم ترد منيفة إطالة دقائق وداعها لعبيد فلحقت بجدها المنتظر وقبل أن تتحرّك عربة السوارس الكبيرة التي ضمت جميع الضيوف، ناولتهم الخادمة لففا من قماش لمنيفة ومريم، العربة تهتز وأم يوسف وأم فانوس تتبادلان أحداث ساعات اليوم الغريب بكل ما فيه وغير مصدقتين أن حفل خطوبة البنتين لا يكون في أي من بيتيهما المتواضعين ويكون في بيت كبير وفخم لواحد من البكوات وهانم مثل جدة عبيد تخدمهم بنفسها وتهدي البنتين أقمشة غالية، ندت عن أم يوسف ضحكة خفيفة وهي تشير إلى العجوز الصامت وتقول: البركة في عم فيض الله.

ـ فيض الله.. فيض الله، المفروض أسميك سرحان في ملكوت الله.

ـ افتكرت نهار خطوبة منيفة ومريم، كنت أتمنّى تقاوي...

ـ الله يرحمه ويحسن إليه، وربنا يا فيض الله لو فكرت في الموضوع تلاقي أن ربك دبر حكمته في أحسن حال.

ـ ابني يندفن في قبر غريب وتقول أحسن حال؟

ـ معلوم يا صاحبي، ابنك كفل أيتام كيف ما حكى عطية، وراح معزّز مكرّم على فرشة أهل زوجته وارتاح جنبها، وكله بأمره، هو أنا ولا أنت نملك منامة؟

ـ صحيح يا معروف.

ـ آه، افتكرت أنا أوصيت لما أموت أندفن في قبة أفندينا لكن في فسقية بعيدة عن قبر الخديو توفيق أحسن نار قبره تحرقني.

من قلبه ضحك فيض الله بصوت خفيض على تندر معروف، حقيقة لم يفكر فيها أو يتدبر أمرها هو أنهما لا حوش لهما يرتاحان في قبره إن ماتا، حان الوقت ليبني حوشًا له ولمعروف وإن كان على التكاليف فموجودة، التفت إلى صديقه واصطبغت نبرة صوته بعتاب..

ـ ومنيفة، يرضيك خطوبتها تكون في بيت عريسها!

ـ تكلمنا في الموضوع يا فيض الله وتمت والحمد لله وحليمة هانم شملتنا بكرمها، آه، وكانت سفرة لها العجب ولا سفرة في قصر عابدين احتفالا بالبرنس الجديد.

نهيق جحش صغير يقترب من القهوة، لم يبال فيض الله لكن ابتسامة معروف وإصبعه المشير دفعاه لأن يلتفت وتتسع عيناه دهشة لمشهور المقبل نحوهما يجر حمارًا صغيرًا من حبل مربوط برقبته وعلى ظهره صندوق خشب خفيف، جسم مشهور يداري كائنًا يباعد ساقيه على ظهر الحمار، من منظر مشهور يضحك الأفندية ويشير محروس أفندي إلى القرد الصغير القافز من على ظهر الحمار إلى كتف صاحبه.

ـ ربنا عوّض عليك يا قرداتي، اسمه ميمون؟

ـ لا، اسمه البرنس.

ـ والحمار؟

ـ ركوبة ملنر يرجع بها على بلده ويركبه بالمقلوب وعلى رأسه طرطور.

ـ والعيال ترميه بالبيض؟

ـ فيه ناس عندها بيض؟ البيض البلدي شحّ وما بالسوق بيض الإنجليز البارد مثل دمهم، ممكن العيال ترميه بالطوب وتزعق:

ملنر ملنر يا فشّار

امش وارحل على حمار

ـ يا ناس، يا خلق، أقفلها وأخلص بدل ما تنحرق وتخرب وأقعد على تلها.

بحنق حقيقي صاح حسين في كل القاعدين ونطر حمار مشهور والقرد الصغير يصفق وانفلت فجأة وتشقلب أمام محروس القاعد بين هلال أفندي وصليب أفندي الذي ضحك وفتح كيسًا ورقيًا وكبش الفول السوداني وألقى حباته على الأرض، والقرد يتناول حبة ويقشرها، أشار إلى صبي القهوة..

ـ معذرة يا جماعة، مرّ الوقت وفيه خبر حلو، ربنا كرمني بمرقس وطلبات الليلة عليّ.

ـ لا عليّ أنا.

قالها الأستاذ هلال فتوالت التهنئات من المحيطين لصليب أفندي يباركون مولده بعد تعطل دام عشر سنوات والرجل مسلّم أمره ومعروف عنه أنه لا يشكو وكلما سأله أحد أجاب بثقة: كله بمشيئته، محت مباركة رواد قهوة حسين لصليب أفندي احتقان المعلم حسين من مهاترات القاعدين، نهض صليب أفندي ومال على فيض الله وهمس بكلمات فهزّ العجوز رأسه بالموافقة، فاجأهم مشهور بنصب صندوق الخشب واختبائه، رجع المعلم حسين بظهره لبزوغ عروسة على رأسها طرطور طويل وعيناها سوداوان..

ـ وووووهاهاها.

ـ أط أط أط أط، أنا الميمون وأنت.

ـ أنا الأراجوز، أراجووووووز وأقول للخواجة: نأبك طلع على شونة يا ملنور، ارحل يا ملنر يا تغووووور.

انفجر القاعدون بالضحك حين ارتفعت يد وثبتت دمية من القماش عليها برنيطة إنجليزية وتركب الحمار بالمقلوب، ويشير لهم بأنه راحل، نزل القرد واختفى الأراجواز والدمية وطلع مشهور من خلف شباك الصندوق فصفق الأفندية له وكعادته نفر محروس أفندي..

ـ طول عمرك تعيش هلفوت.

ـ أبدًا يا محروس، أنا مشهور وطول عمري أعيش مشهور وأنت أيامك تدور ونهايتها يلمك قبر ولا اسم ولا ذكر يدوم.

فزّ محروس أفندي وبكلتا يديه رمى الصندوق الخشب وهمّ بضرب القرداتي فحال الأفندية دون وصوله إليه وشفتاه تزبدان من فرط الشتيمة، إلى أن وقف أمامه الشيخ عبد الحق وأجلسه، أتاه المعلم حسين بكوب ماء، لملم مشهور أشياءه وعاونه معروف على تحميلها على ظهر الحمار، قاده بعيدًا نحو بيت ساكنة بك وأمام الباب المغلق أعاد تثبيت صندوقه أمام لمّة الصبيان والبنات وتناهى لهم غناؤه، التفت الشيخ عبد الحق..

ـ تعمل عقلك بعقل قره قوز يا سيد محروس، وإن كان على الحق قال الحق.

يكرر الشيخ عبد الحق لزمته المشهورة، فيثير ضحك المحيطين وبعضهم يتضايق منه لموقفه فدائمًا يريد أن يمسك العصا من المنتصف؛ حتى لا يغضب أحدًا، التفت إليه هلال

آفندي..
- تصوّر يا شيخ عبد الحق، قرأت أن فيه مشخصاتي اسمه تشارلي شابلن يظهر وهو يتحرّك لمدة نصف ساعة من غير صوت.
- على مسرح كنجيب الريحاني أو علي الكسار!
- لا، قماش أبيض عريض وفيه ناس تمشي تقعد ترقص تجري تتخانق والناس تشوفهم وهم على الكراسي.
- يا سلام، بقينا في آخر الزمان، الصورة الثابتة تتحرك؟!
- وأجره كبير يا عبد الحق، حسبة عشرة آلاف دولار ولو الدولار بسعر اليوم يساوي قروش يبقى أجره فوق الألفين جنيه.
- مشخصاتي يتقاضى ألفي جنيه، كشكش بيه أو عمنا عثمان عبد الباسط وغيرهما مساكين وما لهم حق.

أقبل الشاعر عبدون وحيّا الموجودين، جلس متربعًا والربابة مزروعة بحجره، تخيله فيض الله ملصوقًا على شاش أبيض مفروشًا على الجدار يجر قوس الربابة ودون صوت يحرّك شفتيه بأمداح نبوية قبل أن يغني.

ابتسم لهذا الهاجس ووقف جوار معروف وأشار إلى رأسه أمارة أنه لا دماغ عنده لصداع حكايات الأمراء يونس ومرعي ويحيى أولاد السلطان حسن بن سرحان الهلالي مع خالهم أبو زيد وفتياتهم عزيزة حبيبة يونس وسعدى ابنة الزناتي ومي الهلالية وقرر الاطمئنان على منيفة وفارسها الغائب عبيد.

***

آمين أكسيوس: أي حقا مستحقا.
أغنية من تأليف بديع خيري وألحان وغناء سيد درويش.

(30)

قبل رحيل عبيد مع أبيه بيوم واحد، ارتدى فيض الله أثمن ما عنده وهندم معروف هيئته وذهبا للاطمئنان والسلام عليه قبل سفره، دخلا عليه غرفته فوجده فيض الله قاعدًا على حافة السرير أمامه منضدة واطئة عليها كراريس..

ـ يا سلام على حكاياتك يا جد فيض الله، أنت وعمنا الكبير معروف، لم أنس كلمة مما رويت يا جدنا.

رفع فيض الله ورقة أمامه وضيّق عينيه وقرأ «... وأقيم حفل صغير للبدء في الحفر، فكانت ضربة المعول الأولى لـ فرديناند دي لسبس، وقال يومها للعمال: سيضرب كل منكم بمعوله الضربة الأولى كما فعلنا نحن، وعليكم أن تذكروا أنكم لن تحفروا الأرض فقط ولكن ستجلبون بعملكم الرخاء لعائلاتكم ولبلادكم الجميلة، ليعيش أفندينا سعيد باشا سنوات طويلة..

في عام 1861 بدأت الشركة إنشاء ميناء بورسعيد، وأقامت منارة وكوبري، وقام سعيد باشا بزيارة الميناء الذى حمل اسمه، ومن أجل الحفر سيق الآلاف من أبناء الصعيد والنوبة والسودان وفلاحين من كل نواحي مصر لحفر الترعة الكبيرة في أحوال معيشية صعبة فكان الموت يدرك العمال قبل أن تصل إليهم المياه، وكان معظم العمال يهربون من ساحات الحفر بسبب نفاد كميات المياه، وتأخر وصول قوافل الماء، فكانوا يموتون في الطريق من شدة العطش، وتظل جثثهم في العراء على رمال الصحراء تنهشها الحيوانات الضالة وفي منطقة عتبة الجسر القريبة من ضفاف القناة، أقيم سجن يتم فيه توثيق العمال وتعذيبهم وضربهم بالكرابيج إذا حاولوا الهرب أو الامتناع عن العمل في الحفر...».

ابتسم فيض الله وهز معروف رأسه..

ـ أنت يا أستاذ عبيد كتبت حاجات زيادة على ما حكينا لك عنه.

تحمّس الشاب الصغير وفرد أوراقًا أخرى ومدها للعجوزين وقال بصوت ملتهب بالحماس:

ـ وهنا كتبت عن حوادث عرابي مع الخديو ومعارك الـ...

ـ جميل يا عبيد، كل ما كتبت روي لك ولكن اكتب ما تعيشه في أيامنا، أيامك يا عبيد، يجوز أنا وجدك معروف ما رأينا كل ما جرى خارج حارة المشعلجية لكن أنت شاهد عيان مع أصحابك من مدرسة الحقوق وغيرهم في كل شبر.

وعد عبيد أنه بعد عودته من رحلة العلاج التي أصرّ أبوه عليها سيكتب منذ يوم ذهاب سعد باشا إلى دار المندوب السامي الإنجليزي للمطالبة بحقوق مصر في الاستقلال ورحيل الإنجليز عن أرضها، بحفاوة شكر عبيد الجد فيض الله ومعروف، وأراد أن يتمشّى معهما إلى باب البيت فسار وسطهما إلى أن قطع عليهم الطريق خروجُ أبيه من إحدى الغرف المظلمة وصوّب نظرة مملوءة بالحقد والاستخفاف إلى العجوزين وأدرك فيض الله أن عصمت الشركسي يضن بعبيد على نسب يراه متواضعًا ويستكثر ابنه عليهم ويراه خسارة في ارتباطه

بفتاة دون مستواه فرفع فيض الله رأسه وشعر به تطول النجفة المدلاة من السقف، ساعتها غادر البيت وهو يغمغم كعادته: عبيد خسارة فيك وجزمة منيفة أحسن منك.

***

كل يوم يؤكد فيض الله على منيفة صدق وعد عبيد على الرغم من استطالة غيابه في أسطنبول، فأبدت خوفها من أن يكون أبوه عصمت الشركسي أثّر عليه فدفعه لأن يغير رأيه أو يكون وجد له عملا بأسطنبول وعرض عليه واحدة من بنات عمته المتزوجة هناك أو أي فتاة أخرى وفيض الله يُبدي ثقته المطلقة في عبيد ويطمئنها بعد زيارة لحليمة هانم أنها ترتب لهما غرفة في البيت ليقيما فيه.

منيفة تقلب في صحف ومجلات أرسلها لها عبيد قبل سفره، اندهشت للجريدة الصفراء المطوية، فردتها وفوجئت بعدد قديم من الأهرام وفغرت فمها فطبعته قبل أن تولد أو حتى يولد عبيد، وتعجبت كيف لعبيد أو جدته الاحتفاظ بهذه الأوراق طوال تلك السنوات، تذكرت أنه كلمها عن حبه شراء واقتناء الجرائد القديمة، لفت نظرها شعر أحمد شوقي بك فطفقت تقرأ وتبتسم للقصة الطريفة المصوغة في شعر عن ديك غريب دخل حظيرة وامتلكها من أصحابها وصار يتحكم في الدجاج وتردد ما يفتخر به الديك الغريب على أصحاب البيت..

صاح بها صاحبها الفصيح
يقول: دام منزلي المليح!

وهم يلومونه:
تقول: ما تلك الشروط بيننا

غدرتنا والله غدرًا بينا

ويرد عليهم:

متى ملكتم ألسن الأرباب؟
قد كان هذا قبل فتح الباب![45]

صحيح هذا هو حالنا، يتحكم الإنجليز في حياتنا، يريدون أن نعيش على حسب مصلحتهم، يرسلون القطن لمصانعهم وترجع لنا الملابس مكتوبًا عليها صناعة إنجليزية.. افترت شفتا منيفة عن ابتسامة موجوعة بألم فراق كل من تحب، تلاقت رموشها لكنها أمسكت بتلابيب اليقظة حتى يعود جدها.

من حين لآخر تحرّر رقبتها من العقد وتتأمل سحر صنعته ثم تقبل كل بوصة فيه وتعيده حول رقبتها، تفتح أحد أعداد مجلة الهلال وتشم بتلات زهرة التوليب الجافة تغمض عينيها وتراودها نشوة قبلتها على جبينه وينغزها الندم على أنها لم تسمح لشفتيها أن تروي كل عقلة إصبع بوجهه، وتفلت زمام المباح فيعيد لها كل ما داينته به من رصيد القبل، تقطب حاجباها لأسابيع غيابه التي طالت وتناوشها فكرة سوداء أنه استقر به الحال بأسطنبول ويعتبر قراريط الذهب التي شبكها بها تعويضًا لخلعها.

مناداة مريم تنتشلها من دوامة الشكوك العاتية، تدخل البيت وتفاجأ بأول جلباب تحوكه أم فانوس لمريم..

ـ الدور عليك يا منيفة، آخدمك من عيني يا حبيبتي.
ـ إن شاء الله يا خالتي، والفرح؟
ـ الأحد سبعة مارس.
ما إن تنهي أم فانوس خياطة ملابس مريم حتى تكلف معروف بمهمة اكتراء الحمير وتحميل زكيبة القمح والذهاب إلى الطاحونة ويأتي بالدقيق فانشغلت أيامًا في خبيز الكعك السادة والناعم والبسكوت، ورصهم أولا بأول في قفة وسَبت وحملهم لبيت أم يوسف.
يوم الفرح بكت أم فانوس وطيب فيض الله خاطرها، وحلفها ألا تنكد على بنتها وتجبر بخاطرها فسمحت لتريزا أن تزغرد ومريم خارجة من البيت وكأنها قمر أربعة عشر بجانبيها منيفة وتريزا وتهيأ الجميع للمشهد المعتاد وهو أن يحملها عريسها من على الأرض ويريحها على كرسي الحنطور المزين ومن حوله أصحاب العريس يحملون المصابيح.
فوجئ فيض الله أول ممر الربع بأوتومبيل يركن من نوع بوبي تاكسي المنتشر في شوارع الميادين الكبيرة ويفضلها مياسير الناس للنزهة، مرّ أمامهم حنطور وحصانه يتبختر فالتفت معروف متعجبًا..
ـ ما كان الحنطور أحسن، على الأقل فيه روح.
ـ أعوذ بالله، عفريت بعجلات، تعرف من يمتلكها؟
ـ لا.
ـ واحد أجنبي اسمه جوزيف دي مارتينو ولها مكان لرسوها جوار موقف الحمير بميدان الأوبرا.
ـ وأنا أقول لنفسي كل ما أمرُّ من هناك ألاقي الحمير طول الوقت ترفع ذيلها وتضرط وتنهق بخوف، من مجاورة العفاريت الأجرة.
تبادل معروف وفيض الله الضحكات، من خلف البرقع علت زغرودة منيفة حين فتح يوسف باب العربة وانحنى لمريم قبل أن تركب كأميرة من أميرات سراي عابدين، جلس جوارها وأدار السائق عجلة القيادة وكل أم من سيدات الجيران تقبض على معصم طفلها؛ حتى لا تدوسه عجلات الأوتومبيل، ظلت العربة سائرة في تمهل والمجاملون من حولها إلى أن وصلوا إلى الكنيسة.
ـ تعرف يا معروف كم أجرة الأوتومبيل؟
ـ عشرة أو عشرون صاغا؟
ـ أنت طيب، يوسف دفع جنيهًا بحاله مقابل توصيلهم من البيت إلى الكنيسة وانتظاره وبعدها رجوعهم لبيته.
ـ يا ساتر يا رب، ألف مليم بحالهم، الحنطور آخره عشرة قروش وينبسط لو نال عشرين قرشًا في الليلة.
جلسا على مقعد آخر القاعة وشرع القس إبرام ومعاونوه من شمامسة وكهنة في بدء مراسم الإكليل والتي بدأها بقول من رسالة بولس الرسول لأهل كورنثوس: «ليكن لكل واحد امرأته، وليكن لكل واحدة رجلها»[46]، ودارت المبخرة حول الشابين وتمنّى فيض الله أن يعقد قران منيفة وعبيد في مسجد السلطان حسن أو الجامع الأزهر، ولكن...

ـ الصبر، كله مع الصبر يهون، تعال يا معروف نقف بالخارج.
لمّة من مرتادي الكنيسة يتحاورون في سرعة وكل منهم يقاطع رأي الآخر، احتدت المناقشة لدرجة رفع الصوت..
ـ في ستين داهية يا ملنر، مشى وكأنك يا أبو زيد ما غزيت.
ـ والسلطان واضع يده في الماء البارد، لا يهش ولا ينش وملهي مع الأمير فاروق وكل كلماته: يجب أن يتوقف المخربون عن المظاهرات وأعمال التخريب.
ضاق فيض الله بأصوات المتناقشين العالية ووقف على عتبة القاعة، ليستمع إلى أقوال الكاهن المستمر في تلاوة صلواته بلغته القبطية والمرنمون حوله يردون ويضربون على الصاجات إلى أن قال: "من أجلها يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسدًا واحدًا»(47).
ـ رحمك الله يا أم تقاوي، والله ما قصرت في واجبك معي.
ـ قلت حاجة يا فيض الله.
ـ أبدًا، ترحمت على أم تقاوي.
ـ ونصحتك تتزوج بعد وفاتها.
ـ بعد تسريحنا، خفت أرتبط ما ألاقي العيش الحاف ثم أنك تعقل في جن غيرك، كنت عملتها أنت بعد رجوعك من حرب المهدي ولا بالمرة عقدت على واحدة في غابة شيكان.
علت الزغاريد وتمشّى العروسان في الممر الفاصل بين مقاعد الرجال ومقاعد السيدات إلى أن وقفا لتقبل التهنئات، خرجا من باب الكنيسة وركبا الأوتومبيل فتفرق الحاضرون كل إلى بيته، أما أهل يوسف ومريم وجيرانهم فرافقوا الأوتومبيل إلى أن اقترب من درب الجماميز، فرس القائد الإنجليزي يركض نحوهم، نزل وأشار بعصاته فهدأت سرعة العربة، أشار بعصاته وابتسم..
ـ فيري بيوتوفول.
همّ يوسف بالنزول والاشتباك مع المعاكس لعروسه فحالت أمه وأم فانوس دون ذلك ولم يتردد فيض الله في الوقوف أمام باب العربة، لحق بالقائد عسكريان منتظرين أوامر سيدهما، خشي معروف تحرش هؤلاء الفسقة الذين لا يرعون حرمة لأحد، خلع القائد قبعته وانحنى وألقى كلماته المتكسرة بسخرية: ـ ممكن نكمل الفرح عندي في الكامب.
هذه المرة لم يملك يوسف أعصابه فنط من جوف العربة ومنيفة وتريزا ومريم سقطت قلوبهن من الخوف حين أمال الجنود بنادقهم شاهري السونكيات الحادة، لم يتردد معروف في الوقوف بين يوسف وعساكر الإنجليز ورفع عصاته الغليظة وهو يأمر الشاب ماسك الطبلة بأن يستأنف فطبل وأخذ معروف يرقص أمام العساكر وقائدهم يتطاير الشرر من عينيه الزرقاوين ولا يتزحزح من أمام العربة ودمعة أم يوسف فرت من عينها، صفارة علت على نقرات الطبلة وأوتومبيل آخر يزحف نحو اللمة، توقفت وبزغ منها قائد آخر أكبر من الضابط السفيه، من هيئته أدرك فيض الله أن الموقف قد يزداد تعقيدًا إذا اصطدموا بالقائد الأعلى رتبة.

آمام فيض الله وقف الكولونيل في هيبة فرفع العسكر آيديهم بالتحية، حملق في عيني العجوز المفتوحتين عن آخرهما والبؤبؤ ساكن في تحد، ظلا متواجهين والكولونيل ينتظر خفض ذلك العجوز رأسه أو حتى إغماض عينيه لكن جفنيه لم يطرفا، فإن هُزمت بندقيته في التل الكبير فلا أقل من عدم انكسار عينيه، دقيقة مرّت كأنها ساعة والكولونيل وجهه البارد جمد ويترقب تقهقر نظرات فيض الله؛ ذلك العجوز لن يقهر وموقفي أمام جنودي سيكون مضحكًا، انسحبت نظراته وانحسرت بجوف بحيرة عينيه الزرقاوين، انشغل بالالتفات إلى عسكره، أدرك الموقف وفي امتعاض أمرهم بالتراجع فوقف الضابط ممسكًا بلجام فرسه خلفه الجنديان، علا صوت الكولونيل: ـ لهم حق إن كرهوا كل إنجليزي وإن قتلوا كل إنجليزي، سوووررري، وأرجو لكم حياة سعيدة.

عاد الشاب يطبل وغيره يرقص وابتعد موكبهم إلى أن وصلوا لعطفة بيت يوسف، هذه المرة حمل مريم بين يديه وسار بها إلى البيت.

***

مقاطع من قصيدة (الديك الهندي والدجاج) لأمير الشعراء أحمد شوقي منشورة بجريدة الأهرام 1892م.

(1 كورنثوس 7:2).

(أفسس 5: 31).

(31)

البيت ذو الدورين يتوسّط شارعًا جانبيًا، يخطو نحوه فيض الله وفي دواخل نفسه خجل لتأخر زيارته كما أوصاه صليب أفندي وهُم بالقهوة، يقترب من الباب المفتوح، يراهما متقابلين بينهما منضدة مربعة فتهيأ لخبط أحجار الطاولة، بوجه كاسف يلقي السلام فتتجه إليه العيون، من فوره ينهض هلال ويسلم، يطفئ صليب عقب سيجارته ويرحب، يتأمل فيض الله الرقعة وتماثيل الشطرنج في غير ترتيب تجثم على مربعاتها البيضاء والسوداء، حتى لا يضيع الوقت فتح كيس الخيش وأخرج عدته، أتاه هلال بكرسي وسنده حتى يطول مصباح جانب الباب، فنظفه جيدًا وغيّر ذبالة الكتان المهترئة بأخرى جديدة، وأضاف الزيت وجرّب توهجها، تحامل على كتف هلال ونزل فسحب صليب الكرسي للجانب الآخر وبدوره سند ظهره وأنهى فيض الله عمله وجلس فقدّم له هلال الشاي والكعك، رشف فيض الله وهمّ صليب أن يؤجره على تعبه فرفض بشدة، فضل إراحة نفسه وتأمل قطع الشطرنج، تلك اللعبة التي كان يقضي بكباشي محمد عبيد وقتا قبالة طلبة عصمت أحيانًا وأحيانًا أخرى مع قواد لا يعرفهم، ولأنه يدري أن وقتها يطول فتوكأ على عكازه ونهض، دلفت إحدى الفلاحات على رأسها قفة كبيرة، بصوت عال تنادي مرة على أم عبد الله والأخرى على أم مرقس.

ـ الستات تخبز يا أم ياسينً، انتظري.

تخففت أم ياسين من حملها وتربعت، متجاورتين نزلت السيدتان وعلى ذراع كل منهما بقايا عجين ملتصق، أم عبد الله ترتدي الأسود وأرجع فيض الله ذلك لحزنها على ابن أختها الذي مات في حادث قطار بأوربا كما أخبرهم هلال أفندي ذات ليلة، رفعت أم ياسين الملاءة البيضاء ففاحت رائحة خيرات ربنا، الحلّة مملوءة بقطع الجبن وخضّة زبد بقري صفراء كبيرة والبيضاء الأخرى زبد جاموسي، طفقت تضع قطعة في ماعون وأختها في ماعون، إلى أن أنهت قطع الجبن بعشرة في حلة أم عبد الله ومثلهم في ماعون أم مرقس وبقيت واحدة همّت بقسمها فمنعها هلال أفندي وأضاف عليها قطعتين من عنده وفعل صليب أفندي مثله وقدموا الخمس قطع لفيض الله، ونهضت السيدتان من فورهما إلى فوق وأتت أم عبد الله بطبق صغير مرصوص عليه عشرة أرغفة ووضعت أم مرقس بينهم الجبن، حملهم فيض الله والتفت إلى الرجلين وهو خارج وبينهما طاولة الشطرنج وكلاهما يفكر قبل أن يحرّك القطعة تجاه الملك.

***

رغم خفة الطبق شعر فيض الله بثقله بمرور الوقت وقرّر الاستراحة قليلا، المعلم حسين يقف أمام باب القهوة الموارب والصبي يدخل آخر كرسي، أشار لفيض الله السائر في تمهل، بيده ظرف مدّه إلى فيض الله..

ـ البوسطجي سلمه لي.

ـ شكرًا يا معلم حسين، تصبح على خير.

رفعه أمام عينيه وقرأ اسمه على ورقه الأصفر، همّ أن يفتحه فعدل عن الفكرة فإن كان عبيد استحى أن يكتب اسم منيفة عليه إلا أن الخطاب لها، استقبلته ووجهها ينضح بآيات القلق..

ـ خطاب من أسطنبول!

لم ير في حياته زهرة ذابلة عادت لها نضارتها كوجه منيفة فأشرقت ملامحها وهي تتناول الخطاب، فضت ختمه وسحبت ورقتين جرت نظراتها فأعطت أولهما لجدها، انسحب البشر من ملامحها فأوجست في نفسها خيفة من أن تحمل الرسالة خبرًا صادمًا، دخلت غرفتها وأغلقت الباب، خفق قلبها وهي تسحب زهرة التوليب البنفسجية، يبست بتلاتها لكن رائحتها تعطر الرسالة، طافت نظراتها على السطور ورموشها تبللها الدموع لشفاء خطيبها وخبره المفرح عن قرب عودته وإتمام الزواج، أعادت قراءة الكلمات وتمنت أن تذهب به لمريم تبشرها وتطمئن على حملها الجديد، ارتدت ملابسها واستأذنت من جدها وأمام الباب صادف خروج أم فانوس على رأسها قفة رقاق وأصرّت منيفة على حمل جرة اللبن الفخار ومشيا معًا لزيارة مريم.

***

«... جدي الحبيب فيض الله،

أعترف وأنا هنا في قلب أسطنبول أنك رجل عظيم، أعظم إنسان قابلته في حياتي، وكل أهل الربع، الجد معروف وعم خميرة وحتى مشهور وقرده ميمون أناس يفهمون الحياة، وذكريات تراب الأرض التي تعيشون عليها، أعيش أوقاتًا لا ينقص من سعادتها غير بُعدي عنكم، وما أحزنني فعلًا خبر وفاة زملائنا المصريين في حادث القطار القادم من تريستا إلى فيينا واصطدامه بقطار البضاعة عند محطة بونتا القريبة من بلد اسمها أوديني، أعرف منهم محمد إبراهيم سالم زويل زميل من أيام سكني في بورسعيد، رحمهم الله جميعًا وربنا يصبر أهلهم...».

أمال فيض الله الورقة فقد نكأ الخبر جرحه حين أشيع بين رواد قهوة المعلم حسين خبر انقلاب قطار التلامذة المصريين في بلد الطليان، ومنهم شاب ابن أخت زوجة هلال أفندي، ويومها كعادته المستهترة لام محروس أفندي أهل الطلبة بأنهم السبب لأنهم أرسلوا أولادهم إلى الغربة وكان ممكن مواصلة تعليمهم هنا أو لا يتعلمون أصلا ولا الموت في بلاد غريبة، أشاح فيض الله بوجهه ليبعد وجه محروس أفندي، تارة أخرى رفع خطاب عبيد..

«... وأنا هنا زرت قصر إقامة الخديو إسماعيل وقابلت خادمًا عجوزًا تجاوز السبعين روى لي كيف كانت حياة الخديو جوار السلطان عبد الحميد الثاني، وأنه احتفظ بصفاته وطباعه الملوكية في قصره إميرجان المطل على ضفاف البوسفور، تجولت بين أشجار حديقة القصر الكبيرة واستراحات الخديو التي أمر بإنشائها وعندي كلام كثير سأرويه عندما أعود لكم سالمًا غانمًا المزيد من المعرفة وحب الكتابة، أمضي وقتي في تدوين يوميات الثورة مع سعد باشا وتصلنا هنا في أسطنبول أخبار الوفد في أوربا، وأضيف أنني أرقب أخبار الحرب الدائرة بين جيش السلطان وحيد الدين محمد السادس ورجل قوي اسمه مصطفى كمال باشا ولا أخفي عليك أن الكفة راجحة لصالح القائد مصطفى كمال ولا أمل للسلطان في نصر يحفظ عرشه وأظنه مهزومًا وعن قريب سيفاجأ العالم كله بزوال دولة الخلافة العثمانية فلا وجود لما يسمّى

بالباب العالي وفرمانات يُدفع لها الذهب من مال مصر ثمنا يشترى به لقب خديو أو من أجل جعل الحكم وراثيًا وأتمنّى أن يتحرّر بلدنا لا من احتلال الإنجليز فقط ولكن من سلطان ابن خديو ابن باشا وجميعهم غير مصريين ويكون أحدنا مثل سعد باشا المولود في أسرة فلاحين بقرية إبيانة بمديرية الغربية رئيسًا لبلدنا، فمثله كأي مصري تعلم بالكتّاب وعمل بالمحاماة وفصل من وظيفته بسبب اشتراكه في ثورة عرابي وساهم في حجر أساس الجامعة المصرية وغيرها من أعمال عظيمة لمصري يطمح أن يدفع بلده إلى الأمام، معذرة يا جدنا كلام كثير، كثير لدرجة أني أدون الأفكار كي أتذكر كل مما سأرويه لك.

بلدنا عظيم يا جدنا الطيب، في الوقت الذي تأكل فيه منيفة ومريم من طبق واحد سمعت هنا بقتل الأرمن وتهجيرهم من مدن تركية عديدة، والكثير منهم فرّ إلى الشام ومصر وغيرها من بلاد للحياة في أمان، كنت أتمنّى حضور فرح يوسف ومريم لكن لهما ولكم جميعًا هدايا كثيرة، دعواتك يا جدنا بسلامة عودتي القريبة إن شاء ربنا الكريم.

ابنك عبيد»

طبّق الورقة وقربها من فمه فشم رائحة عطرية، تاقت نفسه لاتزان مزاجه بكوبي بيرة أو حتى قرعة بوظة، لمح الزجاجة مائلة بربعها القليل من السائل النفاذ، نزع الغطاء ورفعها، أمالها نحو الأرض وأفرغها فطرطشت البيرة على طرف جلبابه وفي داخله عزم ألا يعود إليها وثباته بها وهم، نادى على منيفة ولما لم تجب تذكر أنها ذهبت لمريم، داهمه دبيب بساقيه لا يدري كنهه، حقيقة تمنّى عودة عبيد لتنتقل منيفة لحياتها معه فلا يهمه إن عاش بعدها قليلًا أو كثيرًا بل لا يبالي إن مات ولم يشعر به أحد، المهم منيفة لا تكون وحيدة وبيت عبيد مع حليمة هانم يضمن لها حياة تحوطها أسوار الأمان.

***

كحمائم مرفرفة نحو عين الشمس تطير الأيام، ومنيفة لا تحسن سوى الانتظار المجبول بالقلق، تذهب إلى مريم في بيتها تلهو معها ومع تريزا، مريم تكورت وأصبح طولها كعرضها ومنيفة تربّت على بطنها المنفوخ وبرفق تضع أذنها وتصيح بأنها شعرت برفسة النونو الحروك أو ضربة يده، وتتشاجر مع تريزا على أنه ولد أو بنت وتسميته.

ساعة مغربية بعد أن عادت من تمشية مريم في شهرها الأخير، لم تجد جدها فيض الله أو أحدًا من قاطني بيوت الربع القلائل، فقط الصغير ميمون مربوط بسلسلة آخر حلقاتها مدقوقة بمسمار بالجدار، يقفز على عربة خميرة الواطئة، يرفع غطاء الزير الخشبي ويضعه، على المصطبة تربعت، أمالت رأسها إلى الوراء وبنفس سمحاء فرحت لمودة يوسف الحميمة لمريم، فيلاطفها ولا يسمعها ما تكره ويوم خبر حملها رأته في المجاز يقبل قدمها وتمسح بكفها على شعره، حتى تريزا حكت أن شابًا اسمه إسطفانوس يلمّح لها أنه يريدها، استوحشت وجود عبيد ووعدت نفسها بألا تحرمها من إشباع عاطفتها حين يعود، انتبهت إلى ميمون الباحث عن كسرة خبز فالتقطها من بين أشياء مهملة أمام البيت، فأشارت إليه وهو يقلد حركاتها وألقت إليه حبة خيار، فوقعت على بُعد شبرين من يديه، كاد يخنق نفسه ليصل إليها فنهضت وقربتها منه وهي تضحك حين يدعك أنفه ويمد بوزه ويرمقها بنظرات شعرت فيها بنباهته.

ما إن استدارت حتى انزرعت وسط الربع، تلك القامة الواقفة على بُعد خطوات ما هي إلا حلم شكّله تمنيها في كل لحظة وصول عبيد، خلع طربوشه ليكشف شعره الفاحم المصفف، الخيال الآخر أن يقترب منها فتغمض عينيها وتذوب معه في حضن لا تريد أن ينفك، مدّ يده فاتسعت عيناها ولا تصدّق بصرها المحملق في عبيد، أصابعها الباردة شعرت بدفء كفه فأيقنت أنه موجود أمامها، ولا فضاء بينهما سوى قبضة مضمومة، أحاطها بذراعيه وضمها، ارتفعت ساقاها عن الأرض ودارت معه تكاد أطراف قدميها تلامس أبواب بيوت الربع المغلقة، فأكملت دورتها معه وذراعاها ملتفان حول كتفيه وأنفاسهما المتمازجة تدفئ وجهيهما، حانت لحظة السكون فوقفا كجسدٍ واحد صامت ذاب الكلام ولا يوجد غير نهل الاشتياق.

صوت ميمون المتقافز دفعهما لإمالة وجهيهما في آنٍ واحد فضحكا وقادته إلى المصطبة المفروشة بالكليم، قسوة أيام البُعاد انمحت ولم يبقَ سوى رحمة القرب، غابت صنوف الكلام فتلاقت نظراتهما وتارة أخرى قوّس ذراعه حول كتفيها فمالت برأسها على صدره، صمتا فلا لزوم لثرثرات المجاملة الفاترة، سكن تيار الهواء البارد ولم يبال أي منهما بولوج مفرّق لخلوتهما وكأن سياجًا من عزلة ضرب الربع الضيق ومنع أيَّ قادم.

ميمون الصغير الجميل يطلق سكسكة عالية منبهة فابتعدت قليلا وحين أحسّت بدبيب أقدام آتية وقفت وإذا بمشهور يحجل في مشيته ويرفع يده بالتحية للغريب ثم هوّم كأنه تذكره.

ـ حمدًا لله على سلامتك يا سعادة البيه.

ـ شكرًا يا شيخ مشهور، هديتي لصاحبنا ابن ميمون.

توالت عشرات الملاليم في كف مشهور الناشفة فشعر بطراوة رزق اليوم الوفير، فأراد أن يقبل يد عبيد فسحبها وربت على كتفه..

ـ عم فيض الله قاعد مع معروف عند السيدة زينب، أناديه؟

ـ لا يا عم مشهور، أقابله بنفسي.

ضم كفها وقبله وحلّ الوعد محل أي حوار، تركها إلى مقام السيدة، علا صوت الأذان وفيض الله يمطر عبيد بقبلاته وكأن روحه الهاربة عادت إليه.

***

ـ حبكت يا مريم وجع ولادتك يكون في نهار فرحي.

تمتمت بها منيفة وهي تكشط بقية عجينة الحناء اليابسة التي ملطت بها أم فانوس يديها وبطني رجليها، وجهزتها هي وسيدة أخرى لليلة دخلتها، غسلت يديها وانشغلت في رص ملابسها الجديدة بصندوق اشتراه لها جدها فيض الله خصيصًا، رغم قرب ولادة مريم لم تبخل أمها بجهد في تجهيز كل ما تحتاجه منيفة من ملابس، وملاءات السرير وفرط جدها يده لتشتري أثمن المواعين والأواني النحاس، واستأجر أحد الطباخين من حي الحسين ولم يذبح عجلا بل اشترى لحمًا مشفيًا من عند جزار الناحية، ومعروف أشرف على الوليمة من أولها لآخر النهار، حضر عبيد وجدته حليمة هانم، في باحة الربع رصت الدكك وأهداهم المعلم حسين كراسي القهوة ومناضدها وصبيانه فرشوا عليها المفارش الزاهية، تم عقد القران وفيض الله يضع يده في يد عبيد ودمعة قاسية ذرفت على خده، أنهى الشيخ مراسيمه

فاختطف مشهور المنديل، وأحد المعزومين يدعو له أن يرزقه قردة مليحة، رفعوا أيديهم بقراءة الفاتحة، وأعاد فيض الله تلاوتها على روح تقاوي وكل أموات عائلته، تضايقت منيفة من غياب صديقة طفولتها مريم وتريزا وأم فانوس وشعرت في قرارة نفسها أنها حقيقة بلا أم أو أخوات بنات.

أقبلت دميانة تفرد كفها أعلى شفتها وتزغرد، فحضنتها منيفة والدموع منهمرة وهي تشم منها رائحة أمها، أخبرت فيض الله أن مريم ولدت أول النهار وهي ومولودها محب بخير وأم يوسف وتريزا تتبادلان رعايتها وستعودان بعد انقضاء فرح منيفة، كالعادة رص شوار العروس بعربة نقل كبيرة يجرها بغلان مزينان ولم يكتر عبيد أوتومبيلَ جديدًا، فالحنطور المزين بالورود الطبيعية والأوراق الملونة كان يقف أول الشارع، في روية تمشوا وفيض الله ومعروف في الخلف، حمل عبيد منيفة وأركبها وجلس جوارها يتأمل خطوط الحناء الزاهية بيدها، بحثت عن جدها وقطبت حاجبيها، طلبت من عبيد إحضاره فأقبل، أصرّت أن يركب جوارها ومعروف زاحم مقعد العربجي، انفضت لمّة أهل الربع والحارات المجاورة وبقي خلف حنطور العروس حنطور آخر به أم فانوس وأم يوسف التي جاءت متأخرة قليلا، زملاء عبيد يرتدون البذلات الكاملة يسيرون حول العربة ومعروف يغني والباقون يردون عليه إلى أن رفع أحدهم صوته بالأمر: ـ ما دام اقتربنا من بيت المرحومة ساكنة باشا تبقى فرصة أغني لكم واحدة من أغانيها: والنبي لـ أهشه

يا لعصفور
وأنكش له عشه
يا لعصفور...

تداخلت أصواتهم وعندها جفلت سيقان الفرسين أمام بيت ساكنة هانم، توقف الحنطور فأشار معروف للجميع بأن الأغنية ليست للست ساكنة وإنما لألمظ زوجة عبده الحامولي، صمت وأخذته سنة من هدوء وكأنه يتذكر ثم رفع صوته: يا لابسين الشيشكلي ومحزمين بالكشميري

يا بيض ويا لون الياسمين يا للي على الصب لاحظ
وحياة عيونك والوجنات أنا أسير اللواحظ[48]

ضحك رفاق عبيد وفجأة سار الموكب وعاد الشباب إلى مرحهم والأستاذ عبد الرحمن المحامي أتى من المنصورة ليحضر فرح صاحبه عبيد، ولا تعجبه كلمات الأغنيات غير الرصينة، وطفق يغني والباقون يردون عليه: أشكي لمين غيرك حُبك أنا العليل وأنتَ الطبيب

اسمح وداويني بقُربك واصنع جميل إياك أطيب[49]

إياك أطيب.. تبعثرت أحرف الكلمة بصدر فيض الله، في دوامة فرحته بستر منيفة باغته إحساس بفتور الحياة، الأيام تنقضي ويعيش حاضرها الرتيب وستمر بقيتها القليلة ببرود كشتاء قارس يطقطق عظامه، فلا مناص من راحة أبدية، لكن لا يوجد له قبر يستره، لا يدري سببًا لغزو هذا الهاجس روحه وهو جوار منيفة في عز فرحتها، أشاح بوجهه وسيتدبر الأمر فيما بعد، مع انحناء الشارع إلى قرب قصر العيني، لمّة الزفة أثارت دورية من عسكر الإنجليز ورجال البوليس وخشي قائدهم أن يكون كمينًا فوزّع جنده على جانبي الطريق وأبقى حوله

خمسة، توقفت الحناطير وبنادق العسكر منتصبة، تهيأ الشباب للاشتباك فبادر معروف بالقفز..

ـ جود ايفننج يا خواجة.

ـ جود أفترنون سير.

ـ جود أفتر وأتغدى وأتعشى، فرح يا خواجة، زفة يا مارشال، إلهي لا تفرح بـ يور بيبي.

قالها معروف والسخرية مرتسمة على ملامح وجهه المثيرة للشفقة، أما فيض الله فسقط قلبه بين أحشائه لتعطيل موكب منيفة وعبيد، والمحاط بكوكبة من تلامذة مدرسة الحقوق وغيرهم من شباب فائر قد يتهوّر أحدهم ويدفعه حماسه للاشتباك مع أفراد دورية الإنجليز المسلحين ويحدث ما لا يحسن من أوخم العواقب، الأساتذة يصوبون نظراتهم لأفراد الدورية وعبد الرحمن يقف ثابتًا جوار مقعد عبيد، أدرك فيض الله مغبة الاشتباك مع الإنجليز وأفراد البوليس بعصيهم القوية.

لم يتردد فنزل ووقف أمام القائد المستغرب وجوده، ابتسم الكابتن حين تذكر وجه العجوز الممصوص ساقيه كوب الماء بالسكر في قهوة بحارة مسدودة أثناء تجوله مع رفاقه، بكفه ربت على كتفه وأشار بيده فأفسح عسكره الطريق.

عاد معروف جوار العربجي وفيض الله يطوق كتف منيفة أما عبيد المتريّث فقد ترك الكبار يتصرفون في الموقف؛ حتى لا يفسد ليلته التي حلم بها طوال أيام غيابه، في بطء تحرك الموكب وعاد الشباب للطبل والغناء، نطق فيض الله الشهادة لمرور الزفة الآمن، التفت إليه معروف وعلت ضحكته الساخرة: ـ يظهر يا فيض الله أن القط يحب خنّاقه.

***

أغنية للمغنية ساكنة بك.

أغنية لعبده الحامولي من تأليف عبد الرحمن قراعة.

(32)

تدور نظرات فيض الله بجنبات البيت الفاضي، البيت دون منيفة فقد نكهته، ومرت لياليه مجوفة خالية من أنفاس الود، زهد الحياة ومقارعة الأيام بساعات زائدة رتيبة، فالقلق يخمش صدره ويشعر بدنو أجله، أيام قليلة مرت بعد ليلة زفاف منيفة وذهب إليها بمفرده وبين يدي حليمة هانم وعبيد سلمها ميراثها بالكامل وعقد بيت البنهاوي وحجة بيته وأوصاها حين يموت تتصرّف كما تريد، تؤجر البيتين أو تبيعهما أو تهدهما وتبني على الأرض بيتين جديدين، لها مطلق الحرية، وأوصاها أيضا إن وافاه الأجل قبل معروف أن ترعاه فدعا عبيد لهما بطول العمر وأنهما في رعايته.

منيفة وعبيد حتى حليمة هانم أصروا جميعًا على استبقاء جزء من الفلوس يعتاش بها فيض الله، وعرضت عليه الهانم أن ينتقل للحياة معهم في البيت الكبير على الرحب والسعة لكنه رفض مغادرة ربع المشعلجية، هناك عاش طوال عمره بعد تسريحه من جيش عرابي وعودته من انتقالاته بالصعيد وراء لقمة العيش.

وطوال الأيام التاليات انشغل مع معروف في تسوير قطعة أرض بمدافن السيدة عائشة وكلف أحد البنائين بتشييد مقبرة له معارضًا رأي الهانم بتوفير مصاريف إنشاء المقبرة وأن حوش عزيز بك المصري كبير وبه منامات شاغرة فلم يدفن به سوى عزيز بك وأمها وزوجها، لكن دماغه ناشف ولم يرض أن يتطفل بجثمانه بعد انقضاء أجله على أحد ووافقه معروف على رأيه، وبعد تركيب الباب الخشبي العريض استراحت نفس فيض الله لإنهاء تجهيز الحوش، فزار منيفة وعاتبته وهي تلتمس دفء صدره:

ـ أسبوع يا جدي فيض الله تغيبه عني.

ـ أخبارك يا حبيبتي وأخبار عبيد؟

ابتسمت في خجل وهو يغمز لها بعينه، انشغلت في تحلية الشاي لمعروف الجالس جواره، أقبلت حليمة هانم بجسمها الرجراج واستراحت على كرسيها الكبير المقابل لضيفيها، ورحبت بهما أيما ترحيب..

ـ آه يا عم فيض الله، لولا ظروف البلد وغباوة الإنجليز لعملت فرح لمنيفة وعبيد ولا فرح فاطمة إسماعيل وإخوتها، أنا كنت صغيرة لما حضرتها مع أبي.

ـ نعم يا هانم، وأنا ومعروف كنا من حرس سراي عابدين وشوارع المحروسة وقت فرح أولاد أفندينا إسماعيل.

عبيد المرتدي روبًا ثقيلًا وشعره لا يزال نديًا، يميل على فيض الله ويحضنه، يمنع معروف من الوقوف ويسلم عليه وهو قاعد، يجلس جوار منيفة ويبتسم لها في فرح حقيقي بارتباطه بهذه الفتاة ذات الروح الجميلة، هزّ رأسه لفيض الله وهو يضمر عصف ذاكرته واستثارة نزوات الحكي للحديث عن سيرة الخديو إسماعيل المشهور عنه حبه للظهور أمام الأجانب..

ـ سمعت سيرة فرح الخديو توفيق.

ـ وقتها كان الأمير توفيق والأمير حسن والأمير حسين والأميرة فاطمة.

ـ أربعون يومًا يا عبيد والمحروسة لا تنام.
ـ كان عندي عشر سنين لما ألبستني أمي أجمل لبس وركبت بينها وبين أبي عزيز بك وحضرت فرح الأميرة فاطمة على الأمير طوسون ابن سعيد باشا، استغلت الوالدة باشا خوشيار قادين أم إسماعيل فرصة زواج أحفادها البرنس توفيق وحسن وحسين، فصممت على تزويج أختهم فاطمة، أمسكت بيد أمي وتمشينا بين السيدات وسط بستان واسع مضاء بمصابيح وفوانيس ملونة ومشيت فوق طرقة رخامية حولها الأشجار إلى مدخل سراي الوالدة باشا في قاعة واسعة ذات رياش فاخر، ويا سلام على منظر جواري الحريم، الواحدة لابسة أفخر ملابس، بطرابيش حمراء على رءوسهن، وشاهرات في أيديهن الناعمة سيوفًا لامعة.

كان هناك عدد من الراقصات يرقصنّ بعصي وسيوف، مشيت بعدة بلوكات والموسيقى تعزف عزفًا مفرحًا ودخلت الأميرة فاطمة، فأمسك كُل خادم شمعدانًا فيه شموع مختلفة الألوان، واصطفوا من أول السلالم حتى القاعة المفروشة بمنسوج من سلوك الذهب تخطو عليه العروس، وما هي إلا برهة قصيرة حتى تجلت الأميرة فاطمة هانم تستند إلى ذراع والدتها، وتحوطها أميرات البيت الخديوي الكريم، فجلست دولة الوالدة باشا على عرش اليمين والأميرة أم العروس على عرش الشمال، وجلست العروس وعلى رأسها تاج ثمنُه أربعون ألف جنيه، على العرش الوسط، وكان لباسها من حرير الإبريسم الأبيض الفرنساوي ومرصّعًا بأنفس أنواع اللؤلؤ والماس، ولهُ ذيل طويل رفعته الجواري وراءها وهنّ راكعات فتقدمت المدعوات ليقدمنّ التهنئة.

ابتلعت حليمة هانم ريقها فرمقها فيض الله بنظرات الإعجاب لذاكرتها التي هيأته لرواية ما جرى أيام زواج أنجال الخديو إسماعيل، وقفت حليمة هانم مستأذنة للإشراف على تجهيز الغداء ورافقتها منيفة، معروف الصامت يتهيأ بدوره ليحكي ما مرّ به طوال فترة خدمته هو ورفاقه بين سرادقات وخيام ضيوف أفندينا من الأجانب وأعيان البلد، همّ أن يتكلم لكنه فضل أن يستمع لفيض الله والأخير أنهى شرب الشاي وشرع في الكلام غير أن الخادمة استأذنت وأخبرت عبيد حضور ضيف فنهض من فوره لاستقباله وتقديمه للعجوزين..

ـ أستاذي وصديقي عبد الرحمن عبد اللطيف الرافعي المحامي.
ـ رأيتك من قبل يا أستاذ، حضرتك تشتغل محاميًا هنا!
ـ لا، في المنصورة.
ـ فاكر يا جد فيض الله لما أصبت يوم مظاهرات الأزهر، الأستاذ عبد الرحمن هو...
ـ افتكرتك، أنت تلقيت عن عبيد ضربة الهراوة على ظهرك.
ـ وحضر فرحي.
ـ وكان يردد أغنية عبده الحامولي.
ـ صحيح يا عمنا.

تأمل فيض الله سحنة الشاب الثلاثيني وعاد له وجهه بقوة حين دفع الجندي الإنجليزي وتلقى ضربة العصا على ظهره بعد إصابة عبيد ونقله إلى هنا، وأحب أن يسأله:

ـ محامٍ من زمان يا أستاذ عبد الرحمن؟

ـ تدربت في مكتب الأستاذ محمد علي علوبة المحامي الكبير بأسيوط ولما رجعت من هناك عملت بجريدة اللواء مع الأستاذ محمد فريد رحمه الله، وفتحت مكتبًا للمحاماة بالزقازيق واستقررت بالمنصورة وأيام المظاهرات كنت هنا بالقاهرة.
ـ الأستاذ عبد الرحمن الرافعي دعا لمقاطعة ملنر ورجاله.
ـ المفروض الكل يفهم، لا تفاوض مع الإنجليز، لا حوار مع محتل لبلدك، رحيلهم أو حربهم.

نهض عبيد وغادر الجلسة فتأمل فيض الله الشاب الوسيم، ورأيه يعيد إليه تلك الشخوص المتوارية خلف تموجات الذاكرة، محمد عبيد وطلبة عصمت والروبي وعرابي، فلا أنصاف حلول عندهم فحاربوا الغازين رغم التجاء الخديو توفيق للإنجليز وقناصلهم وفرمان سلطان تركيا بعصيان عرابي، حقًا يا بني إما خروج الإنجليز من البلاد وإما خروج الإنجليز من البلاد ولا حل ثالث بين بين، دارت الكلمات في ذهن فيض الله وأفاق منها على عبيد المقبل بين يديه دفاتر وكراريس منظمة، ركنها على المنضدة المقابلة وأشار..

ـ في الأوراق كل ما كتبت قبل سفري لأسطنبول وبعد رجوعي.

أدار فيض الله ومعروف نظراتهما نحو عبيد وفيض الله يدري أن زوج حفيدته الذكي ذو ذاكرة نابهة ولم ينس حرفًا مما روى له عن هوجة عرابي وحفل قناة السويس وغيرها من حكايات اختصه بروايتها له، سأل الشاب صاحب العقل الراجح:

ـ وتهتم بالماضي؟
ـ لما حكى لي عبيد عن ذكرياتك أيام حرب عرابي مع الإنجليز عرفت أنك صادق لأنك وغيرك شهود عيان على كارثتنا وصممت على قراءة ما رويته.
ـ وتعيد كتابته؟
ـ لا، لكن توجد تفصيلات أستفيد منها في الكتابة، من تسع سنوات حضرت جنازة أحمد عرابي وأجهز كتابًا عن حياته وبكل تأكيد حكايات المعاصرين له ومحاولته في إصلاح الجيش وحال البلد ولثورته على الخديو توفيق وتدخل الأجانب لها أساس في تدوين الكتاب.

تارة أخرى يبدي فيض الله إعجابه برأي الشاب الرصين وفكرة كتابة سيرة عرابي ورفاقه من المحاربين القدامى غمرت تفكيره وأسعدته إيما سعادة، وبينه وبين نفسه أبدى استعداده لمعاونة عبد الرحمن وإمداده بأي خبر عن أي وقعة يمكن أن يسأل عنها أما عبيد فوجدها فرصة يستمع صاحبه الرافعي لنفس الإنسان الذي كتب حكاياته عن هوجة عرابي، فسأله:

ـ قلت يا جد فيض الله أنك كنت حارسًا أيام حفلات الخديو إسماعيل.
ـ ضمن حرس سراي عابدين.
ـ وأنا كنت حارسًا في سراي الجزيرة.
ـ احك يا جد فيض الله.
ـ الخديو كان كريمًا جدًا.
ـ قصدك يا جدنا تقول كان سفيهًا جدًا.

ـ تزينت المحروسة وعلت بناياتها وشوارعها الزينات والبيارق والأعلام، وانطلقت في ميادينها طلقات المدافع تحية للعرسان، ودقت معازف الموسيقات العسكرية، العربات الفخمة كانت تختال في مواكبها الرائعة، وتزخر رحباتها بكوكبات الفرسان وطوابير الجند، واشتركت مع غيري من أنفار الجند وأونباشيات العسكر في إقامة السرادقات الفخمة المزينة بأفخر الرياش أمام قصور إسماعيل وتقام الأصوات والأذكار في السرادقات والصوانات، ويُنعم الخديو على الفقراء والمعوزين وأرباب الطرق، ويتصدّق على الفقراء والمحتاجين، وتمد أسمطة الطعام والشراب أمام أهالي وساكني الأحياء، وبمناسبة الأفراح، أصدر الخديو أمره بدعوة تلاميذ جميع المدارس وطلابها لتناول الطعام ومشاهدة الألعاب وسماع الأغاني، وكانت تقدم الذبائح والخبز، واللحوم والديوك الرومية والحلوى فيُقبلون على الأكل في شبع ويدعون لإسماعيل بالنصر ولأبنائه بالعز.

وتصدق يا أستاذ رغم ما طلع عن الخديو إسماعيل أنه رجل سفيه كما قلت كان يحب صناعة بلده، قبل موعد أفراح أولاده بشهور، كلف إسماعيل ناظر الخاصة الخديوية طه باشا الشمسي بمفاوضة عدة محال تجارية لتقديم مناقصات لزوم جهاز الأميرات، ووقع الاختيار على محل لتاجر فرنسي اسمه بسكال، لجودة بضاعته ورخص أسعارها، ولما عُرض الأمر على إسماعيل، سأل بدهشة: ألم يتقدم في هذه المناقصة محل مصري وطني؟ فأجابه طه الشمسي: تقدم محل مدكور المصري، ولكن أسعاره تزيد الربع على أسعار الخواجة بسكال رغم أن البضاعة واحدة، فرد الخديوي: خذ كل ما نحتاج إليه من محل مدكور المصري، فإذا كانت المحال المصرية لن تنتفع من أفراح أولادي فمن أفراح من تستنفع؟

ـ وعم معروف.

ـ طوال أيام أفراح أولاد أفندينا، أقام الخديو لضيوفه وليمة عشاء كبيرة وحفلة ساهرة ومرقص في سراي الجزيرة، والطريق من عابدين إلى قصر النيل إلى سراي الجيزة كان مُزيناً بآلاف الفوانيس ودعي إلى مرقص الجزيرة الأمراء والوزراء ورجال المعية وكبار رجال الدولة وعلماؤها وشيوخها، وكان أفندينا ولي النعم يستقبل الوفود في أجنحة السراي بلطفه وبشاشته المألوفة، ويتقبل تهانيهم الحارة والمنافقة بزواج أنجاله الكرام.

وعند ساعة العشاء، سار إسماعيل في المقدمة والجمع يتبعه إلى قاعة الطعام، والأمراء توفيق، وحسين، وحسن حوله وبعد العشاء افتتح الخديو بنفسه المرقص واشترك فيه الرجال والنساء، والغريب والمدهش أن أفندينا المشخلع كان يرقص بنفسه، مع المسيو فرديناند دي لسبس وانتهى المرقص فانتشر المدعوون في قاعات القصر الفسيحة لسماع الموسيقى، وما جرى وحصل في اليوم التالي كان أجمل، أحيا الخديو إسماعيل في صحراء العباسية حفلة سباق للخيول، وهجاناً جلبت من أسوان والسودان كانت تجري أشواطاً فيه ويراهن عليها، وقد دعي إلى الاشتراك في هذا السباق أعيان البلاد حتى إن المدعوين كانوا يغطون صحراء العباسية لزحامهم، وقد أمر الخديو بأن يقام على نفقته مطعم للمدعوين فاقت مأكولاته ومشروباته في التنوع واللذة كلَّ ما ظهر من نوعها.

ومبالغة في إظهار الشعور بأفراح الأولاد، أمرت الوالدة باشا بإقامة عشرات الأصونة والسرادقات والجوقات في الرحبة الواسعة الممتدة أمام السراي دعي البهلوانات وأرباب الممازحات والحواة والأراجوز، لمشاهدة ألعابهم، ويا سلام على الرقص الشرقي بغرف القصر العالي، و رقصت شهيرات العوالم و منهم عائشة الطويلة، وسمعنا أنها رقصت ساعات وصفية المنصورية ومعها جوقتها من دربُكة وطبلة وعود.

وأحيا الحفل الكبير قدام القصر جوقة الفناجيلي الدمياطي، وجوقة عبد الله أفندي التُركي، يا عيني على عبده الحامولي ومحمد عثمان وطربهما في السرادقات المنصوبة قدام القصر العالي، أما ألمظ والوردانية والأسطى ساكنة.. غنت كل واحدة أغنيات جميلة والوالدة باشا خوشيار هانم أغرقتهن بالعطايا والهبات غير المغنين الأتراك وحضروا خصيصًا من أسطنبول للحفل.

ـ على فكرة صوت معروف جميل.

ـ أنا صوتي أحلى من صوت حياة صبري ولو الوالدة باشا خوشيار هانم أم أفندينا تعيش لليوم وحضرت فرح السلطان فؤاد ونازلي لغنيت لها:

يا حلاوة أم إسماعيل في وسط عيالها
زي النجفة عم بتلعلط في جمالها
يكفينا اللي شفناه
من فات قديمه تـــاه(50)

رغم ما يتصف به الأستاذ عبد الرحمن من جدية مال بظهره وعلت ضحكته وتداخلت مع ضحكات عبيد وفيض الله، عاد عبد الرحمن إلى هدوئه ولا تزال آثار المرح على وجهه وأكد..

ـ كل ما حكي يؤكد أنه لولا سفه الخديو إسماعيل في النفقة ما وقع البلد في ديون أدت لتدخل الإنجليز والفرنسيين، ولما تمكنوا منه وكشف نيتهم أصدروا أمرًا من الباب العالي بعزله، مهمته انتهت وبقيت مهمة احتلالهم للبلد.

ـ قصدك تقول أنهم دبروا لإغراق البلد في الديون!

ـ أكيد يا عبيد.

ـ كلام الأستاذ عبد الرحمن صحيح يا عبيد، أسرف الخديو إسماعيل في تجميل قصور الجزيرة وعابدين والجيزة وسمعنا أن تكلفة ستارة بقصر الجزيرة بلغت ألف جنيه غير الطنافس والأرائك والأبسطة والتحف، غير تزيين الحدائق بالأشجار والبرك والأنهار الصغيرة و الجبلايات وأحاط البستان بسور جعل فيه محلات للفيلة والسباع و القردة والطيور الملونة...

ولأن الإمبراطورة أوجيني تحب زهور الكرز فأمر الخديو بغرس أشجار الكرز أسفل غرفة نومها بالسراي، وكان الخواجات الإنجليز والطليان والفرنسيون يقومون بمهمة الموردين لتزيين القصور وفرشها وجنوا من عملهم مبالغ كبيرة غير بقشيش أفندينا الذي ينعمه عليهم إن عجبه تأثيث السرايات الخديوية.

ـ فهمت يا عبيد، ورطوا إسماعيل وعزلوه وبعدها مرحلة طيّ الخديو الجديد تحت جناحهم والترتيب لاحتلال يدوم سنوات.
ـ ونجحوا.
ـ يا جد فيض الله، احتلال بلد بجيش شيء غير سهل بالمرة، وغرضهم أنهم لا يفقدون جنديًا واحدًا من أقل رتبة.
ـ أعرف يا أستاذ عبد الرحمن، أنا عشت خططهم بنفسي وعارف كيف اجتذبوا خونة لصفهم، وموالاة الشركس لأي سلطة تضمن تحكمهم في مخاليق ربنا جعلهم ينخون لأي سلطة.

صمت فيض الله وثبت في نفسه أنه لو اتصف الخديو وابنه بالحكمة وتجنبا السفاسف، ما وقعت مصر في قبضة الإنجليز، وكل فلوس النفقة من مال الناس، جدهما الباشا الكبير محمد علي كان مجرد جندي ألباني راتبه بارات فضة هو وعساكره، وأهله تجار تبغ وتنباك، ترك البلد قويًا وبه مصانع ونظارات تخدم الناس لكن من بعده عباس وسعيد وإسماعيل وقصورهم وحفلاتهم ونفقاتهم وبذخهم من أين؟

ارتمى السؤال وكأن الأستاذ عبد الرحمن أراد أن يقول أن الناس في كل بر مصر حرموا من نعمة أحق بها لا إحسان من إنسان يدعو نفسه بولي النعم في طعام بفرح أنجاله، وما ذنب الخزانة في هدايا الخديو إسماعيل للإمبراطورة أوجيني وغيرها من ضيوف حفل القناة، وقفة الأستاذ عبد الرحمن انتشلته هو ومعروف من الاستغراق في موجات أيامهم المنقضية، وبأدب كبير امتنع عن تناول الغداء الذي دعاه إليه عبيد لارتباطه بموعد، حمل دفاتر الورق وسار فأصرّ على توديعه حتى باب الحديقة فنظر إلى البستاني..

ـ الفلاح، أمل البلد في نهوضه، أنا ألفت كتابا[51] عن ضرورة إنشاء جمعيات زراعية تتعاون مع المزارعين وتقدم لهم الخدمات وتربط الزراعة بالصناعة هنا في مصر بدل قطننا المنهوب في مصانع الإنجليز.

قبضت أصابعه على يد فيض الله، أمام الباب أوقف له منير الجنايني أول حنطور هدأت سرعته أمامهم، ظلّ العجوز يتابع العربة إلى أن أخفتها طية الشارع البعيدة، موجة من سرور انتابته لأفكار الأستاذ القوية والداعية لإصلاح حقيقي، وكيف فاته أنه من يومين كان يجلس جوار الأفندية وسمع هلال أفندي يتكلم مع صليب أفندي عن واحد اسمه طلعت حرب غرضه يبني بنكًا اسمه بنك مصر.

ولما سألهم عنه قالوا أنه مصري ومن قصر الشوق بالجمالية وأنه عارض من سنوات مدّ احتكار الأجانب لقناة السويس لمدة خمسين سنة قادمة؛ الله على الناس الجريئة، تمام التمام يا مصريين عمار البلد قادم رغم أنف الإنجليز وسراي السلطان فؤاد وأتباعهم.

ـ الغداء يا جد فيض الله.

تارة أخرى أفاق فيض الله من دوامة الأمنيات البعيدة التي يتمنّى الحياة ليراها أمامه واقعًا، وإن لم يحدث فلتنعم منيفة وعبيد بحماية رجال كرماء مثل عبيد وصاحبه الرافعي وغيرهم.

في صمت تناول غداءه، لم يطق الشاي فسلم على منيفة وعبيد وحليمة هانم، توكأ على معروف وأمام باب الحديقة توقف حنطور آخر ونزلت منه أم فانوس وأم يوسف وتريزا ومريم

تحمل بين يديها ابنها محب، من أعلى الفراندة أشارت منيفة ونزلت في سرعة لاستقبالهم، فيض الله مبسوط من جيرانه ومودتهم لمنيفة، ألقى عليهم نظرة أخيرة وسار مع معروف وفي داخله طمأنينة.

***

ـ ورأيك يا محروس أفندي يكون السجن أو الشنق؟
ـ السجن، ستات يا عالم، ومهما عملوا حريم، سمعنا عن ستات في السجن، لكن حرمة تتعلق في حبل المشنقة حاجة مفزعة.
ـ لكنهم قتلوا زوجات وأمهات وسرقوا مالهم ومصوغاتهم.
ـ يبقى سجن، ولو مدى الحياة.
ـ عندك حق.
ـ أنت لو لك زوجة وانخطفت وعرفت أن ناس فطستها وسرقت مصاغها تقوم بثورة على الدنيا كلها، إلا قل لي يا أستاذ محروس سيادتك عازف عن الزواج.
ـ ما عنده حق.
ـ عازف ولا عازب، مرتاح من أي هم، آكل، أشرب أسهر، أصرف على نفسي، وما تحسبه محرومًا منه أقضيه في بيوت الهنا في أي وقت وعلى حسب مزاجي.
ـ بيوت الندامة يا محروس.

كعادته غمغم بها فيض الله دون رفع صوته، وأصابه ضيق من عبد الحق وكلماته التي لا يغيرها، عنده حق، ما له حق.. كاد يتقيأ ما في جوفه، فمنذ شهور طويلة نبذ قهوة المعلم حسين إلا نادرًا والتزم البيت أو مع منيفة وعبيد لا يصبر على بُعده فإن لم يزرهم لأسبوع يأتيه في ربع المشعلجية يسأل ويستفسر ويكتب ولا يمل فيض الله أو معروف موافاته بما يجيبان عنه، واشتعل البلد بسبب اعتقال سعد باشا وطرده إلى سيشل، فلم يعد يتحمل الجري إن أطلق الإنجليز رصاص بنادقهم على الماشين لا المتظاهرين فقط بعد أن اشتد عليهم شباب البلد وصاروا يقتلون منهم الكثير، وها هو يعود لجلسة القهوة وتنكسر نفسه للأخبار الغريبة؛ ففي الأيام الأخيرة نشرت الأهرام على فترات وغيرها من صحف أخبار شقيقتين تعيشان في الإسكندرية تستدرج الواحدة منهما المرأة وتقتلها وتستوليان على ما عندها من مصاغ، وحين كان يحفر مستأجر اسمه عيسى أحمد عبده لوضع ماسورة ماء في بيت عثر مع عامله على عظام فبلغ كونستابل قسم بوليس اللبان، ومن يومها تتبع الأونباشي أحمد البرقي القضية حتى اكتشف تفاصيلها بعد تعدد بلاغات عن اختفاء ستات، دون العلم بمصيرهن.

ـ الكل طالب بإعدام الأختين ريا وسكينة علي همام وحسب الله سعيد ومحمد عبد العال وعرابي حسان وعبد الرازق يوسف «ولكم في القصاص حياة».
ـ صحيح يا هلال يا أخي، حتى يرتدع الناس، ومن أهمية الموضوع حضر محافظ الإسكندرية محمد حداية باشا لسجن الحضرة ليشهد تنفيذ الحكم.
ـ الحمد لله استراح الناس من شرهم، وربنا يسترها على ولايانا.
ـ عندكم حق، ربنا سترها معك يا منيفة، وعبيد العاقل رفض طلب جدته أن يسافر الإسكندرية أو أي مكان خارج القاهرة لقضاء شهر عسل، يومها أعلن أمام حليمة هانم

آنه إذا كان الله نجاه من الموت برصاص الإنجليز فغيره قتلوا والبلد في حداد على أرواح شبابها وذ نذر نف سه لف ضح جر ائم الإنجليز هو وص ديقه الـ محامي الـ شاب با لمنصورة واسمه...

غاب اسمه عن ذاكرته وسيسأل عنه عبيد، وابتسم لنفسه لتكرار كلمة الشيخ عبد الحق دون أن يشعر، نهارها ارتفع عبيد في عيني فيض الله واطمأن تمامًا على حياة حفيدته اليتيمة ولا يبالي إن داهمه الموت في أي وقت.

***

أغنية من تأليف بديع خيري وغناء حياة صبري وسيد درويش من رواية (رن) لفرقة الريحاني المسرحية وقدمت سنة 1919م.

كتاب: نقابات التعاون الزراعية، عبد الرحمن الرافعي 1914م.

(33)

فيض الله قاعد على الأرض أمامه معروف وظهر على قامته احدودابٌ من حمل القرب، حاول منعه من تحويل الماء وخاصة في أيام الشتاء والبرد القارس يمرض صدره والكحة تكاد تقتله لكن معروف المعتز بما تبقى له من صحة فاترة أصر ألا يمنعه مانع من عمله إلا الموت، وفي الأيام الأخيرة اشترى له فيض الله عربة يجرها حمار ليركن عليها القرب المملوءة بالماء فيتخفف من نير ثقلها على ظهره، أتى صبي القهوة بصينية الشاي ففكّ فيض الله ربطة كيس وفتحه فتناول معروف كعكة وقضم مع أول رشفة للشاي، الأفندية جالسون وهلال أفندي يمد يده بالجرنال للأستاذ صليب ويهز رأسه..

ـ يا سلام، أخيرًا عاد سعد باشا.

ـ والناس استقبلته في الإسكندرية.

ـ مشى من البلد وكان يحكمه سلطان ورجع وحاكمه ملك وغيروا العلم من أحمر بثلاثة أهلة ونجوم إلى أخضر بهلال واحد بين قوسيه النجوم.

ـ حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول ملك مصر وسيد النوبة وكردفان ودارفور، عيني يا عيني على الألقاب.

ـ من خديو لسلطان لملك، همٌّ ابن غم ابن كرب، مشى اللنبي وونستون تشرشل وزير الدولة لشئون المستعمرات الجديد يصرّح بأن مصر جزءٌ من الإمبراطورية البريطانية، ناس ما عندها دم، ثورة وشعب يموت وسعد باشا يبعد عن بلده مرة لمالطا ومرة لسيشيل ومقاطعات وانقلابات على الوزارة وضرب في الإنجليز ومطالبة برحيلهم عن بلدنا وسيادته يصرّح بكل وقاحة أنه لا يرى الوقت مناسبًا لجلاء الجيش الإنجليزي عن مصر وضربوا بعرض الحائط بتصريحات رئيس أمريكا.

ـ أظن اسمه ويلسون، أعلن مبادئ عن الحرية وبعدها اعترف بحق الإنجليز في الحماية.

ـ يا عمنا المتغطي بهم عريان، تعوز تتحرّر من الإنجليز ما يفعلها غير واحد من بلدك.

ـ كلكم عندكم حق.

نظرات فيض الله تدور بين وجوه المتحاورين وعلى سحناتهم قتامة لم يزلها تصريح الإنجليز في فبراير من العام الماضي بإلغاء الحماية وأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة، فالمظاهرات ضد الإنجليز وأعوانهم لا تتوقف وتأكد الناس أنهم لن يخرجوا من البلد وتصريحاتهم كلها مخاتلة وغير صادقة.

ـ مستحيل يطلع الإنجليز من مصر، قناة السويس بالنسبة لهم ضمان سيطرتهم على العالم.

ـ لولا وجود الإنجليز كان جيش إيطاليا أو ألمانيا أو فرنسا احتلنا كيف ما احتلوا ليبيا وتونس ومن قبلهم الجزائر.

ودّ فيض الله لو يلكم محروس أفندي على صدغه بسبب كلماته الأخيرة، فيعجز عن مضغ لقيمات الخبز بالجبن الإنجليزي، امتعض لكلماته الأخيرة، لولا الإنجليز لاحتلنا كذا وكذا، كلام فارغ، لولا الإنجليز وضعف العثمانيين لكان جيشنا أقوى جيش، شيء مخز أن يكون

قائد الجيش بعد عرابي والبارودي سردارًا إنجليزيًا مهمته وآد آي محاولة في أضيق زقاق للمطالبة برحيلهم، ولولا الإنجليز ما سمحنا لأحد يعلن انتدابه على فلسطين أو يقتطع ليبيا وغيرها من بلاد مجاورة، والدور على السودان، أشيع أن الإنجليز عرضوا على سعد زغلول أن يكون ملكًا على مصر مقابل فصل السودان واشترطوا عليه الاعتراف بسيادة الإنجليز والرجل القوي يرفض، تستحق يا سعد أن تكون زعيمنا وحولك أهل البلد فما بالك لو معك جيش.

ـ الجيش، أملنا...

ـ تكلم نفسك يا فيض الله؟

ـ الأمل كله في الجيش يا معروف، جيش قوي يقلب السلطان أو حتى الملك ويخلصنا من الهم الأزلي.

ـ عرابي آخر واحتلال و...

ـ لا يا معروف، عرابي واستقلال.

من بين زغللة نظرات معروف يرمق جمود وجه صاحبه وارتعاشة شفتيه كأنه يهذي، أراد أن يدير دفة حواره معه فسأله: ـ وأخبار عبيد؟

ـ بخير، أنا معجب به يا معروف، رغم قرب ولادة منيفة بعد تعطيل حملها دام لشهور طويلة أصر يسافر إلى الإسكندرية ليستقبل سعد باشا وهناك قامت مظاهرات واحتكت رصاصة في وركه لكنه رجع بخير والحمد لله و... عبيد، مرحبا يا ولدي، نرجع البيت.

قالها فيض الله وهو يقف في تراخ مرحبًا بعبيد المقبل عليهم بمشيته المرتكزة على عكاز، سلم عليهم ودون أن يجلس أشار إلى البيت الكبير الرابض في سكون، فأدرك فيض الله مقصده لكنه استغرب قدومه فقط ليسأل عن بيت ساكنة بك، تحامل معروف وسار ثلاثتهم نحو البيت، ضم فيض الله أصابعه بما فيه القسمة وأعطاه للرجل الستيني القاعد على دكة قصيرة يحرس البيت بأمر من ورثته.

ـ ممكن يا شيخ عثمان تفتح الباب؟

ـ أمرك يا عم فيض الله.

ـ أولا سبب حضوري أن جدتي مع هانم جارتنا حكتا عن المغنية ساكنة بأن صوتها كان لا يغني إلا للخديو إسماعيل، فاكر ليلة فرحي، لما حصان الحنطور وقف قدام البيت وغنى واحد من أصحابنا أغنية والنبي لـ أهشه يا لعصفور، وقال أنها لساكنة وعم معروف أكد أنها أغنية للست ألمظ.

ـ صحيح يا عبيد، ساكنة مشهورة من أيام محمد علي، وسمعت أنها ولدت سنة طلوع بقية جيش نابليون من مصر، وكانت تغني في أكشاك الأزبكية.

ـ الله، الله عليك يا جد فيض الله.

صمت عبيد متيحًا لنفسه وقتًا لتأمل البيت الواسع بالمشربيات والنوافذ الكبيرة، وأجنحة طابقه الأول وغرفه الكثيرة المتجاورة وملحق الخدم، واسطبل للدواب، ووسط الصحن نافورة رخامية مهملة والأتربة غطت لونها المرمري، وأدرك أن الدور الثاني فيه قاعات الحرملك، وأعجب أيما إعجاب بالزجاج المعشق الملون والأسقف الخشبية المزخرفة بالزخارف المذهبة، التفت إلى العجوزين ودون أن يطلب أشار معروف..

ـ الله يرحمها كانت تغني في حضرة سعيد باشا وحازت ثروة كبيرة واشتهرت آيام الوالي عباس ابن طوسون ورافقت صحبة حريم الوالي للأستانة وأحيت هناك سهرات في قصر اسمه قصر يلدز...
ـ وبيتها؟
ـ البيت أهداه محمد علي باشا لابن ابنه الأمير إسماعيل وهو بدوره أهداه للست ساكنة، يا سلام على الأيام، كنا نقف حراسة من أول الشارع لآخره منتظرين خروج ولي النعم، هنا كانت قعدة أفندينا إسماعيل يسمع ويطرب وأنعم عليها براتب شهري أعلى من راتب ناظر أي وزارة أيامه.
ـ وكانت لا مؤاخذة!
ـ لا يا ولدي، بالعكس كانت متعلمة، حافظة للقرآن الكريم، كلامها حلو، كانت تفتح مضيفتها لزوارها في ليالي رمضان، وتمد الطبالي في الشهر الكريم ومولد النبي ويوم عاشوراء، كانت محتجبة وتغني قصائد لابن الفارض وبعدها غنت للناس واشتهرت على مغنين كبار كأحمد الشلشموني وقصطندي منسي وعبد الرحيم المسلوب.
ـ أسمع عن الشيخ عبد الرحيم المسلوب صاحب أغنية: يا حليوة يا مسليني.
ـ عليك نور يا أستاذ، أما لقب البك له حكاية، بعد سهرة حلوة قال لها أفندينا: عفارم ساكنة هانم، يومها اغتاظت الأميرات وحريم السراي فردكيدهن بأن منحها لقب البك ومن يومها بقت ساكنة بك.
ـ وفيه خبر شاع بعد انتشار الإنجليز في نواحي البلد ومطاردتهم لأعوان عرابي، أنها أخفت هنا في بيتها عشرة من العساكر الراجعين من التل الكبير وغيروا ملابسهم وعاد كل واحد منهم لبلده.

طافت نظرات عبيد تحفظ جنبات البيت الكبير وشعر بالفخر لوقوفه بصحن داركان يتردد عليها الخديو إسماعيل وسط ندمائه المقربين، ويطرب بصوت قاطنته، وراوده إحساس بأن الجدران تريد أن تزيد له من سيرة صاحبة البيت التي عاشت منذ أيام الجد الأول لملك مصر فؤاد، عقب استدارته ألقى نظرة أخيرة قبل أن يغلق الحارس بوابته العتيقة، وبدوره منح الشيخ عثمان نصف جنيه فكادت قامة الرجل تسقط من وسط جلبابه للبقشيش الكبير الذي ما حلم أن يتملكه، عبيد يسير بين العجوزين ويريد أن يكافئهما على كل ما رويا منذ عرفهما وتجذر في نفسه أن خير مكافأة لهما هو ألا يتوانى في رعاية هرمهما يومًا واحدًا.

ما إن جلسوا حتى توقف حنطور ونزل منه منير الجنايني، تسارعت خطواته نحو عبيد وفيض الله وأخبر أن منيفة جاءها وجع الولادة وحليمة هانم والداية معها، طلب من الجنايني أن ينتظر مع معروف، في سرعة عاد إلى البيت وغير ملابسه، قلق يساوره من ولادة منيفة فقرع باب أم فانوس، وألقى لها بالخبر وهمّ بالمضي إلا أن جارته المشفقة طلبت منه الانتظار لترافقه، مروا على بيت أم يوسف وأخذوها في طريقهم ومريم تدعو أن ينجي الله منيفة ويعطيها ساعة سخية من عنده، لم يتوقف الحنطور وطوال الطريق يتمنّى معروف ألا يعطلهم عسكر الإنجليز المطاردون للشباب المتظاهرين ضد تصريحهم المزيف، سبقتهم دميانة إلى الداخل وتركت فيض الله ورافق عبيد ومعروف وأم يوسف يلحقون بها على مهل، دخلت أم

يوسف غرفة منيفة وبقي معروف وفيض الله مع عبيد المضطرب يدعو ربه بقرب انفراج غمة منيفة وتلد بالسلامة، خرجت الداية السوداء من الحجرة وما إن رآها فيض الله حتى تذكر المولدات السودانيات من خريجات مدرسة الولادة القديمة أيام محمد علي باشا، نادى عليها.

ـ اسمك يا بنتي؟

ـ حسيبة.

ـ سودانية؟

ـ أمي سودانية وكانت داية من زمان وورثت شغلها لكن أبي من بلد بعيد لا أعرفه اسمه أدندان.

رنّ الاسم في أذن فيض الله بحميمية الحنين إلى أصل قديم لا يعرف عنه شيئا، ابتسم للسيدة الأربعينية ومنحها عدة قروش فتمنّعت بحجة أن أجرها تناله بعد الولادة بالسلامة، تركتهم إلى غرفة أخرى جانبية فأقبلت حليمة هانم بوجه منحوت عليه القلق..

ـ حسيبة الداية قالت أن معها للغد.

ـ إن شاء الله يا ستنا، نستأذن ونحضر في الصبح.

ـ أبقى هنا لأطمئن على البنت.

ـ أكيد، اقعد أنت يا فيض الله وأنا أرجع إلى الربع وأنتظرك بالأخبار الحلوة.

لم يجرؤ فيض الله على رؤية منيفة ففضل البقاء على الكرسي، رفض القهوة لأنها صارت تمنعه النوم وتحرق جوفه، عبيد يبدو عليه آيات القلق ويزيد في دعائه لها بالنجاة، فترة صمت قطعها فيض الله: ـ والأستاذ عبد الرحيم رافع تعرفه من زمان؟

ـ قصدك عبد الرحمن الرافعي، محامٍ أقدم مني ونويت أتدرّب في مكتبه بالمنصورة، لكن الأحداث الأخيرة منعتني وعلى كلٍ هو شاب متفتح ويعرف يكتب سيرة الناس بشكل منظم.

ـ واضح أنه مهتم بالتاريخ.

تعجب عبيد من الكلمة التي فاه بها عجوز عرف أنه درس شيئا أول شبابه بالأزهر ثم انقطع لعمله مع أبيه في القناطر والتحاقه بالجيش، وبعد تسريحه تولى إشعال أعمدة الشوارع، إلى أن انتهت به الأيام إلى شيخوخة لا يرجو منها غير حسن الخاتمة، وكأن فيض الله تفطن لما يدور في تفكير الشاب الصغير فأوضح له: ـ كان لي زميل مدفعجي بالطوبجية اسمه سيد، بعد تسريحنا حكم عليه بالسجن لأنه صفع قائدًا إنجليزيًا قدام سراي عابدين وقال له بالحرف: وصّل القلم للمارشال سيمور، تخيل واحدًا من أعوان خنفس ترجم الكلمة للميجور فقبض على سيد وبعد طلوعه من السجن...

ـ اشتغل مشعلجيًا.

ـ لا، في يوم وجد أكياسًا من الخيش قدام سراي كبيرة في الحلمية وسأل البواب، قال له أنها كتب الباشا الله يرحمه وابنه رماهم، عرض يأخذهم ورصهم على سور حديقة الأزبكية مع تجار الكتب القديمة وكنت أشاركه قعدته على الدكة وهو يبيع الكتب، تسمع عن المنفلوطي؟

ـ آكيد، قرآت مقالاته وقصصه في المؤيد والهلال وغيرها.
ـ المنفلوطي والمازني وشاب جريء اسمه عباس العقاد حتى حافظ إبراهيم وواحد أطرش كان يأتيه من طنطا أسمه مصطفى الرافعي وغيرهم و...
ـ تقول من؟ ممكن يكون قريب عبد الرحمن.
ـ يجوز.
ـ أنا نفسي كنت أقلب في الكتب القديمة وأقرأ.

عبيد لا يصدّق نفسه أنه يجلس مع إنسان بسيط لكن ما رواه من سيرة عمله بنظارة الجهادية أيام عرابي وما قبلها وما بعدها يجعل منه كنزًا ثمينًا يندر وجوده فمعرفته أعظم هدية من جدته حليمة والجوهرة الثمينة منيفة الجميلة، تثاءب فيض الله فوقف عبيد وأشار إلى حجرة جانبية، فتحتها الخادمة وسار إليها ببطء، دلف الغرفة وأنارت زكية شمعة كبيرة مثبتة بشمعدان من الفضة فاتسعت بقعة الضوء أسفل صورة معلقة، فغر فاه لوجه عزيز بك المصري الصارم، إذن أنا في حجرة البك وأنام على سريره العالي بأعمدته المخروطة والناموسية الشفافة تحوطه، العز جميل لكن لو من عرق جبينك، اتسعت ابتسامة الرضاء، أراح جسده المكدود بفعل وطأة السنين، حقيقة يحتاج إلى النوم والدعاء لحفيدته الطيبة أن الله يعطيها ساعة من عنده.

***

على غير عادته يستيقظ متأخرًا، وكأنهم نسوا وجوده بالبيت، أصوات وأصوات خارج الغرفة، نهض من فوره، حسيبة الداية جالسة على كرسي وعلى وجهها آيات الانشراح، أمامها حليمة هانم ودمعة سالت على خدها..

ـ مبروك يا عم فيض الله، بعد الفجر ولدت بالسلامة، ولد.
ـ ممكن...
ـ ادخل يا جدها.

في سرعة دخل فيض الله على حفيدته النفساء وعبيد يمسح العرق المنزلق على رقبتها، جوارها رضيعها ملفوف بأقمطة ثمينة ووجهه متورّد وأنفاسه متلاحقة وأصابعه مضمومة، مال على منيفة وقبلها، من جيب جلبابه أخرج كيسين..

ـ نقطة المولود مني ومن خالك عطية أوصاني أسلمها لك.
ـ تسلم يا جدي، ربنا يحفظك وتفرح بأولاد أولاده.
ـ واسمه.
ـ نسميه عزيز المصري.

قالتها حليمة هانم وهي تدخل وخلفها زكية تحمل بين يديها صينية الإفطار، ركنتها على المنضدة المجاورة للسرير، التفت عبيد إلى جدته وقال في حماس: ـ سعد، سعد زغلول عبيد.

ـ فيها سجن ستة شهور وجلدك عشرين جلدة.
ـ أسجن وأجلد من أجل خاطرك يا سعد باشا يا جميل.
ـ لا، نسميه فيض الله.

جهرت منيفة برغبتها باسم جدها الحبيب، فيض الله اسم اختاره له آبوه عبد الرحمن الأدنداني لأن أمه ولدته في كوخ جوار نيل القناطر في بداية موسم الفيضان، والاسم مشهور عندهم بين أهل الجنوب، دون اتفاق نظروا للعجوز الصامت فهو الوحيد لم يقترح اسمًا للمولود النائم في سكون، دون أن يطلبوا رأيه ألقاه إليهم ووجه قائده يتوهج أمام عينيه الذابلتين..

ـ محمد، محمد عبيد على اسم أشجع قائد قاتلت معه الإنجليز.

بحركة لا إرادية وضع عبيد يده على رأسه لكنه لم يكن يرتدي الطربوش، لقي الاسم قبولًا صامتًا من الجميع، سلم فيض الله على منيفة ووعدها بزيارة قريبة، قبل مغادرته مع عبيد دخلت أم فانوس وأم يوسف تزغرد، خلعت دميانة البرقع والطرحة وتهيأت تمامًا للمعاونة في خدمة منيفة وأخبرتها أن مريم تزورها بعد العصر، تركهم فيض الله وأشار إلى عبيد أن يتبعه، في مكتبة عزيز بك المصري أغلق الباب، ثبت عبيد الطربوش على رأسه وانتظر ما سيفصح به الجد العجوز..

ـ معك سلاح؟

ـ سيف قديم ومسدس وبندقية جدي عزيز لكن جدتي حليمة خبأتهم ووحدها تعرف مكانهم وكانت تقول: الشيطان راكب على الزناد.

ـ معها حق، لكن أنا أهديك حاجة لا يستحقها غيرك.

رفع فيض الله جلبابه وفكّ إبزيم الحزام الجلدي، حرّر وسطه من ثقل السلاح، ورفعه أمام عبيد.

ـ طبنجة قائدي بكباشي محمد عبيد، يوم نكسة التل الكبير ظلّ يضغط على الزناد إلى أن فرغت الطلقات، فعمّر أقرب مدفع وضرب في الإنجليز المهاجمين، ووسط الصرخات والغبار والدخان أحاطتنا النار ورأيت مسدسه على الأرض وطربوشه مرمي، قبل قصفنا بمدافع الإنجليز اقتنصتهما وتمنيت أدفنه لكني أغمي عليّ وباقي القصة رويتها لك.

ـ حصل يا جد فيض الله.

ـ من الساعة هو سلاحك ولكن كما قالت حليمة هانم، الشيطان يرقص على الزناد، تحت أي ظرف من الظروف لا تصوبه لمصري واستخدمه عند ساعة الخطر ضد عدو بلدك.

ـ وأنت يا جد فيض الله، تعيش من غير سلاح؟

ـ حبيبي عبيد، أنت الأيام القادمة، أنت وصاحبك الرافعي وابنك وابن مريم ويوسف، ربنا يكتب لكم الحياة الكريمة في بلدنا من غير إنجليز وغيرهم الممتصين خيرنا.

ـ آمين.

ـ ووصيتك منيفة.

لا يدري مدى نظرة الاعتزاز الممزوجة بعتاب حميم التي ظللت فيض الله من الشاب وكأنه يستنكر توصيته بزوجته التي لا يعرف لها مثيلا، تحاضنا، عبيد يعبئ رئتيه بعبق فيض الله الضارب في أعماق السنين، والأخير يستمد من فحولة الشاب نتفًا من قوة تعينه على تحمل ما بقي له من أيام.

ـ بلدنا وكل البلاد حولنا الأجانب كبسوا على أنفاس أهلها لكن سمعنا أن أهل الجزائر في ثورة على الدوام، وجنوب تونس يقاتل الفرنسيين، وأهل النجف وكربلاء والكوفة والشامية وبلاد ما لها عدد في العراق ثارت على الإنجليز ومات منهم العشرات، أنا متفائل يا عبيد بكم، أنا ومعروف وغيرنا بقية من هزيمة سابقة وأنتم النصر القادم يا ولدي.

***

(34)

فيض الله يتهيأ للذهاب إلى بيت عزيز بك المصري؛ لحضور العقيقة المتأخرة لأسابيع والتي تقيمها حليمة هانم لمحمد بن عبيد، جلس معروف على قهوة حسين ليضبط مزاجه بحجر جوزة قبل أن يقضي بقية النهار برفقة صاحبه وينعم بهبر اللحم، على مهل يشرب فيض الله الكمون الساخن، على غير العادة يجلس عبدون الشاعر ملقيًا ربابته جانبًا وكأنه زهد ما اعتاد عليه من إنشاد، أما مشهور وقرده الذي كبر وأصبح يافعًا فوضع على رأسه قبعة تحميه من حرارة الشمس، ويلقي إليه بالخبز المبلول والفول وبقايا فاكهة، وكعادة أفندية الناحية يسكتون فترة احتساء الشاي ويبدأ أحدهم بفتح أبواب الحوار..

ـ وسمعنا أن المغني وصاحب الألحان الجميلة الشيخ سيد درويش مات في بلده الإسكندرية.

ـ عنده حق.

ـ عنده حق يموت، اسكت يا شيخ عبد الحق الله يرضى عليك.

ـ مات في نفس يوم وصول سعد باشا واندفن هناك من غير لا حس ولا خبر.

ـ يا سلام عليه لما سمعت له: قوم يا مصري.

ـ كلام فارغ.

ـ أصلك ما تفهم الكلام يا محروس أفندي..

قوم يا مصري مصر دايما بتناديك
خد بنصري نصر دين واجب عليك[52]

ـ والمصري يقوم بتخريب بلده!

ـ المصري عمره ما يخرّب بلده يا محروس أفندي، صحيح فيه ناس تستغل المعمعة وتسرق وتنهب الدكاكين، لكن الثوار والمطالبين برحيل الإنجليز وحقنا في الحياة لا يمكن الواحد منهم نصفه بالمخرب.

ـ أكمل يا شيخ عبدون.

يوم ما سعدي راح هدر قدام عينيك
عد لي مجدي اللي ضيعته إيديك

ـ سعد، يا عبدون! ناوي على قفلها بالضبة والمفتاح.

بدت على ملامح المعلم حسين أمارات الحنق لكنه هذه المرة تخلّى عن صوته العالي المتشاجر وهو يعقب على كلمات الأغنية، سكت بعدها وكأنه راض عن مواصلة عبدون وكل القاعدين في حالة شوق، أما البوهيجي فاستغلّ الفرصة وبدأ بصليب أفندي لما يعرف عنه سماحة قبوله ودون أن يستأذن رفع قدمه ووضعها على الصندوق الخشبي وشرع يمسح الحذاء، فالتفت إليه الأستاذ صليب بابتسامة مقتضبة وعاد إلى النظر إلى عبدون وهو يمرر القوس على وتر الربابة: شوفت أي بلاد يا مصري في الجمال

تيجي زي بلادك اللي ترابها مال

ـ ترابها زفت وقطران.

ضاق المعلم حسين من قطع محروس أفندي للشاعر فنهض من خلف منضدته ورأى فيض الله في عينيه العزم على طرد الأفندي الناقم على أي شيء، ففرد ذراعه إليه في رجاء، ولأنه أكبر القاعدين وعشرة عمر مع كل أهل الحارة ففترت رغبة المعلم حسين وعاد لدخان الشيشة، فجأة قوّس محروس ذراعه على بطنه ونهض مبتعداً، انثنى واستفرغ ما بجوفه، انتظر حتى ارتاحت مصارينه وعاد إلى كرسيه، رشف الماء ومضمض فمه وبصق، أتاه صبي القهوة بالنعناع الساخن فرشف ببطء..

ـ الله يلعنها جبن العلب.

ـ وما له الجبن البلدي والبلطي النيلي بدل معلبات الإنجليز.

انكتم محروس أفندي فلم يعلق بكلمة ولا يزال ذراعه يحيط بطنه الضامر، وكعادة قعدته لم يبال عبدون بتعليقات السميعة من حوله فواصل جر ربابته: حب جارك قبل ما تحب الوجود

إيه نصارى ومسلمين قال ايه ويهود

دي العبارة نسل واحد مـ الجدود

أعاد الشاعر عبدون الطقطوقة الأخيرة عدة مرات وأنهاها بجرة طويلة على وتر الربابة حتى أن جميعهم صفّق له ونهض هلال أفندي فبرّه بخمسة قروش دفعة واحدة زيادة على أجره من المعلم حسين، أما محروس أفندي فلم يفوه بكلمة حتى أنه لم يعترض على البوهيجي وهو ينظف حذاءه المتسخ ومنحه مليمين، زرر مشهور الجاكت الكالح وهندم الجلباب الطويل من تحته، وضع يده على قبعة ميمون ووقف وسط القهوة..

ـ وأنا أغني لكم أنا مصري.

ـ فيه أغنية اسمها أنا مصري يا ولد يا قرداتي؟

ـ أي نعم سمعتها، من سنة أو سنتين لما كنت أطبل قدام مرسح كشكش بيه بعد عرض روايته شهرزاد.

ـ تحب الريحاني يا مشهور؟

ـ وأحب رواياته، ومستعد أسرح بميمون طول الأسبوع مقابل أشوفه على الخشبة وفي يوم لملمت كل مليماتي ورغم جوعي دخلت أحضر رواية جميلة اسمها ريا وسكينة[53].

ـ حتى عصابة قتل النسوان في الإسكندرية عملها كشكش بيه مسرحية؟

ـ وشاركت الأستاذ الريحاني رقاصة حلوة اسمها بديعة مصابني، بعدها طلعت الشارع وشخّص الأراجوز دور ريا وأنا قمت بدور سكينة وحذرنا نسوان المحروسة من الخطف والليلة أغني لكم أنا مصري.

تهيأ مشهور للغناء، فاجأهم ميمون بتسلق جسم صاحبه القصير والوثوب على كتفيه، واستقراره عليهما، لم يعبأ مشهور بحركات قرده وبدأ..

ـ أنا مصري جميل العنصرين وبنيت أبو الهول بين هرمين...

تضاحك رواد القهوة على الأغنية التي يعرفها كثيرون منهم ويحفظونها عن ظهر قلب، أما عبدون فاعترضت نظراته بشدة وانتظر هدوء اللمة وفرد كفه أمام الوجوه، ثبت سن الربابة

وآمالها قليلا وكأنه يستعد لشيء كبير..

ما إن مرّر وتر القوس وسط الربابة وبدأ حتى انقطع وجرى في الهواء مما أشعل القهوة تارة أخرى بالضحك، لكن عبدون المعتاد على مثل هذه الأمور، فحص آلته ولم يضيّع الوقت في شد الوتر أو ربط آخر بحوزته فنحّى جسم الربابة بالقوس جانبًا واعتدل في جلسته والكل تهيأ للأغنية دون عزف: أنا المصري كريم العنصرين

بنيت المجد بين الأهرمين[54]

استطاب القاعدون كلمات الأغنية وصوت عبدون الرخيم الممطوط في توازن ظهرت نبرته ممتعة أكثر دون عزف، أكمل الأغنية في هدوء حتى أنها ها فعلا التصفيق من جميع الحاضرين، وهذه المرة نهض صليب أفندي من فوره وأتحفه بالخمسة قروش وما حدث من محروس أفندي هو الأعجب فقام بدوره ومنح عبدون ما جادت به محفظته التي نادرًا ما يفتحها حتى حساب القهوة شكك ويدفع بعضه أول كل شهر.

أنهى معروف حجر الجوزة فنهض فيض الله متحاملًا على عكازه، لم يترك القهوة دون أن يجبر خاطر عبدون وقرد مشهور حتى البوهيجي منحه عدة ملاليم رغم أنه لم يمسح له خفه الجلدي العتيق.

***

قوم يا مصري، أغنية من كلمات بديع خيري وغناء سيد درويش قدمت في مسرحية (قولوله) لفرقة نجيب الريحاني 1919م.

ريا وسكينة: مسرحية من تأليف بديع خيري وقدمتها فرقة الريحاني 1922م.

أغنية أنا المصري من تأليف محمود بيرم التونسي وغناء سيد درويش، قدمت بمسرحية (شهرزاد) لفرقة سيد درويش عن نص مقتبس لعزيز عيد 1921م.

(35)

وصلا لبيت عبيد، ثلة من زملائه خارجون من البوابة الحديد، ما إن لمح فيض الله حتى نزل لاستقباله، وخلفهم وقف حنطور بزغ منه ذلك الشاب الوسيم ممشوق القوام، كل منهما سلم على الآخر باشتياق، اصطحبهم عبيد إلى بهو الصالة الفسيح، دخل فيض الله حجرة منيفة فتهللت لرؤية جدها، مال عليها وطبع قبلة حانية على جبينها أما هي فقبلت خديه ويده وكأنه لم يزرها منذ سنوات، حملق في وجه الرضيع الغارق في النوم، لامس إصبعه خده الناعم فتململ رأسه، دنا إليه وقبّل خده فانتبه وفتح عينيه البندقيتين فبدا أكثر شبهًا بجده تقاوي، استأذنها فيض الله وأراد الجلوس مع عبد الرحمن الرافعي ليستأنس بحديثه، لكن السفرة امتدت وحليمة هانم دعتهم إلى الغداء، أكلوا صامتين ومعروف يتمنّى لو اقتنص هبرتين معه إلى البيت لضمان العشاء.

ـ تأخرت يا رافعي؟

ـ معذرة يا عبيد، مررت بقصر إسماعيل بالجزيرة وفعلا تأخرت هناك، لي صديق يحب التصوير، التقط صورًا للقصر والأشجار من حوله.

ـ قصر الجزيرة كان استراحة ملكة فرنسا أيام حفل القناة.

ـ صحيح يا عم معروف، القصر كان استراحة الإمبراطورة أوجيني زوجة نابليون الثالث إمبراطور فرنسا.

لم يعقب عبيد على توضيح صديقه الرافعي الذي أفرده كتصحيح لمعلومة معروف، ولأنه يعلم تمام العلم خبيئة عقل فيض الله من مخزون ذكريات فالتفت إليه وأدرك العجوز المتخطي الثمانين مغزى تلك الابتسامة المحفزة من عبيد فإنه يريد أن يزبد بما لديه ولم يحرمه فيض الله فربما تكون هذه آخر الحكايات التي يرويها لزوج حفيدته الحبيبة وبدوره يدونها فيأتي أستاذ كبير ومحترم مثل صديقه المحامي الشاب فيستفيد من كلامه، دون إبطاء تحدث: ـ قبل فتح القناة بسنوات أمرنا بكباشي الفيلق رشدي الشركسي بحراسة مواد بناء سراي جديدة بالجزيرة، الاسم حراسة لكن في الحقيقة سلمنا سلاحنا وأقمنا الخيام لمشاركة العمال في نقل الطوب والأحجار، ومع مرور الأيام والأسابيع والشهور وصلت السفن المحملة والعربات من محطة القطار وكلها محملة بمواد وتحف طلبها مهندس ألماني اسمه فرانز ومن ساعده من مهندسين فرنسيين، وأمر ولي النعم الخديو إسماعيل تزيينه بعناية على غرار طراز مقر إقامة أوجيني في قصرها بفرنسا بالإضافة إلى نوافذ وشرفات كمشربيات بيوتنا هنا في قلب المحروسة، وقام مهندس مناظر طبيعية فرنسي بتحويل الجزيرة كلها إلى متنزه واسع به أشجار من كل نوع وشكل وداخل القصر لوحات وتماثيل غالية، ونافورة من المعدن المشغول، وسلم من الرخام، وساعات جدارية قديمة، وتحف ولوحات، منها رسم للإمبراطورة أوجيني، تخيل يا أستاذ تكلفة قصر الجزيرة وصلت لكم من الجنيهات؟!

ـ بحسب ما تحكيه وصلت آلافًا.

ـ سبعمائة وخمسين ألف جنيه وتزيد.

ـ سبعمائة وخمسين ألف جنيه من أجل محل إقامة كبار المشاركين في حفل.
ـ غير إنشاء طريق الأهرام ومبنى كبير جدا للأوبرا غنى فيه الأجانب.
ـ مال البلد كله راح في حفل، وبمناسبة الأوبرا، سمعت أن تسعة آلاف جنيه تم دفعها لجوقة الأوبرا الأجنبية والبلد حاله...
ـ أقول لك حكاية يا أستاذ عبد الرحمن أنت وعبيد، حتى معروف ما رويتها قدامه، في يوم قبل مصيبة دنشواي بسنة.
ـ نقول سنة ألف وتسعمائة وخمسة.
ـ تقريبًا، واحد معرفة يخدم في الجيش، طلب مني أنظف أعمدة النور قدام قصر الجزيرة، وقمت بمهمتي والحمد لله، قعدت أشرب شاي وحنطور وقف ونزلت منه أجنبية قربت تطب الثمانين تتعكز على عصاة أبانوس ومعها خادم يكلمها بالفرنسية فتلفت وسألني: يوجد بالقصر أي واحدة من أرامل خديو مصر إسماعيل؟ فأجبته بالنفي فسألني: ولا حتى جشم آفت هانم أو نور فلك قادين هانم؟ فرددت عليه بأني لا أعرف حتى أين تعيش جشم آفت هانم ولا نور فلك هانم أم السلطان حسين كامل ولما أعاد عليها كلامي بالفرنسية هزّت رأسها وابتسمت لي فسطع وجهها المحتفظ ببقية من جمال طحنته السنون فهي نفسها الإمبراطورة أوجيني صاحبة حظوة الخديو إسماعيل، تعود لزيارة القصر محل إقامتها الماضي في جزيرة الزمالك.
ـ كلامك صحيح يا جد فيض الله، فعلا سمعنا أنها حضرت هنا وأقامت في فندق سافوي ببورسعيد.
ـ قبل أن تأمر سائق الحنطور بالتحرك هوّمت برأسها فأشار لي مرافقها أن أقترب، فتحت شنطة سوداء وأعطتني منها جنيهًا.
ـ أنت الوحيد يا جد فيض الله رجعت لك حاجة من مال البلد المصروف على الإمبراطورة.
ـ لكن في الحقيقة صعب عليّ حالها، من خدم وحشم وحرس وملابس غالية وجوهر نفيس إلى معطف أسود وبرنيطة عليها ريشة وحنطور.
ـ لما انهزم زوجها نابليون الثالث في حربه مع الروس، ثار الشعب الفرنسي عليهم، حتى أن خدمها سرقوا ملابسها وجواهرها، الإمبراطورة نفسها هربت من أحد أبواب القصر الخلفية إلى إنجلترا، ولحق بها زوجها وابنها لويس نابليون.

لا يدري فيض الله سببًا لشعوره بأن الشاب الذكي عبد الرحمن الرافعي هذا على معرفة حقيقية بسيرة الملوك والسلاطين والأمراء رغم أنه صغير السن في بداية الثلاثينيات وحقيقة أعجب به أيما إعجاب وتمنّى أن يستفيد من الأوراق التي كتبها عبيد عن حكاياته أيام هوجة عرابي ومن قبلها حفل القناة ومن قبل قبلها حفر القناة، قبل أن يستأذن عبد الرحمن سلم على فيض الله ومعروف..

ـ صدقني يا جد فيض الله، روايتك عن عرابي لها عندي قيمة كبيرة لأنها من شاهد عيان.
ـ نعم يا أستاذ عبد الرحمن، شاهد عيان على عرابي الراكب فرسه وسطنا نحن جيش مصر ويقف شاهرًا سيفه في ميدان عابدين، ونفس ميدان عابدين أيام الخديو توفيق

احتفل فيه عسكر الإنجليز بعيد ميلاد ملكتهم فيكتوريا، مستغرب كيف تلقب ملكة إنجليزية نفسها بإمبراطورة الهند، ناقص تكون ملكة مصر بدل الملكة نازلي والكيد الطافح أن يحضر الخديو ووزراؤه الحفل ويخدمون جنرالًا اسمه دورمر وكل من يحمل لقب مارشال وسير ولورد والناس نسيت النديم وطلبة عصمت وفهمي والروبي ومحمد عبيد.

ـ لو فيه ناس نسيت غيرهم ما لهم عدد ما زالوا فاكرين وإلا ما كان سعد زغلول وكل الشعب يتظاهر معه، والقادم أفضل وأظن اسم ابن عبيد من اقتراحك.

هزّ عبد الرحمن رأسه واستأذن فرافقه عبيد إلى الخارج وفيض الله مدهوش من لباقة الشاب ولمحته فائقة الذكاء، غاب عبيد قليلا ورجع خلفه ضيوف الربع، أم فانوس وأم يوسف وتريزا ومريم على كتفها صغيرها محب، خرجت منيفة من حجرتها وبين يديها محمد، حضنت جاراتها والتصقت بمريم التي وضعت محب على الكنبة وأغرقت منيفة ورضيعها بقبل حميمة، جلست دميانة جوار حليمة هانم ومنيفة بين مريم ومحب الذي مدّ يده ولامس خد الرضيع، بجرأة ركنت منيفة رضيعها على حجر محب وسندته بيدها والصبي الصغير يتأمله بعينيه الزرقاوين كعيني أبيه يوسف، لامست كفه الصغيرة شعر محمد وتباعدت شفتاه في ابتسامة عذبة فظهرت أسنانه الأمامية، علا صوت مناغاته وكأنه يكلم الرضيع المركون على حجره، انقبضت تقاسيم وجهه الغضة وبكى حين رفعت منيفة ابنها بين يديها فضجت الصالة بالضحك، ومعروف يرفع صينية نحاسية وينقر عليها ثم يثبتها على رأسه: ـ آه لو عليها أكواب من ذهب لرقصت مثل بمبة كشر.

ـ فيه هناك شمعدان كبير يا معروف.

ـ أحضره يا فيض الله وأثبت على دماغي وأرقص رقصة شفيقة القبطية...

ولأن فيض الله عهد من رفيقه الطيب والمحب لأغنيات الطرب إشاعة الطرف المرحة فربت على كتفه في سرور، معروف يعيد الصينية بين يديه وينقر عليها في هدوء، يميل وجهه نحو الصغيرين..

ـ رأيكم يا كتاكيت أغني أغنية حلوة.

ـ تمام يا عم معروف.

صمت المتحلقون وركن معروف الصينية، دون صخب صفق بيديه في روية وكأنه يمهد لكلمات الأغنية: كيكي كيكي كيكو يا كيكي كيكو

كيكي كيكي كيكو يا كيكي كيكو...

تداخلت ضحكات السيدات، فيض الله يهز رأسه ويبتسم لروح صديقه المتصافية وانفلات المرح من بين شقوق أعوامه المديدة ومعروف يناغش الصبيين بأصابعه العجفاء ويستمر في الغناء..

دا جمال يا بيه الله عليه

مالي سحت ليه ما عرفشي ليه[55]...

همّ أن يكمل لولا بكاء الصغيرين في وقت واحد بسبب ضجة الضحك من حولهما فهزت مريم صغيرها محاولة تهدئته ودخلت منيفة الحجرة لترضع محمد، نهض فيض الله تبعه

معروف، آمام باب الجنينة سآل: ـ وشغلك يا عبيد؟
ـ أنا وزميل لي فتحنا مكتب محاماة قريبًا من هنا.
ـ جميل.
ـ وتحت إشراف الأستاذ عبد الرحمن الرافعي.
ـ جميل جدًا، الزمه يا عبيد، عبد الرحمن شاب حكيم وله دراية واسعة.
ـ حاضر.
أقبل الحنطور وركبه العجوزان، الشارع مظلم ولاحظ فيض الله أن مصابيح أعمدة الإنارة معظمها مكسور ومطفأة وحين وصلوا للسيدة زينب والشارع المؤدي إلى مسجد ابن طولون اعتمد العربجي على حفظه للطريق فكل الأعمدة خربة وأسلاكها مقطوعة ومصابيحها مدمرة، القهوة مغلقة والمارة قلائل رغم حرارة الجو، عاد إلى البيت وأشعل مسرجة قديمة من الفخار، أمام الباب بدأ ينظف عمود الإشعال وأسطوانته الحديدية المستديرة، أراح ظهره وأنامله تدفع حبات المسبحة..
ـ كنت آهديتها لعبيد.
ـ لا، الوحيدة مسبحة الأمير عبد القادر أحتفظ بها وبعد موتي تروح لصاحب القسمة والنصيب.
توقفت أصابعه وأدخل السبحة بسيالة الجلباب، التفت لمعروف وسأله: ـ عندك زيت؟
ـ عندي صفيحة زيت خروع وخيش وكتان.
ـ رأيك يا صاحبي؟
ـ معك يا صاحبي.
بجهد حمل فيض الله على ظهره السلم الخشبي القصير ومعروف بيده صفيحة الزيت وبالأخرى كيس الخيش والكتان، في منتصف الشارع رجل يلصق ورقة كبيرة على جدار ولما أحسّ بخطواتهما توارى خلف حائط البيت، يقترب العجوزان من ناصية الشارع، يركن فيض الله السلم فيصعد معروف وينظف مكان المصباح المكسور ويلف قطعة الخيش المغموسة بالزيت وبدربة قديمة يلفها جيدًا وفيض الله يشعل أسطوانة عمود الحديد ويرفعه فيتوهج أعلى عمود الإنارة، يتأمله ويسيران نحو غيره، نقرات حوافر خيول مقتربة فالتصق معروف بكتف صاحبه، توقف فرس الميجور خلفه فرس الكابتن جواره اثنان يشهران بندقيتهما، سارع أحدهما إلى الجدار وخمشت أصابعه الورقة العريضة ومزقها.
تفرّس الميجور في وجه فيض الله، وأدرك أنه ليس هو من يلصق المنشورات، رفعت أصابعه الطاقية العسكرية وأشار لتابعيه بالابتعاد، راقبهم فيض الله والجنديان يقطعان أي لوحة على حيطان البيوت وأبواب الدكاكين المغلقة، ساروا حتى خيام معسكرهم البعيدة جوار أحواش مهجورة والميجور يتمنّى أن يستمر مشعلجية الحي في إعادة إنارة الأعمدة حتى يُضاء الشارع المؤدي إلى ثكنتهم النائية، تارة أخرى يفاجئهم الرجل من وراء حائط البيت، تقبض أصابعه على حامل جردل الغراء وبالأخرى لفة منشورات، ما إن اقترب من المصباح حتى أشرق وجهه وفي صوت واحد نطق معروف وفيض الله.
ـ محروس أفندي!

ـ هو بشحمه ولحمه يا عم فيض الله.
ـ لكن أنت...
ـ كان عندك حق يا عم فيض الله، كلكم كان عندكم حق، قرفت من الإنجليز ومعلباتهم المسمومة.
ـ ربنا يهديك يا رب وتكمل نص دينك.
ـ أنا فعلا خطبت أخت زميل لي في المصلحة.
ـ سبحان مغير الأحوال.

تأمل محروس أفندي العجوزين وفي قرارة نفسه شعر بتفاهة سنواته الفائتة، أعجب بإصرارهما على إنارة الأعمدة التي تكسّرت مصابيحها، تراجع وخلف العمود القريب من الجدار غمس فرشاة صغيرة في الغراء وملط الحائط، عليها فرش الورقة الكبيرة ولما تأكد من التصاقها خطا في سرعة نحو جدار مقابل، على ضوء المصباح أبصر فيض الله صورة علبة مكتوب عليها بخط يد مائل..

Made in England وعليها علامة الإكس، أسفلها تهجّى أحرف كلمات الجملة القصيرة (قاطعوا البضائع الإنجليزية).

أصوات ركلات خافتة وخرج ثلاثة أولاد من الزقاق بين أرجلهم كرة صغيرة، تهيأ فيض الله لصياحهم وقرر ألا يزجرهم إن قالوا: عفريت الليل بسبع رجلين، لكن أطولهم خطا نحو الورقة الملصوقة بالجدار وبصوت عال قرأ على رفاقه المكتوب، مال طرف اللوحة فرفع الولد ذراعه وفرد كفه عليها؛ ليعيد لصقها، شاط أحدهم الكرة لزميله وجروا لتخفيهم الحارة، أشار فيض الله بالعبور إلى الجانب الآخر من الطريق والمجاور للعطفة والزقاق والدرب لإنارة الأعمدة، التفت إليه رفيق عمره ورمى سؤاله المعروفة إجابته..

ـ وفي الصبح نخمدها.

ظلّ فيض الله صامتًا، خفق قلبه للشارع المضيء، من ثنية بعيدة تقبل قامتان متقاربتان فخمّن معروف أنهما اثنان من الأفندية يحمل كلٌّ منهما كيسًا ورقيًا به طلبات عشاء بيته، يتمشيان بخطى وئيدة وهما يتفرّجان على الأعمدة المضاءة بالخيش والزيت، أضواء المصابيح ترعش ظليّ قامتيهما، ووضح من مشيتهما معًا أنهما هلال أفندي وصليب أفندي يتحاوران كعادتهما وحين اقتربا من العجوزين سلما عليهما..

ـ الله ينور عليكم، والله زمان يا مشعلجية.
ـ يا سلام لو تبقى كل أعمدة المحروسة منورة على طول.

قوّس فيض الله ذراعه حول كتف معروف وراقب ظهريهما وهما عائدان إلى سكنهما، وقرّر ألا يطفئ الأعمدة في الصباح كما قال معروف بل سيتركها مضاءة رغم شروق الشمس.

تمت

تحية تقدير للعلاّمة المؤرخ الكبير الأستاذ/ عبد الرحمن الرافعي وسلسلته التاريخية الكبرى: 1 ـ عصر محمد علي ـ دار المعارف ـ ط 5 ـ 1989م.

2 ـ عصر إسماعيل ـ جزء 1 ـ دار المعارف ـ 1987م.
3 ـ عصر إسماعيل ـ جزء 2 ـ دار المعارف ـ 1987م.
4 ـ الزعيم أحمد عرابي ـ دار الهلال ـ ط 1 ـ 1952م.
5ـ مصر المجاهدة في العصر الحديث (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي والسودان) ـ جزء 4 ـ دار الهلال ـ ط 3 ـ 1989م.
6 ـ مصر المجاهدة في العصر الحديث (التراجع والانتكاس من الاحتلال إلى ثورة 1919) ـ جزء 5 ـ دار الهلال ـ ط 3 ـ 1990م.
7 ـ ثورة 1919 تاريخ مصر القومي من سنة 1914 ـ 1921 ـ الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة سلسلة ذاكرة الكتابة ـ 2018م.

بالإضافة إلى:

* التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر ـ ألفريد سكاون بلنت ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة 2012م.
* مصر من نافذة التاريخ ـ جمال بدوي ـ مكتبة الأسرة 1995م.
* حكايات مصرية ـ جمال بدوي ـ مكتبة الأسرة 1997م.
* تاريخ أسيوط وحضارتها عبر العصور ـ مجموعة مؤلفين ـ المركز الإعلامي بمحافظة وجامعة أسيوط 2008م.

أغنية كيكي كيكو: تأليف بديع خيري وألحان سيد درويش، غناء نعيمة المصرية في مسرحية الطاحونة الحمراء 1922م.

المؤلف

أيمن رجب طاهر
مواليد أبنوب بأسيوط 23/6/1973م.
عضو اتحاد كتاب مصر.
عضو نادي أدب أسيوط.
عضو نادي القصة بأسيوط.
أعمال صادرة:
النتاج الروائي:
موت بريء (رواية) 2007م عن مركز سيتي للطباعة بأسيوط.
شرنقة الجسد (راوية) 2011م عن الهيئة العامة لقصور الثقافة. [حازت هذه الرواية على جائزة مسابقة جمعية أصدقاء أحمد بهاء 2010م].
وني.. حكيم الحروب (رواية) 2011م روايات الهلال.
إبور.. ناصح الفرعون (رواية) 2013م روايات الهلال.
القحط (رواية) 2013م عن دار الأدهم للنشر. ط 2 2019م عن دار كيان للنشر والتوزيع. [حازت هذه الرواية على جائزة الدولة التشجيعية 2016م].
بنتاور.. الساقي الأمين(رواية) 2014م روايات الهلال.
حم إيونو.. عظيم الهرم (رواية) 2016م روايات الهلال.
تل العقارب (رواية) 2017م عن دار الأدهم للنشر. [حازت هذه الرواية على جائزة بهاء طاهر لأدباء الصعيد المقدمة من اتحاد كتاب مصر 2021م].
بني عدي (رواية) 2017م عن دار العماد للنشر.
ليل زوارة (رواية) 2017م عن دار كيان للنشر والتوزيع.
نوڤيلا (رواية) 2018م عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.
أنوبيس.. يرقص على حافة الحياة (رواية) 2019م عن دار بردية للنشر والتوزيع.
مرفأ الأربعين (رواية) 2020م عن دار غراب للنشر والتوزيع.
الهجانة (رواية) 2020م عن دار كيان للنشر والتوزيع. [حازت هذه الرواية على جائزة كتارا العالمية للرواية العربية 2021م] وتمت ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية بعنوان: THE CAMELEERS
أنسباي حكاية أنس بن مصري (رواية) 2021م عن دار كيان للنشر والتوزيع.
حرمخيس وحلم الاستقلال (رواية) 2021م دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع.
حيدر بن زرع النيل ـ صفحات سوداء في التراجم والأخبار ـ (رواية) 2022م عن دار كيان للنشر والتوزيع.

عن داركتارا للنشر والتوزيع 2023م (The Cameleers (A novel.
نتاجات أخرى:
التابوت (قصص) 2005م عن مركز سيتي للطباعة بأسيوط.
مدونة الأساطير(قصص) 2007م عن مركز سيتي للطباعة بأسيوط.
من أنتم؟ (قصص) 2013م عن المركز الأدبي للطباعة بأسيوط.
بيت الحكمة (مسرحية) 2013م عن المركز الأدبي للطباعة بأسيوط.
كتاب الموتى 2015م (نصوص) دار ميتابوك للطباعة والنشر.
صدى لضوء خافت (قصص) 2019م مطبوعات اتحاد كتاب مصر.
زهور بلا أشواك (مسرحية) تم عرضها بقصر ثقافة الزعيم جمال عبد الناصر ببني مر 2019م
سأبوح بسري لخلاني السطور (قصص) 2021م دار ميتابوك للنشر والتوزيع.
جوائز وتكريمات:
* جائزة أحمد بهاء الدين الثقافية في أدب الطفل 2009م
* جائزة أحمد بهاء الدين الثقافية في الرواية 2010م
* تقييم معنوي من أمانة جائزة الشارقة (الإصدار الأول) في المسرح عن مسرحية (بيت الحكمة) 2010م
* جائزة أخبار الأدب ومؤسسة المصري في القصة القصيرة 2011م.
* جائزة القصير للإبداع الأدبي في القصة القصيرة 2011م.
* درع نادي القصة بأسيوط لعام 2012م.
* إطلاق اسم (أيمن رجب طاهر) على دورة مؤتمر نادي القصة بأسيوط 2014م.
* جائزة ثقافة بلا حدود العراقية في القصة القصيرة 2016م.
* جائزة صالون نجيب الثقافي في القصة القصيرة 2016م.
* درع هيئة قصور الثقافة للمكرمين عن أسيوط بالمؤتمر السابع عشر لإقليم وسط الصعيد الثقافي 2017م.
* درع رابطة الشعراء والأدباء العرب 2017م.
* درع التميز من فرع ثقافة أسيوط 2017م.
* درع التميز من نادي القصة بأسيوط 2017م.
* درع التميز من مدرسة السلام الحديثة المشتركة 2017م.
* شارة محافظة أسيوط بمناسبة فوز رواية (القحط) بجائزة الدولة التشجيعية 2017م.
* درع التفوق من نقابة محامي أسيوط 2017م.
* درع اتحاد كتاب مصر فرع الجنوب 2018م.
* درع نادي الأدب المركزي بأسيوط 2018م.
* شهادة تقدير وميدالية من اتحاد كتاب مصر بمناسبة فوز رواية (تل العقارب) بجائزة الأديب العالمي بهاء طاهر لأدباء الصعيد 2021م.

* جائزة الدولة التشجيعية في الآداب عن رواية القحط (رواية تاريخية) لعام 2016م.
* جائزة بهاء طاهر لكتاب الصعيد المقدمة من اتحاد كتاب مصر عن رواية (تل العقارب) 2021م.
* جائزة كتارا العالمية للرواية العربية عن رواية (الهجانة) 2021م.

نشرت قصصه في مجلات منها:

جريدة أخبار الأدب / مجلة الثقافة الجديدة / جريدة السفير/ مجلة المحيط الثقافي / مجلة نزوى العمانية / مجلة اللقاء / جريدة أخبار أسيوط / مجلة الرافد الإماراتية / مجلة الفيصل السعودية / جريدة الأهرام / مجلة أمارجي العراقية / جريدة القاهرة / مجلة عالم الكتاب.

أبرز الدراسات والمقالات النقدية:

تناول أعمال الكاتب الكثير من النقاد بالدراسات النقدية منهم: 1 – (الفقراء يخسرون مرتين قراءة في رواية شرنقة الجسد) للأستاذ الناقد / عبد الحافظ بخيت متولي نشرت بجريدة أخبار الأدب عدد 987 يوليو 2012م.

2 – (هندسة البناء، رؤية في قصة وجه مبتسم) للأستاذ / قاسم مسعد عليوة نشرت بمجلة الثقافة الجديدة باب القادمون عدد 261 يوليو 2012م.

3 – (سيمياء الرمز في مجموعة قصص من أنتم؟) للدكتور الناقد / أحمد الصغير نشرت بكتاب المؤتمر العام لأدباء مصر الدورة 29 ديسمبر 2014م.

4 ـ (الآخر في الإبداع رواية القحط نموذجًا) للباحث د / أحمد مصطفى علي، نشرت بكتاب أبحاث المؤتمر الأدبي الخامس عشر لإقليم وسط الصعيد الثقافي بالوادي الجديد 2015م.

5 – (القحط يجتاح البلاد قراءة في رواية القحط) للروائي الناقد / محمود عرفات نشرت بكتاب أبحاث مؤتمر اليوم الواحد بأسيوط 2015م.

6 – (الرواية وتداخل الأجناس – المشهد السينمائي في الرواية الجنوبية القحط نموذجًا) للروائي الناقد الأستاذ / محمد صالح البحر نشرت بكتاب أبحاث المؤتمر الثالث لنادي القصة بأسيوط.

7ـ (السينما في الرواية _ القحط نموذجًا) للروائي والناقد الأستاذ / محمد صالح البحر نشرت بمجلة الرافد الإمآراتية عدد 236 إبريل 2017م.

8ـ (قراءة في أبنية السرد وظواهره لدى كتاب الصعيد – رواية تل العقارب نموذجًا) للناقد د/ سعيد حامد نشرت بكتاب أبحاث المؤتمر الأدبي الثامن عشر لإقليم وسط الصعيد الثقافي بالمنيا 2018م.

9ـ (سرد ما بعد الحداثة، من كتابة الواقع إلى واقع الكتابة فنية المخطوط في رواية نوڤيلا) للناقد د/ محمود فرغلي علي نشرت بكتاب أبحاث المؤتمر السابع لنادي القصة بأسيوط 2018م.

10ـ (المجد للبسطاء – عن رواية تل العقارب) للناقد القاص أ/ محمد عبد المطلب نشرت بمجلة الحوار الصادرة عن إقليم وسط الصعيد الثقافي مارس 2019م.

11ـ (مشهد كابوسي من أيام الشدة المستنصرية عن رواية القحط) للروائي الناقد د/ محمد سليم شوشة نشرت بمجلة الثقافة الجديدة عدد 343 ابريل 2019م.
12ـ (الكتابة كنزوع للتوافق الجمالي قراءة في رواية نوڤيلا) للناقد د/ محمد سمير عبد السلام نشرت بمجلة مصر المحروسة 30 مايو 2019م.
13ـ (السعي لانتصار الموروث في أبنوب قراءة في مجموعة «صدى لضوء خافت») للقاص أ/ فراج فتح الله نشرت بالملحق الأدبي لجريدة الأهرام 22 نوفمبر 2019م.
14ـ (الهجانة وبناء التصورات الذهنية المغايرة) للباحث د / أحمد مصطفى علي، نشرت بمجلة الحوار الصادرة عن إقليم وسط الصعيد الثقافي العدد السادس 2022م.
15ـ (دلالة المكان في تشكيل الهوية عند أدباء الصعيد مقاربة أسلوبية رواية القحط بين بنية النص ودلالة المكان/ المكن في رواية أنسباي) للباحث أ / شعبان كامل المنفلوطي، نشرت بكتاب أبحاث المؤتمر الأدبي الحادي والعشرون لإقليم وسط الصعيد الثقافي بسوهاج مارس 2022م.
16ـ (الهجانة ومآسي إجبار المصريين على الحرب لصالح الاستعمار) للأستاذة والناقدة /هبة عبد الستار نشرت بجريدة الأهرام مارس 2022م.
17ـ (السرد بضمير الأنا واستعارة الواقع في مرفأ الأربعين) لـ د/ سعيد فرغلي حامد نشرت بجريدة المصري اليوم سبتمبر 2023م.

*مشاركات ومؤتمرات: المشاركة في العديد من المؤتمرات منها: مؤتمر أدباء مصر بالقاهرة 2010م.
مؤتمر الاحتفال بمئوية نجيب محفوظ في الأقصر 2012م.
مؤتمرات نادي القصة بأسيوط من 2010م إلى 2022م.
مؤتمر أدباء مصر بأسيوط 2014م.
مؤتمر إقليم وسط الصعيد الثقافي بأسيوط 2017م.
باحث بمؤتمر إقليم وسط الصعيد الثقافي بالوادي الجديد 2019م.
مؤتمر مصر المبدعة بمكتبة الإسكندرية 2022م.
مؤتمر أدباء مصر بالوادي الجديد 2022م.